الذئب الأحمر

ستـــالين

اسم الكتاب : ستـــــــالين

اسم المؤلف : يوسف ابو الحجاج الأقصري

اسم الناشر : مكتبة زهران - دار الراوي

رقم الايداع : 15481 / 2017

الترقيم الدولي : 4-090-349-977-978

لا يجوز نشر الكتاب أو جزء منة بكافة الوسائل المرئية والمسموعة أو على الإنترنت إلا بالرجوع للناشر واخذ موافقة خطية منة ومن يخالف ذلك يعرض نفسة للمسائلة القانونية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظه

الذئب الأحمر

ستالين

(١٨٧٩م - ١٩٥٣م)

يوسف أبو الحجاج الأقصري

تقديم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وبعد.

هذا الإصدار عن جوزيف ستالين أحد الشخصيات المؤثرة في تاريخ العالم المعاصر... وهو ليس سيرة ذاتية عنه بل عن أفكاره

أنه جوزيف فيساريو نوفيتش ستالين وكان القائد الثاني للاتحاد السوفيتي بعد لينين، عرف بقسوته وقوته وأنه قام بنقل الاتحاد السوفيتي في مجتمع زراعي إلى صناعي مما مكن الاتحاد السوفيتي من الانتصار على دول المحور في الحرب العالمية الثانية تسبب في قتل حوالي ٢٣ مليون روسي خلال الحرب العالمية الثانية، ويقال أنه المؤسس الحقيقي للقوة العظمى التي كانت معروفة باسم الاتحاد السوفيتي.

في هذا الإصدار نتعرف عن أفكاره وحياته وكيف استطاع أن يملك زمام أمور هذه الإمبراطورية العظمى ويصل بها إلى ما وصلت من قوة على الرغم من أنه كان ديكتاتورا بمعنى الكلمة.

ومن خلال هذا الإصدار سنتعرف على العديد من الأسرار عن حياته وأفكاره.

تمنياتي بقراءة ممتعة

والله الموفق والمستعان

الفصل الأول

بطاقة تعارف

جوزيف ستالين القائد الذي تسبب في مقتل ٢٣ مليون روسي.

بطاقة تعارف

الاسم عند الولادة: جوزيف فيساريو نوقدتش جو غاشفيلي.

اللغة الأم: الجورجية.

الميلاد: ١٨ ديسمبر ١٨٧٨.

مكان الميلاد: نموري- تغليس الإمبراطورية الروسية.

الوفاة: ٥ مارس ١٩٥٣ عن عمر ٧٤ عام.

سبب الوفاة: أمراض دماغية وعائية ونزف مخي.

مكان الدفن: ضريح لينين- موسكو.

الإقامة: ستانت بطرسبرغ.

الديانة: (ملحد)

الزوجة: إيكا ترينا سفانيدزي (١٩٠٦-١٩٠٧).

ناديا سير جدفتا (١٩١٩-١٩٣٢).

الأبناء: ياكوف جونما شفيلي/ فاسيلي جونما شفيلي- سيفتلا جونما شفيلي.

ستالين.. ميلاده وأسرته

ولد ستالين واسمه الحقيقي جوزيف فيساريون رجوجًا مشفليي في ديسمبر ١٨٧٩ في مدينة صغيرة بجورجيا اسمها (جوري) من أسرة فقيرة عانت من صعوبة العيش ولم يختلف حال مدينته كثيرًا عن حال أغلب المدن الجورجية التي عانت من الفقر والظلم في ظل حكم القياصرة الروسي...

- كان له أخ وأخت بينما مات أخان آخران له في عمر الطفولة.

- والده هو (فيساريون) وكان يعمل بمصنع للأحذية وكان رجلاً عنيفًا خرب النفس مدمنًا للخمور ومات سكيرًا تاركًا ستالين الصغير في رعاية أمه.. والغريب أنه في أحد الأحاديث الخاصة للزعيم ستالين ذكر أن (فيساريون) لم يكن أباه الحقيقي وإنما كان أباه قسيسًا.

- الأم.. كانت أمه هي إيكاترينا جيلادز أو (كاترين). كما كانوا يسمونها فكانت تعمل بأشغال بسيطة كما تكسب لقمة العيش فعملت فترة في مجال حياكة الملابس كما عملت في مغسلة لغسل الملابس وكانت حادة الطباع عصبية المزاج ترتدي ملابس سوداء باستمرار وكانت تريد لأبنها ستالين أن يصبح قسيسًا.

ستالين الطفل

ظلت الأم كاترين ترعى طفلها الصغير وتحاول بالكاد تدبير لقمة العيش لأسرتها الصغيرة بعد وفاة زوجها.

ورغم حدة طباعها وقسوتها إلا أنها اختارت لطفلها اسم (موسو)

كاسم تدليل له ومن الطريف أنها ظلت تدعوه بهذا الاسم حتى بعد ما كبر وصار من رجال السياسة البارزين.

ولم يعاني ستالين في طفولته من الفقر والجوع فحسب بل كان يعامل بتشوه فقد كان أبوه يضربه ويعنفه من وقت لآخر كما كانت أمه قاسية عليه..

وسلك ستالين منذ صغره تعليمًا دينيًا فالتحق بمدرسة بالكنيسة الأرثوذوكسية ببلدة (جوري) وكان تلميذًا غير مطيع للأوامر والتوجيهات وغير محب للتعلم وفي عمر ١٤ عامًا ألتحق بمدرسة دينية عليا لدراسة اللاهوت في تيفلس عاصمة جورجيا.

ستالين الصبي

بدأت شخصية ستالين تتشكل خلال فترة حياة وسنوات دراسته الأولى وأصبح حاد عصبي المزاج وأطلق عليه زملاؤه اسم (كوبا) كاشارة إلى طباعه الحادة وميله للعنف والثورة ولم يستكمل ستالين سنوات الدراسة كاملة وإنما طُرد من المدرسة بعد أربع سنوات من التعليم بسبب فشله في التعلم وأيضًا بسبب تمرده وميوله الثورية واشتراكه في حركات سياسية مناهضة للحكومة والتي انتشرت في جورجيا.

وعمل ستالين بعدما طرد من المدرسة كموظف حسابات في مرصد جيوفيزيائي في تيفلس عام ١٨٩٩م وكان عمره انذاك عشرين عامًا.

ستالين الشاب

انشغل ستالين في مطلع حياته بالأفكار السياسية التي استحوذت على كل اهتماماته وانضم بعد طرده من المدرسة اللاهوتية في تيفلس إلى حركة اشتراكية ثورية وعمل كناشط سياسي اشتراكي في جورجيا.

ومنذ عام ١٩٠٢ وعلى مدى عدة سنوات أعتقل ستالين أكثر من مرة وأرسل للنفي في سيبيريا وكان ثوريًا عنيفًا لا يكف عن المشاكسة والتظاهر وتحريض العمال والفقراء ضد حكم القياصرة.

- وفي تلك الفترة المبكرة في شبابه كان شديد الإعجاب بأفكار لينين الشيوعية والتي استمدها من استاذه كارل ماركس ويمكن اعتبار سنة ١٨٩٩م هي سنة بدء ستالين بنشاطه الثوري الحقيقي.

كان ستالين في تلك الفترة يبدو شابًا قوي البنية صارم الملامح تحمل عيناه شيئًا من الغموض الممتزج بالتشوه وكان يمشي مرفوع الرأس واثقًا من نفسه وقد أطلق شعر شاربه ولحيته ذات اللون الأسود الكثيف وهو ما أضاف على ملامحه مزيدًا من الصرامة.

- كان ستالين يلتقي بالعمال كعمال السكك الحديدية ومصانع التبغ ومصانع الأحذية ويحدثهم عن الأفكار الاشتراكية التي تساوي بين الطبقات والتي تعتبر المخرج الوحيد من حياتهم القاسية وقد نجح بالفعل في كسب قاعدة عريضة من المؤيدين له واستطاع تحريض العمال على المظاهرات والثورة..

القبض على ستالين

في عام ١٩٠٠م اندلعت مظاهرات حاشدة في (تفليس) لكن الشرطة واجهتها مما أدى إلى سقوط أعداد كبيرة من القتلى والجرحى وقبض على ستالين.

- في السنة التالية تركز نشاطه في (ياطوم) وهي منطقة من القوقاز غنية بالبترول يقطنها العديد من العمال، واستطاع ستالين أن يحرضهم على مهاجمة السجن الذي احتشد بالمتحررين والمتظاهرين مما أدى لوقوع عدد كبير من القتلى.

وأصبح ستالين واحدًا من أبرز الناشطين السياسيين الذين تبحث عنهم أجهزة الشرطة واتخذ لنفسه عدة أسماء مستعارة بغرض التضليل مثل (نيجرازدرية، ايقانموقيسي، دافيد) وغير ذلك وصار ستالين أحد الشخصيات الهامة المطلوبة للشرطة.

وفي عام ١٩٠٢م استطاع رجال الشرطة التوصل إلى ستالين والقوا القبض عليه وتم إيداعه السجن لبضعة أشهر ثم تم ترحيله إلى سيبريا ليقضي هناك مدة ثلاث سنوات والحقيقة أن تلك الفترة التي قضاها ستالين في سيبيريا جاءت على عكس توقعات السلطة في روسيا فقد ساعدت ستالين على تقوية دوره كناشط سياسي مناهض للحكم هناك..

ولم يقضي ستالين كل المدة التي كان مقررًا له قضاؤها في سيبيريا حيث تمكن من مغافلة حراسة والهرب من سيبيريا ليعود مرة أخرى إلى (تفليس).

العودة إلى تفليس

عاد ستالين إلى (تفليس) ووجد أن الحزب الاشتراكي قد انقسم إلى البلاشفة والمنشفيل وكان ذلك في عام ١٩٠٤م وأصبح ستالين أحد أعضاء حركة البلاشفة في تفليس وأصبح مطاردًا من قبل الشرطة لأنه فر هاربًا من سيبيريا.

- ومنذ عام ١٩٠٥ اتجه ستالين للنشاط الإجرامي من خلال السطو على المحال العامة بتدعيم من البلاشفة بغرض تمويل الخلايا الثورية وترأس ستالين عدة عمليات إرهابية للسطو المسلح على البنوك ومكاتب الصرافة وعربات ثقل النقود وكان من أبرز تلك العمليات تلك العملية التي وقعت في ميدان (اريفان) في (تيفليس) عام ١٩٠٧م حيث ساهم ستالين ورفاقه في سرقة عربة نقل نقود وفي ذلك اليوم تحول الميدان إلى كتلة

من نار ودخان حيث ألقى ستالين ورجاله عدة قنابل متلاحقة على حراس عربة نقل النقود وتوالت طلقات الرصاص وانتشر الفزع في كل مكان ووقع العديد من القتلى والجرحى في أرجاء الميدان واستطاع ستالين ورفاقه سرقة كم كبير من المال قدر بمئات الآلاف من الروبل الذي كان مخصصًا لنقله للخزانة العامة وصدر تقرير عن الحادث جاء فيه أن مدير عملية السطو كان أحد تلاميذ لينين ويدعى (رجوجا شنيلي ستالين) وبدأ رجال الشرطة في مطاردته من جديد دون جدوى واستمر (ستالين) في عمله السياسي السري حتى برز نجم ستالين كناشط سياسي وثوري في تفليس واستطاع أن يأخذ مكانًا بارزًا له في المنظمة البلشفية المركزية في جورجيا عام ١٩١٢م.. وفي السنة التالية اكتسب الاسم المعروف به وهو (ستالين) لأن (ستال) بالروسية معناها الفولاذ أما الجزء الثاني من الاسم فهو منسوب إلى لينين وبذلك يعني هذا الاسم الرجل الفولاذي الليلينيني أو الرجل الفولاذي إشارة إلى قوة وصلابة ستالين..

وقد اكتسب ستالين أسماء أخرى كثيرة كان من أبرزها (كوبا) الذي اطلق عليه زملاؤه القدامى والذي يحمل في مضمونه معنى الثائر كما اكتسب ستالين دور البطل الشعبي في جورجيا الذي يسعى لتخليص الفقراء من الظلم والقهر فكان أشبه بالبطل الشعبي الأسطوري الجورجي الأصل (روبين هود)..

وبعد صعود البلاشفة إلى الحكم أصبح ستالين عضوًا في المكتب السياسي للثورة إلى جوار لينين وتروتسكي وغيرهما من البلاشفة البارزين..

- لقد أمن ستالين بحقوق الشعب وضرورة تلبيتها وعمل في المكتب السياسي كمسير لمطالب الشعب أو قوميير الشعب كما يقولون..

- اقترح ستالين على المجلس السياسي تكوين لجنة خاصة لحماية

الثورة عرفت باسم (تشيكيا) وضمت اللجنة نحو مائة ألف من البلاشفة والمتحمسين للثورة.

وفي عام ١٩٢٢م شغل ستالين منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي وأصبح (تروتسكي) هو أبرز منافسيه للصعود لأعلى وكان مختصًا بالشئون الدفاعية وقيادة الجيش الأحمر.

في يناير ١٩٢٤م توفي لينين بعد إصابته بأزمة صحية أفقدته القدرة على الكلام..

ستالين يتولى السلطة

بعد وفاة لينين تكونت لجنة ثلاثية لإدارة الحزب الشيوعي ضمت كلاً من ستالين وكامينيف وزينوفيف ونجح ستالين في كسب تأييد اللجنة الثلاثية ضد تروتسكي ووافقت اللجنة على نفيه خارج البلاد واستطاع ستالين التخلص من كل منافسة في الحزب الشيوعي سواء بالقتل أو النفي كما استطاع في عام ١٩٢٨م أن يصبح الحاكم الأعلى للبلاد حتى عام ١٩٥٣م حكمًا ديكتاتوريًا قاسيًا بث الرعب والخوف في نفوس الشعب وأدى لإزهاق أرواح الملايين من السوفيت الأبرياء سواء في ساحات المعارك الخاسرة أو في سجون ومعتقلاته.

تطهير الجيش الأحمر

اتجه ستالين لعملية سماها تطهير الجيش الأحمر من القادة الفاسدين وتركزت تلك الحملة عام ١٩٣٧م ونشرت الصحف السوفيتية أنباء تزعم بوجود مؤامرة داخل الجيش تورط فيها مجموعة من قادته العسكريين لقلب نظام الحكم وأعدم القائمون بها.. ولم يكن ذلك في حقيقة الأمر إلا ادعاء كاذب روج له ستالين بغرض القضاء على مجموعة

من القادة البارزين بالجيش الأحمر وكان ذلك راجعًا لإحساسه الدائم بالخوف من تآمر القيادات العسكرية البارزة ضده وعقدت محاكمات صورية لأولئك القادة وصدر حكم بقتلهم جميعًا، وكان من أبرز هؤلاء القادة العسكريين الذين قام ستالين بإعدامهم المارشال. توخا تشفكي نائب مفوض الشعب للدفاع، والجنرال أوبوريفتشي قائد منطقة روسيا البيضاء، والجنرال (ماكار) قائد منطقة (كييف) العسكرية، والمارشال بلوتشر والجنرال (يجوروف) والجنرال فاتيتسي وغيرهم من خير قادة الجيش السوفيتي..

وكان إجمالي ما قام ستالين بإعدامه من القادة ٣ مارشالات و١٣ قائد جيش، ٨٥ قائد فيلق، ١١٠ قائد فرقة وقد خسر ستالين بذلك مجموعة من أبرز القادة العسكرية وهو ما جعله في قائمة أسوأ وأفشل القادة العسكريين في التاريخ..

خسائر ستالين العسكرية

خلال الفترة ما بين ١٩٤١-١٩٤٥ قتل من السوفيت نحو ٢٣ مليون جندي وقدر عدد الضحايا من المدنيين والعسكريين في حصار ستالينجراد وحدها بعدد فاق مجموع ضحايا بريطانيا وفرنسا وأمريكا خلال الحرب العالمية الثانية كما دمرت نحو ١٧٠٠ بلده سوفيتية و٧٠,٠٠٠ قرية فضلاً عن تخريب المصانع والسكك الحديدية والحقول وعلى الرغم من الأعداد الهائلة من القتلى بين الجنود السوفيت الذين خلفهم الحرب فقد خرج ستالين من الحرب العالمية الثانية محاطًا بهالة ضخمة من التقدير وصار بطلاً قوميًا...

حروب ستالين

دخلت المعارك العسكرية في الاتحاد السوفيتي معتركاً خطيرًا وتعددت المعارك التي شاركت فيها القوات السوفيتية خلال الحرب العالمية الثانية بقيادة ستالين بصفته الحاكم الأوحد والقائد الأعلى للجيوش السوفيتية.

وصدر في الاتحاد السوفيتي كتاب بعنوان (حروب ستالين) تأليف جوفري روبرتسي... وهو مؤرخ مختص بدراسة الحروب والمعارك عمومًا ومرحلة ستالين خصوصًا وهو يقدم في هذا الكتاب دراسة مطولة ومعمقة عن الدور الذي لعبه ستالين إبان الحرب العالمية الثانية ثم في الفترة القصيرة التي تلتها والتي شكلت بداية الحرب الباردة بين القوتين الأعظم...

- وبعد إن قدم المؤلف لمحة تاريخية عامة عن حياة ستالين ونشأته وأساليبه في الحكم وتصفية خصومة السياسيين يقول بما معناه أن البعض يعتبر ستالين عبقريًا من الناحية الاستراتيجية لأنه استطاع أن يتصدى لهتلر وجيشه الجرار ويهزمه في ستالينجراد الخالدة والبعض الآخر يقول أنه ارتكب أخطاء كبيرة أثناء الحرب ولم يكن عبقريًا إلى الدرجة التي صوروه لنا بها...

- مهما يكن من أمر فربما كان (ستالين) يقع بين بين كما يقول هذا المؤلف الذي أضاف أنه فما من شك أنه كان ذا إرادة فولاذية ولولا ذلك فما استطاع أن يصمد أمام وحش جبار كهتلر والواقع أنه حاول أن يتحاشى الصدام معه في البداية لأنه كان يعرف مدى تفوقه العسكري والتكنولوجي ولذلك عقد معه معاهدة عدم اعتداء عام ١٩٣٩ وهي المعاهدة التي أثارت عاصفة من الانتقادات داخل المعسكر الغربي

وحاولت الأحزاب الشيوعية تبريرها أو الدفاع منها بطريقة ديماجوجية كما هو معتاد، وقد استمرت هذه المعاهدة سارية المفعول حتى عام ١٩٤١م وعندما لم يستطع هتلر الصبر أكثر فغزا الاتحاد السوفيتي ولكن هذه المعاهدة استمرت أكثر من عامين وأتاحت بالتالي للقائد النازي ادولف هتلر أن يتفرغ لجبهات أخرى في أوروبا ويلتهم عدة دول الواحدة بعد الأخرى..

وبالتالي فيمكن القول بأن ستالين ساعد هتلر بعقده لهذه المعاهدة معه في بداية الحرب العالمية الثانية والدليل على ذلك أن ستالين اضطر إلى تبرير موقفه لاحقًا أمام القادة الشيوعيين عندما قام [البعض يتساءل كيف يمكن للحكومة السوفيتية أن تعقد معاهدة عدم اعتداء مع شخص شرير وخائن كهتلر؟ والبعض ينتقدنا ويقول بأننا ارتكبنا خطأ كبيرًا وتخلينا عن مبادئنا الشيوعية إذا فعلنا ذلك، ولكني أقول لكم بأن هذا العمل لم يكن خطأ أبدًا وإن هذه المعاهدة كانت تمثل ضرورة تاريخية بالنسبة لنا، فقد أتاحت لنا أن نحضر أنفسنا جيدًا للحرب وكلكم يعلم أننا كنا بحاجة إلى فترة الهدنة هذه من أجل تسليح جيشنا وتشغيل مصانعنا العسكرية وتقوية دفاعاتنا.

- في الثاني والعشرين في شهر يونيو عام ١٩٤١م أعلن مولوتوف للشعب الروسي النبأ المرعب قائلاً: لقد غزانا هتلر بجيوشه الجرارة على الرغم من معاهدة عدم الاعتداء التي عقدناها معه، لقد نقض العهد وانقض علينا ولابد للشعب السوفيتي من مقاومته..

- ويقال بأن ستالين بقي صامتًا لمدة خمسة عشرة يومًا بعد سماعه بخبر الهجوم الألماني، ولم ينبس ببنت شفه طيلة كل تلك المدة، ولم يتوجه بالخطاب إلى الشعب السوفيتي إلا بعدها.. ويبدو إنه كان بحاجة

إلى هذه المدة للتفكير عميقًا في الأمر وفي كيفية مواجهة الوحش النازي الهتلري، كما وكان ينتظر ردود فعل بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية وكذلك مردود فعل الشعب السوفيتي نفسه..

- أحاط (ستالين) نفسه بالقادة العسكريين الكبار وراح يتناقش معهم حول الخطط الاستراتيجية والقرارات الهامة التي ينبغي اتخاذها في مثل هذه الظروف العصبية، وقد قسم الجبهة التي تفصل بينه وبين الجيش الألماني وهي جبهة ضخمة للغاية إلى ثلاث جبهات، واستلم شخصيًا مهمة القيادة العُليا للعمليات العسكرية.

- ثم توجه ستالين أخيرًا بالخطاب إلى الشعب السوفيتي لكي يشرح له الوضع ويشجعه على المقاومة والاستبسال ضد العدو الخائن الذي نقض العهد وهاجم البلاد فجأة ودون سابق إنذار...

- وقال ستالين لشعبه إن هتلر سوف يغرق في الأراضي السوفيتية مثلما غرق نابليون من قبل وأن النصر سيكون حليف الشعب السوفيتي في نهاية المطاف.

- وقال أيضًا أن هتلر يريد تحويلكم إلى عبيد واستغلال أراضيكم وبترولكم والقضاء على النظام الاشتراكي والعودة بنا إلى الزمن الاقطاعي، ثم قال: إنكم لا تدافعون فقط عن أنفسكم وإنما عن الحرية لكل الشعوب، ثم شكر ستالين موقف تشرشل الداعم للاتحاد السوفيتي وكذلك موقف الولايات المتحدة الأمريكية.

- ويستطرد قائلاً: لكن السؤال المطروح هو التالي:-

ألم يصب ستالين بالرعب بعد أن هجم عليه (هتلر)؟ ألم يفقد أعصابه أو معترياته في لحظة ما من اللحظات؟...

ويجيب قائلاً.. البعض يقول. لا ...، والبعض الآخر يقول نعم والدليل

على ذلك (أي على خوفه ورعبه) هو أنه عندما قابل مبعوث روزفيلت قال له أن الاتحاد السوفيتي يرحُب بالقوات الأمريكية على الأراضي السوفيتية إذا ما جاءت لمساعدتنا والدفاع عنا ضد الألمان، وقال له أيضًا ونقبل بأن تكون قواتكم تحت قيادة أمريكية (سوفيتية) وهذا دليل على أنه لم يكن واثقًا من نفسه إلى الحد الذي صوروه لنا... والبعض الآخر يقول عكس ذلك تمامًا..

- والواقع أن جيوش هتلر اخترقت الحدود السوفيتية وتغلغلت في البلاد لمسافة قدرها سبعمائة كيلو متر، واستولت على أوكرانيا في الشهور الأولى للحرب وهزمت جيش ستالين على كافة الجبهات تقريبًا... وهو دليل على أن السوفيت لم يحاربوا بما فيه الكفاية أو أنهم استلسموا بسهولة لعدوهم.

- وعلى هذا النحو دب الذعر في نفوس الشعب الروسي وبقية الشعوب السوفيتية، واعتقدوا أن هتلر قادم لا محالة وسوف ينتصر وربما وصل الذعر إلى ستالين نفسه، ولكنه حاول المحافظة على رباطة جأشه أن ستالين (الرجل الصلب) كان شديد المراسي ولا يستسلم حتى بعد أن وصلت جيوش هتلر إلى موسكو وحاصرتها من كل الجهات فلم يستسلم (ستالين) وإنما صمد بكل شجاعة وقوة...

- ولكي يستطيع ستالين الوقوف في وجه هتلر فإنه عقد معاهدة مع الحلفاء (أي الإنجليز والأمريكان) وقيل بأنه تلقى مليار دولار من أمريكا كمساعدة أو كقرض يرده إليهم لاحقًا، ولكن ستالين في ذات الوقت لم يكن يثق بهم كثيرًا...

- كان ستالين يخشى أن يعقد الحلفاء معاهدة سلام مع هتلر على حسابه وهكذا يتفرغ هتلر له، والواقع أن ستالين كان ينظر باحتقار إلى

كلا المعسكريين أي معسكر الرأسمالية الفاشية بقيادة هتلر، ومعسكر الرأسمالية الليبرالية بقيادة (الانجلوساكسوني الإنجليزي الأمريكي) وبالتالي فهو كشيوعي مضاد لهما معًا...

وهذا ما حدث بعد الحرب فقد دخل ستالين في حرب باردة طويلة الأمد مع المعسكر الرأسمالي بعد انهيار هتلر والنازية..

ستالين والاتفاق الألماني السوفيتي

كان من أشهر أخطاء ستالين العسكرية موافقته على الاتفاق الألماني السوفيتي أو ما سمى اتفاق (مولوتوف، ريدنيتمروب) وهي معاهدة عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي وهي معاهدة وقعت في العاصمة السوفيتية موسكو في ٢٣ أغسطس ١٩٣٩، وقام بالتوقيع عليها من الجانب الألماني وزير الخارجية الألمانية (ريبنتروب) ونظيره السوفيتي (مولوتوف)...

- نصت المعاهدة على بقاء كل من ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي على الحياد في حالة تعرض أحد الطرفين لهجوم من طرف ثالث...

- وقد تضمنت المعاهدة بروتوكولا سريًا يقسم شمال وشرق أوروبا إلى مناطق نفوذ سوفيتي وألماني ترقبًا لإعادة الترتيب السياسي والحدودي لهذه الدول...

- وعلى أثر ذلك قامت ألمانيا في ١ سبتمبر ١٩٣٩م والاتحاد السوفيتي في ١٧ سبتمبر ١٩٣٩ بمهاجمة بولندا واقتسامها بينهما تلي ذلك ضم الاتحاد السوفيتي لاستونيا ولاتيفيا وليتوانيا وبيسارابيا قبل أن يهاجم هتلر فنلندا مجبرًا إياها على التنازل على أجزاء من أراضيها.

- بقيت اتفاقية عدم الاعتداء هذه بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي سارية حتى ٢ يونيو ١٩٤١م حينما أقدمت ألمانيا النازية على غزو الاتحاد السوفيتي.

- دخلت معاهدة (ستالين- هتلر) إلى التاريخ باعتبارها دليلاً على مستوى الانحطاط التي اتصفت بها البيروقراطية الستالينية كما يقول المؤرخون الذين يروا أنها كانت اتفاقية خيانية تضمنت احتلال بولندا وتقسيمها إلى قسمين، قسم استولت عليه روسيا وقسم استولت عليه ألمانيا النازية..

- وقد وصف الستاليون هذه المعاهدة بأنها عملاً دفاعيًا ولكن الحقيقة والواقع أكدا أن هذه المعاهدة لم تحل دون اندلاع الحرب بين ألمانيا وروسيا إلا أنها ساعدت (هتلر) بالتأكيد على تحقيق أهدافه، لقد أدت إلى نشر الارتباك والإحباط بين صفوف المناضلين الشيوعيين الشرفاء في كل أنحاء العالم الذين نددوا بهتلر باعتباره أخطر أعداء الطبقة العاملة وأكبر تهديد للسلام العالمي...

- وعلى عكس ذلك ستالين الذي لم يتورع عن توقيع جميع أشكال الاتفاقيات الدبلوماسية مع القوى الامبريالية انسجامًا مع نظرية الاشتراكية ولم يتردد في التضحية بمصير الثورة الاشتراكية في الغرب وكان يعتبر نشر الثورة الاشتراكية على الصعيد الأممي الطريق الوحيد لضمان استمرارها وتطورها إلى الأمام نحو عالم اشتراكي...

- لقد شكلت المعاهدة بين ستالين وهتلر قطيعة أخرى مع التقاليد البلشفية والسياسة الخارجية اللينينية..

لقد مكنت هذه المعاهدة النازيين من الحصول على المواد الخام التي كانوا يحتاجون إليها من أجل بناء الأتهم الحربية في أوروبا لكي يتم

توجيهها فيما بعد إلى صدر الاتحاد السوفيتي نفسه وعلى سبيل المثال عام ١٩٤١ قدمت روسيا الستاليندية لألمانيا النازية ٩٠٠,٠٠٠ ألف طن من الزيوت المعدنية، ١٠٠ ألف طن من خردة الحديد ٥٠٠,٠٠٠ ألف طن من معدن الحديد إضافة إلى كميات هائلة من معادن أخرى..

- المعارضون لسياسات ستالين كانوا يؤكدون على أن ستالين انبطح بخزي أمم الفوهرر من أجل الحصول على رضاه وبطريقته وبعد توقيع المعاهدة قام ستالين بطرد جميع سفراء البلدان التي احتلها هتلر من الاتحاد السوفيتي.

- في شهر يونيو ١٩٤١ وأمام استغراب ستالين والعالم قام هتلر بغزو الاتحاد السوفيتي حيث واجه مقاومة هزيلة لأن غزوه لم يكن في الحسبان أبدًا ولم يكن الاتحاد السوفيتي مستعدًا لذلك لذا تكبد ستالين خسائر فادحة واختفى عن الأنظار أكثر من أسبوع وكان أخر ما قاله قبل أن يختفي (كل ما بناه لينين قد ضاع)

أشهر أقوال ستالين

جوزيف فيساريونوفيتشي ستالين (١٨ ديسمبر ١٨٧٨م- ٥ مارس ١٩٥٣م هو القائد الثاني للاتحاد السوفيتي ورئيس الوزراء (١٩٤١م-١٩٥٣م) ويعتبر المؤسس الحقيقي للاتحاد السوفيتي كان له عدة أقوال تعكس تفكيره وشخصيته نذكر منها ما يلي على سبيل المثال لا الحصر:

١- لا أثق بأحد حتى نفسي.

٢- الامتنان هو المرض الذي يعاني منه الكلاب.

٣- لا يمكنك إشعال ثورة بقفازات حرير.

٤- يظهر التاريخ أنه لا توجد جيوش لا تقهر.

٥- الكاتب هو مهندس النفس البشرية.

٦- تخرج القوة الحقيقية من بندقية طويلة فقط.

٧- وفاة شخص واحد مأساة ولكن وفاة مليون شخص مجرد إحصائية.

٨- السياسي الصادق مثل الماء الجاف أو الحديد الخشبي.

٩- البهجة هي السمة الأكثر تمييزًا في الاتحاد السوفيتي.

١٠- اؤمن بشيء واحد فقط هو قوة إرادة الشعب.

١١- الموت هو الحل لكل المشكلات وبدون بني آدم لا توجد مشكلات.

١٢- يفرض كل شخص نظامه بقدر ما يستطيع جيشه الوصول.

١٣- يتطلب الأمر في الجيش السوفيتي المزيد من الشجاعة للتراجع عن التقدم.

١٤- عندما نشنق الرأسمالين سيقومون ببيعنا الحبل الذي سنستخدمه.

١٥- مَنْ يدلون بأصواتهم لا يقررون نتيجة الانتخابات ومَنْ يفرزون الأصوات هم مَنْ يقررون.

١٦- لو تخلت المعارضة عن السلاح فهذا جيد، ولو رفضت التخلي عن السلاح فستتزع سلاحها بأنفسنا.

١٧- التعليم هو السلاح الذي تعتمد آثاره على مَنْ يحمله في يده ومَنْ يستهدفه..

١٨- الأفكار أقوى من الأسلحة، نحن لا نسمح لأعدائنا بالحصول على الأسلحة فلماذا نسمح لهم بالحصول على أفكار.

١٩- إذا بدأ أي وزير خارجية بدفاع مستميت في مؤتمر للسلام يمكنك أن تتأكد من أن حكومته قد أصدرت بالفعل أوامرها لبوارج وطائرات جديدة لتكون جاهزة للحرب..

- ويعرف عن جوزيف ستالين أنه كان رجلاً عسكريًا من الدرجة الأولى وزعيمًا وقائدًا بارعًا ولكن لا يعرف الكثيرون أنه كان رجلاً

عسكريًا من الدرجة الأولى وزعيمًا وقائدًا بارعًا ولكن لا يعرف الكثيرون أنه كان رجلاً فكاهيًا شديد المزاح...

وإليكم بعض أقوال الدعابة التي قالها ستالين عندما واجهته بعض المواقف:-

١- سأله أحد الأشخاص أن أتوبيس النصر سيتم تسميته (الوطن) فرد عليه ستالين ساخرًا (حسنًا وكم من الوقت سينتظر الوطن).

٢- خلال الحرب أمر ستالين القائد العسكري (لأي بايباكوف) أن ينكر اكتشاف حقول نفطية جديدة، وعندما أجابه بأن هذا غير مستحيل أجابه ستالين قائلاً (هناك نفط سيكون هناك بايباكوف... لا يوجد نفط يعني لن يكون هناك بايباكوف...

٣- بعد الحرب علم ستالين أن أحد الأشخاص بنى بالقرب من موسكو قصرًا كبيرًا ومكلفًا للغاية، فاستدعاه ستالين وقال له أقدم لك شكرًا من دار الأطفال التي قدمت لها هذا الكوخ الجديد الذي بنيته..

وفاته

(الخميس ٥ مارس ١٩٥٣م)

لم يحدث في التاريخ أن جمع حاكم في يده مثل هذه السلطة المطلقة التي كانت لستالين سواء كان (خان) أو حتى (قيصر) أو (امبراطور) كان الكثيرون يعتبرونه (الذي لا يُقهر) و(القائد) و(المعلم)

كانوا يعتبرونه في روسيا زعيم جميع المخلوقات الذي يدعو إلى الحياة ويوقظ الأرض ولكنه مع ذلك كان لا يعدو أن يكون مخلوقًا مثل سائر المخلوقات العادية..

ففي العاشرة مساء الخميس ٥ مارس عام ١٩٥٣م توفي جوزيف

فيساريو نوفيتشي المشهور باسم (القائد كوبا) الذي لا يُقهر أو (ستالين) أو (رجل الصلب).

كانت وفاته مثل حياته يكتنفها الظلام والسر والغموض ولم يعرف العالم الخارجي حتى في هذه المناسبة التاريخية الهامة إلا ما أراد أن يقدمه له المحيطون بستالين من معلومات...

- عرف العالم إنه حدث في مساء يوم الأحد السابق للوفاة أن أصُيب ستالين بإغماء نتيجة انفجار شريان من شرايين مخه وقد أعقب هذا الانفجار نزيف شديد في الجهة اليسرى من المخ، وكان من نتيجة ذلك أن شُلت حركة يده اليمنى وساقه اليُمنى كما أنه فقد النطق...

- ودعى أكبر الأطباء في الاتحاد السوفيتي وعلى رأسهم وزير الصحة ومعه تسعة من الاخصائيين لعلاج (ستالين) وفرضت عليهم جميعًا رقابة شديدة وأحصيت كل همسة من همساتهم أثناء تشاورهم كان هناك تسعة أطباء يراقب كل منهم الآخر، كما أن وزير الصحة السوفيتي كان يُراقب الأطباء، كما أن اللجنة المركزية والحكومة كانتا تراقبان الوزير وكان كل ذلك يُعلن للعالم...

- وكتم السر العظيم (وفاة ستالين) مدة ٤٨ ساعة ولم يعلم به إلا المقربون والأطباء...

- وفي صيحة يوم الأربعاء عند الساعة الثامنة تمامًا أذيعت أخبار مرض ستالين على العالم كله بعد أن ردد راديو موسكو صوت أجراس الكرملين التي تلتها موسيقى حزينة هادئة ثم تكلم المذيع بصوت بطئ وقال:

إن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بالاتحاد السوفيتي ومجلس وزراء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية يُعلنان ما حل من مصاب

اليم ما بالحزب والشعب وهو خبر المرض الخطير الذي ألم بالرفيق ج. ف. ستالين إذ حدث خلال ليلة ٢/١ مارس أن أصيب الرفيق ستالين بنزيف أثر على أجزاء حيوية من مخه...

إن اللجنة المركزية ومجلس الوزراء ليعبران عن ثقتها في أن الحزب وجميع أفراد الشعب السوفيتي سيظهرون في هذه الظروف الاتحاد والائتلاف وسمو الروح المعنوية والحذر.

- تتبع ذلك بلاغ ثان أصدره الأطباء المعالجين لستالين جاء به «اتُخذت في يومي ٢ و٣ مارس الإجراءات الضرورية للعلاج مستهدفة تحسين التنفس المضطر، والدورة الدموية».

وفي الساعة الثانية من صباح يوم ٤ مارس كانت حالة ج. ف ستالين الصحية لا تزال خطيرة فالتنفس (٣٦٠) مرة في الدقيقة والنبض ١٢٠ وهو غير منتظم بالمرة.

وفي داخل الكرملين كان الطب يبذل أقصى جهوده مع المريض الذي يبلغ الثالثة والسبعين من عمره واستعمل الأطباء البنسلين وقناع الأكسجين وحقن الجلوكوز للتغذية والكافيين للتقوية.

- ثم صدر بلاغ آخر عن صحة ستالين يقول:

في خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية ظلت حالة ستالين خطيرة واستمر النزيف في المخ فأثر على الأعصاب وعلى التنفس وعلى الدورة الدموية وأن المريض في حالة غيبوبة وفقدان تام للوعي...

ثم صدرت النشرة الطبية الثالثة عن حالة ستالين جاء فيها:

خلال ليلة الأربعاء والجزء الأول من النهار ساءت حالة جوزيف ستالين، وعند الساعة الثامنة هذا الصباح بدت بعض علامات تشير إلى الانهيار، وفي الساعة الحادية عشرة والنصف حدث انهيار ثان خطير..

وتمت دعوة رؤساء رجال الدين من مختلف الأديان والملل لدعوه جميع اتباعهم إلى إقامة الصلوات حتى يمن الله بالشفاء على رجل كان ينكر وجود الله...

- واستمر الأطباء طوال نهار وليل الأربعاء داخل الكرملين في القيام بجهودهم وكانت حركاتهم تحُصى عليهم وتُراقب بكل دقة فقد كان (القتل بمساعدة الطب) فنًا معروفًا في ذلك العالم الذي بناه ستالين وكان خلفاؤه يسعون إلى تسجيل لحظات زعيمهم الأخيرة وما يطرأ في كل ثانية منها بكل عناية..

اللحظات الأخيرة

في اللحظات الأخيرة من حياته دُعى (أفراد الأسرة) للحضور وكان بينهم ابنه (فاسيلي) وكان سنه إذ ذاك ٣٢ عامًا وكان يشغل وظيفة قائد القوات الجوية، وجاءت كذلك ابنته (سفتلانا) وكان سنها ٣٠ عامًا ولم يذكر أحد زوجة (ستالين) الثالثة روزا ولكن الرجل المحتضر (ستالين) لم يستيقظ مطلقًا لكي يودع أهله وأقاربه وأصدقاءه وابناءه...

وفي الساعة التاسعة والدقيقة ٥٠ من تلك الليلة الخميس صعدت روحه إلى بارئها وبعد ست ساعات صدر البلاغ الرسمي التالي (توقف عن الدق قلب الرفيق الموهوب حامل رسالة لينين، الزعيم الحكيم، معلم الحزب الشيوعي والشعب السوفيتي، جوزيف فيساريو نوقيتستي ستالين فلتحيا تعاليم ماركس ولينين وستالين العظيمة المنتصرة فليحيا وطننا القوى الاشتراكي، فليحيا شعبنا السوفيتي العظيم...

الفصل الثاني

الثورة ضد القياصرة

يقول ستالين عن حالة روسيا أيام حكم القياصرة:

كانت المظالم والعبودية تصرخ في كل وجهه... فقد كان هناك رجالاً «يملكون» رجالاً غيرهم، وكان في وسعهم أن يعرضوهم للبيع «بالجملة أو بالقطاعي»، فيفرقون بين الولد وأمه، وبين الزوجة وزوجها، وكان في وسعك أن تقتني العبد، فلم تكن هذه جريمة، وإنما كانت «خسارة» فقط... فقد كانت هذه الأرواح ثروة لصاحبها.

وقد كان من الجنون أن يفكر أحد في مهاجمة الأوتوقراطية والعبودية، وهما الركنان الصنوان اللذان كانت تقوم عليهما إمبراطورية القياصرة، ولكن منذ سقط الباستيل، آمن الناس بأنه ليس ثمة نظام في العالم يمكن أن ييأس القوم من القضاء عليه.

وكان هذا النظام القائم في روسيا قد أكله الدود... وعلى الرغم من نشاط البوليس الذي انتشر في كل مكان، فإنه لم يمكن انتزاع مبادئ الحرية التي كانت تعتبر جريمة موجهة ضد الدولة، حتى الجيش كان قد «تلوث» بهذه المبادئ.

ورابطت فصيلة من الحرس في تسارسكو سيلو، وكان فتيان الكلية يقفزون من فوق السور ويعقدون الصداقات مع الفرسان... وكان بوشكين واحدًا من هؤلاء الفتيان. فقد كان يحب الشمبانيا والنكت، وتناول وجبات الطعام في جو من الأخوة، ودخان التبغ، والمناقشات الحامية حول: الله،

والحب، وسياسة مترنيخ... وآخر عشيقة حظيت برضاء القيصر... كان الفرسان يختلفون عن غيرهم من المغرورين الفخورين المسرفين... فلقد كانوا من الضباط الشبان الذين صلصلت سيوفهم المنتصرة في جوانب باريس، ثم عادوا إلى بلادهم ورؤسهم لا تكاد تستقر على أكتافهم لفرط ما استنشقوا من نسيم الحرية... كان بينهم «شاديف»، الجندي الفيلسوف الماسوني، الذي كان في جمال ووداعة «ملاك» هبط إلى الأرض... وكان في وسعه أن يستمتع بالجانب الحسن من الحياة، إلا أنه فضَّل على ذلك الجوانب الفلسفية.

وكان بينهم «كافرين»، ابن الحظ الذي كان يشرب ويُغني ويعبث؛ إذ كان جميلاً، مرحًا غنيًا نبيلاً، وكان بينهم «رافسكي»، الذي كان يبلغ من العمر ستة عشر عامًا- مثل بوشكين- وكان والده الجنرال رافسكي هو الذي قاده بيده إلى المعركة ضد نابليون في عام ١٨١٢م.

وكانت الحياة في (تسارسكو سيلو) واتصالها بالبلاد لا تبعث على احترام القيصرية... فلم يكن القيصر سوى منافق متوج، يحيط نفسه بعجائز النساء والكهنة والرجعيين، وكانت الصلاة لله واستغفال عباد الله يسيران عنده جنبًا إلى جنب.... فلقد استغفل الجميع: زوجته، وحلفاؤه، ورعاياه، ونابليون.

كانت طبقة الأرقاء تكد في العمل في الأرض، وتسير وراء المحراث الخشبي، أما طبقة الأشراف فكانت ترقص وتتشدق بالحديث باللغة الفرنسية، وتقرأ مؤلفات جان جاك روسو، وكانت السيدات يرفعن أصابعهن الصغيرة وهن يتحدثن عن الحب الأفلاطوني، وعن حقوق العاطفة، ولكن لو سرقت الخادمة من إحداهن منديلاً، فإنها- أي: الخادمة- كانت تتعرض لعشرين جلدة من سوط جلدي يغمس في الصمغ.

وكانت المعارضة في كل مكان... كان السخط يعم الجميع: العبيد، والجنود الذين كان الواحد منهم يقضي خمسة وعشرين عامًا في الثكنات، والتجار الذين كانوا يعانون من آثار الأزمة الاقتصادية والنبلاء الذين كانوا يبيعون خبزهم بخسارة، والصُّنَّاع الذين كانوا لا يجدون رأس المال لتنمية صناعاتهم... ولكن هذا السخط العام الذي كان يمكن أن يولد الثورة لم يولد شيئًا سوى الشعور المر. لم تكن المعارضة منظمة، ولم يكن لها قائد. وكانت جماعة «اتحاد الفضيلة» ضعيفة، غير منظمة، منقسمة على نفسها: كان القسم الجنوبي يتكون من اليعقوبيين، الذين كانوا يريدون جمهورية ديمقراطية تقوم على أساس المساواة، أما القسم الشمالي فكان لا يطلب أكثر من إلغاء الرقيق وإقامة ملكية دستورية. وعلى كاهل هذا القسم الشمالي المتخاذل الضعيف وقع عبء قيادة الثورة، وأدرك المتآمرون أن اللحظة مواتية؛ لأن العرش كان خاليًا منذ ثلاثة أسابيع، وكان نيكولاس مكروهًا بسبب آرائه الرجعية، ولذلك لم يكن في موقف يحسد عليه... وكانت إثارة الجيش أيسر السبل ما دام قد أقسم يمين الولاء لقسطنطين... وإنه إن عاد ليقسم يمين الولاء لنيكولاس فسيبدو هذا نوعًا من الحنث بالقسم.

ولكنها كانت حفنة من صغار الضباط فقط، تخرجوا جميعًا من الكلية الإمبراطورية (بتسارسكو سيلو)، ولا يمكن أن يدعي أحدهم أنه يملك قياد فرقة بأكملها، وكان أحسن مَنْ فيهم من الحالين، وأسوؤهم من المتفاخرين المتبجحين، ولكن أكبر مواضع ضعفهم هو أنهم كانوا من الثوار الذين يخافون الثورة، وكان شعارهم هو شعار الطغاة الأذكياء: لأجل الشعب، ولكن بغير الشعب. فقد كانوا يشككون إلى حد ما في الشعب.

وعن بداية الثورة ضد القياصرة قال ستالين:

ففي فجر يوم ١٤ ديسمبر من عام ١٨٢٥م غادر سبعمائة جندي من حامية موسكو ثكناتهم وهم يحملون أعلامهم، وكان يقودهم ضابطان ممن اشتركوا في المؤامرة، وساروا إلى ميدان مجلس الشيوخ، حيث كانوا على موعد مع الفرق الثائرة الأخرى؛ لكي يمنعوا مجلس الشيوخ من أن يقسم يمين الولاء، ثم يسير الجميع إلى القصر الملكي ليجبروا نيكولاس على التنازل عن العرش، ويحصلوا على دستور حر، على أن يعقب ذلك إلغاء الرقيق.

ولكنهم وجدوا الميدان خاليًا، فلا بوليس، ولا جنود، ولا حلفاء ولا أعداء، ووجدوا نوافذ مجلس الشيوخ حالكة الظلام... فقد أقسم الأعضاء يمين الولاء في الليل، وهكذا فشل أول بند في البرنامج.

وقاد الضباط رجالهم حتى أصبحوا يواجهون المباني التي تحيط بالميدان، وأخذوا ينتظرون في البرد... وكانت الريح تعصف بأعلامهم، كما تجمدت أقدامهم، ومن وقت لآخر كان الضباط يأمرون رجالهم بأن يصيحوا: «فليسقط نيكولاس... فليحي قسطنطين... فليحي الدستور»..

وبدأ الميدان يمتلئ بالناس الذين كانوا يعطفون على المتمردين، والذين أخذوا يرددون بعض صيحات التشجيع.

ووصل قواد الثورة، ولما رأوا أن عدد الجنود غير كاف انصرفوا للبحث عن إمدادات أخرى، ولم يعد بعضهم بعد ذلك لا عن جبن، وإنما عن يأس. وبدأ كأن كل شيء قد ضاع... مع أنه لم يكن قد بدأ بعد.

وبعد ساعات وصلت فرقة أخرى من المشاة وانضمت إلى الثوار، ووصل بعد ذلك رجال البحرية، وقد تمكن من كسبهم للثورة اثنان من الضباط.

وفي نفس الوقت قرر نيكولاس أن يحشد جميع القوات التي ظلت موالية له، ثم طوق بها الثوار تطويقًا كاملاً، وكان الطرفان ينتظران أوامر لا ترد إليهم، وكان كل فريق يتساءل: هل يطلق النار على زملائه؟ فقد كان جنود القيصر لا يشعرون بأية كراهية نحو الثوار الذين كانوا يرتدون نفس الزي الرسمي الذي يرتدونه هم... وكان الثوار كبيري الأمل في أن تنضم الفرق الموالية للقيصر إليهم... كما كان نيكولاس كبير الأمل في أن يعرض الثوار التسليم. ولكنه أحسَّ في النهاية أن عدم الحركة يُعرِّض الموقف للخطر؛ فقد كان من الواضح أن حشود الأهالي تزداد تأييدًا للمتمردين، وأخذ العمال الذين كانوا يقومون ببناء كاتدرائية «سان جيمس» يلقون قوالب الطوب وقطع الأخشاب على الفرق الموالية للقيصر.

وحرضوه على أن يقضي على الفتنة، فصاح: «أطلقوا النار»، ولكنَّ أحدًا لم يجبه، وقفز أحد الضباط إلى الأرض، ثم أسرع إلى المدفعي وسأله: «لماذا لا تطلق النار؟» فأجاب الجندي وهو يبكي: إنهم إخواننا يا صاحب السعادة!

وصفعه الضابط، ثم أوقد الشعلة، وأطلق النار، ولكنه كان قد صوَّب إلى هدف عالٍ، فانطلقت القنبلة لتصيب نوافذ الطابق الثاني من مجلس الشيوخ... على أن تصويب الطلقة الثانية كان أفضل من الأولى، فقد انقسمت صفوف الثوار وأخذوا في الهرب.

إنهم لم يكونوا على استعداد لقنابل المدفعية، فتفرقوا إلى كل اتجاه، وتجمَّع أغلبهم على أرصفة نهر النيفا الذي تجمدت مياهه، وحاولوا عبوره، وتساقطت القنابل حولهم، فأخذت تكسر الثلوج وتذيبها... وغرق كثيرون منهم.

وهكذا قُضي على أول ثورة روسية.

لقد انهارت القيصرية في روسيا بعد أن ظلت صخرة عاتية من الحكم

المطلق استعصت على كافة قوى التحرر التي نشأت في أوروبا الغربية، وقبل سقوط القيصرية بقليل شهدت روسيا حركة تمثلت في مظاهرات تجوب الشوارع، ثم انقلبت إلى ثورة ناجحة حين رفضت حامية بتروجراد عاصمة روسيا آنئذ إطلاق النار على المتظاهرين، بل وانضموا إليهم.

وكانت هذه الثورة من الأهمية بمكان لم يسبقها إليه غيرها من الثورات التي عرفها التاريخ، ولم تبذل فيها البلشفيك- كما كان الشيوعيون يسمون أنفسهم آنذاك- أي جهد ولا تدبير.

أما زعماؤهم فإن لينين- وهو أشهرهم- كان إذ ذاك في زيوريخ، وكان تروتسكي صحيفًا مغمورًا يكتب مقالات بأجر بخس لصحيفة روسية كانت تصدر في نيويورك، وكان ستالين منفيًا في سيبيريا، وكان البلشفيك أقلية ضئيلة في سوفييت (مجلس) مندوبي العمال، الذي أصبح هيئة قوية سلطان بعد سقوط القيصرية.

وبعد سقوط القيصرية كان هناك اتفاق على أمر واحد؛ وهو أن روسيا يجب أن تتحرر، ونشأت حكومة مؤقتة، برنامجها ما يلي:

العفو الشامل عن الجرائم السياسية والدينية، وحرية القول، وحرية الصحافة والاجتماع والإضراب وتأليف النقابات، وإلغاء كل تفرقة بسبب الدين أو القومية، والإعداد لتشغيل جمعية تأسيسية بالاقتراع السري العام المباشر تضع الدستور وتُشكِّل الحكومة.

كان هذا بمثابة مشروع لإقرار الديموقراطية، ولم يكن في وسع الشيوعيين أن يضيفوا شيئًا إلى هذه الضمانات والحريات المدنية.

كانت القيصرية تُعتبر رمز الظلم والرجعية، ولذلك اغتبط العالم لأنباء سقوط القيصرية، وفي ٦ أبريل سنة ١٩١٧م؛ أي: بعد ثورة مارس بقليل ودخلت الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا، وأعرب الرئيس

ولسون في رسالته إلى الكونجرس الأمريكي في تلك المناسبة عن اغتباطه لنجاح الشعب الروسي في تحقيق الحرية بعد صراع طويل، ووصف روسيا بأنها «زميل عن جدارة في رابطة الشرفاء». وإلي هنا انتهي كلام ستالين.

ولكن بعد فترة لم تتجاوز ثمانية أشهر من ثورة الشعب على القيصرية استولى أنصار لينين بطريقة محكمة منظمة على السلطان، وانتهت أحلام الحرية الجميلة بحرب الطبقات وحكم الحزب الواحد.

وهناك أسباب كثيرة يرجع إليها فشل كيرينسكي وزملائه في الحكومة المؤقتة ومنهم الأحرار ومنهم الاشتراكيون المعتدلون، وقد حاولوا جميعًا وقف زحف لينين إلى الحكم، ومن أول هذه الأسباب أن طريقة الحكم القيصرية حرمت الشعب الروسي من نعمة تذوق تجربة الحكم الذاتي، ومن إرساء قواعد الحرية التي تنشأ عن مباشرة هذا الحكم عمليًا، ومنعت الأوتوقراطية المتعلمين الروس من النشاط السياسي؛ ولذلك اعتنق عدد كبير من هؤلاء المتعلمين الاشتراكية اليوتوبية، وآمنوا بالتعاون الاختياري الذي لم يلمسوه في حياتهم الواقعية.

كانت الهوة شاسعة بين الإقطاعيين ورجال الصناعة من ناحية، وبين العمال والفلاحين من الناحية الأخرى في روسيا، أما الطبقة الوسطى بين هاتين الطائفتين فلم تكن كبيرة بحيث يكون لها أثرها في كفالة الاستقرار والاعتدال، وكان من العسير حل مشكلة إحساس صاحب الأرض بحقه في التملك، وإحساس الفلاح الفقير بحاجته إلى مزيد من الأرض، ولم يكن حل هذه المشكلة بالانتخاب العام الحر السري أمرًا ممكنًا، وكانت هناك عقبة كبرى تعترض طريق المؤسسات السياسية الحرة؛ وهي الجهل والأمية المتفشيان في مناطق القوقاز وغيرها من المناطق المهملة المتخلفة.

ولعل أخطر ما تعرضت له الديموقراطية الوليدة التي كانت الحكومة المؤقتة تحاول أن تنميها هي الحرب التي كانت دائرة آنذاك، وحاولت روسيا التغلب على عقبة التخلف وعقبة التسلح بأن عبأت الجيوش، ولكن تفوق الألمان في القوة أنزل بروسيا خسائر فادحة في الممتلكات والجنود.

وخابت آمال بعض المراقبين الغربيين في أن يؤدي سقوط القيصرية إلى مزيد من الجهد الحربي، فقد أحسَّ الجنود بغريزتهم أن اليد القوية المنظمة قد تراخت بعد خلع القيصر. وهم إلى ذلك لم يكونوا يفهمون أسباب الحرب؛ ومن ثم أصغوا إلى المهيمنين الذين قالوا لهم: إن هذه الحرب من صنع الرأسماليين، وإنهم يجب أن يعودوا إلى بلادهم ليشتركوا في تقاسم الأرض.

ولقد تجلَّت عبقرية فلاديمير اليتش لينين- زعيم المتطرفين في الحزب الاشتراكي الديموقراطي- وبراعته الاستراتيجية في استغلال تذمر الشعب والتمهيد لإسقاط الحكومة المؤقتة، وكانت مهمته يسيرة؛ فقد تحول البندول من جانب الطغيان إلى جانب الفوضى، فلم يُصغِ الشعب إلى نداءات الحكومة المؤقتة وأوامرها، وكانت هذه الحكومة تنقصها القوة التي تكفل لأوامرها الاحترام.

وتولى لينين الحكم فغمره أربع موجات كبرى من موجات التفكك، أما الموجة الأولى فهي مطالبة الجنود بإقرار السلام، والثانية مطالبة الفلاحين بالأرض، والثالثة مطالبة القوميات غير الروسية بالاستقلال أو الحكم الذاتي، والرابعة مطالبة العمال بالسيطرة على المصانع.

واستطاع البلشفيك في هذا الجو من الفوضى والتفكك أن يسقطوا الحكومة المؤقتة، ويعلنوا روسيا جمهورية سوفييتية يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧م، وقام لينين وتروتسكي في هذا برسم الخطوات الرئيسية للثورة،

واستعان البلشفيك بالعناصر الثورية من العمال والجنود.

وبعد لينين جاء ستالين الذي حكم روسيا من عام ١٩٢٤م إلى ١٩٥٣م، فسيطر طوال هذه المدة على سياسة الكرملين، وتحكَّم في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وبذلك اتسع له الزمن كما لم يتسع لزعيم أو حاكم غيره لكي يوطد دعائم النظام الجديد في روسيا، ويعمل على نشر المبادئ الشيوعية في أماكن أخرى من العالم.

وإذا كان لينين هو الرسول الذي بشَّر في روسيا بالدين الجديد، فإن ستالين هو الذي حمل لواء الجهاد الحقيقي لنشر هذا الدين لا في روسيا وحدها، وإنما في خارجها أيضًا.

وقد يكون قارئ هذا الكتاب من المعجبين بستالين، وقد يكون ممن يكرهون اسمه، لا شخصه فقط، ولكن هناك شيئًا واحدًا مؤكدًا- كما يقول ديل كارنيجي- وهو أنك لا تستطيع أن تتجاهل ستالين، ولا تستطيع أن تنكر الدور الذي لعبه في تاريخ روسيا، ولا تستطيع أن تنكر عليه إخلاصه طوال حياته لهدف واحد لم يتحول عنه قط، وإن أنكرت عليه الوسائل التي استعملها في سبيل تحقيق هذا الهدف!

ولا يستطيع إنسان أن يُنكر أن ستالين كان في يوم من الأيام أقوى رجل في العالم، ولا يستطيع أحد كذلك أن يُنكر الدور الهام الذي لعبه في الحرب العالمية الثانية، وما ساهمت به بلاده في سبيل انتصار الديمقراطية على الفاشية.

ظهور ستالين على مسرح الأحداث

أطلقوا عليه في حياته أسماء كثيرة لاشك أنها ترفعه إلى مقام الآلهة أو الأنبياء؛ فقد قالوا عنه: إنه «أحب البشر»، وإنه «المعلم والأب الحكيم».

ووصفه البعض فقالوا: إنه «أمل العالم ونوره وضميره»، وإنه «مجد كل من ولد بقلب أمين».

وفي السنوات الأخيرة من حياته قلّت الإشارة إلى اسمه «ستالين»، اكتفاءً بكلمة الرفيق وحدها كما كانت العادة من قبل، وأصبح لزامًا أن يضاف إليها كلمة «العظيم»، وأطنبوا في ذلك فقالوا: إنه «شعلة البشرية التقدمية وأملها»، وإنه «صانع الحياة السعيدة»، و«صاحب القلب الحنون»، و«النسر الكبير الذي يعلم النسور الصغيرة كيف تطير».

ولم يقتصر الشعراء والأدباء من جانبهم في ذلك الموكب؛ فقال أحدهم: إن الحروف التي يتكون منها اسم ستالين وهي: «س، ت، ا، ل، ي، ن» لابد لها أن تزهو وتفاخر بين الحروف الأبجدية الأخرى بوصفها الحروف التي تكوّن منها اسم الزعيم الأكبر!

وقال كاتب آخر: إن صوت ستالين لا يقل تأثيرًا في النفوس عن النبيذ المعتق الذي تنتجه سفوح التلال الجنوبية!

وقال شاعر آخر: إن البلابل عندما تغرد فإنها تقول له: «لك المجد! لك المجد أيها البستاني العظيم!».

وسارعت الصحف بدورها لتقدم له هي الأخرى تحيتها، فأطلقت عليه صحيفة الحياة الاقتصادية اسم «شباب الأرض»، ولاحظت أزفستيا أن ستالين يشبه «الربيع البللوري»، وقارنته صحيفة الجبهة الاقتصادية

بالحكيم سقراط الفيلسوف اليوناني، وقالت: إنه «عبقري الفكر... بل إنه أعظم المفكرين حقًا..»..

ووصفه أحد كبار أعضاء مجمع العلوم الروسي (الأكاديمي) بأنه: «أعظم زعيم للعلم في جميع العصور وجميع الدول».

وكانت الخطب التي تُلقى في مختلف المناسبات حتى الفنية تمتلئ بعبارات الإطراء والمديح التي كانت تُقابل من الجماهير المستمعة بالهتاف الطويل والتصفيق المتواصل، وكثيرًا ما كان الخطيب يقول وهو يخاطب ستالين: «سلام عليك!» أو: «إننا لنتمنى سنوات عديدة من السعادة لزعيمنا الحكيم وحبيبنا الأوحد الرفيق ستالين».

وفي عام ١٩٤٩م عندما كان ستالين يحتفل بعيد ميلاده، وكان قد بلغ السبعين من عمره، خطب رئيس الاتحاد السوفيتي الأعلى فقال: إن ستالين «أعظم قائد عسكري ظهر في جميع العصور وفي جميع البقاع!».

كما قال مولوتوف في نفس هذه المناسبة: «إن ستالين هو الذي قاد بلادنا إلى النصر».

وجاء في رسالة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ومجلس وزراء اتحاد الجمهوريات السوفيتية التي رُفعت إليه عندما بلغ السبعين من عمره:

إن كل الأجيال سوف تُمجِّد اسمك.

وإن قلوب ملايين العمال في جميع أنحاء العالم لتمتلئ بالحب الخالص لك، يا سيد العلم العظيم، ومهندس الشيوعية الأكبر.

معلمنا ومرشدنا وأحسن أصدقائنا.

وقال راديو موسكو وهو يصف ستالين في إحدى المناسبات: «إنه الرجل الذي لا نهاية له... إنه يشبه النور وأمواج المحيط».

وقال كاتب روسي يصف ستالين: «إنه كالشمس... يبدو عاليًا مضيئًا

قويًا... والحرارة التي تنبعث من أشعته تفيض دفئًا على شعوب العالم».

ولكنَّ كاتبًا روسيًا آخر هو الكساي تولستوي لم يعجبه هذا الوصف فقال: «إنْ ستالين أكثر من الشمس... لأن الشمس لا حكمة لديها».

وكانت صورته تُرى في كل مكان، وكان هناك مصنع في روسيا لا عمل له إلا إنتاج تماثيل من الجبس لستالين لكي توزَّع على جميع الجهات.

وهكذا كان وجه ستالين يطل على التلاميذ في كل فصل من فصول المدرسة، وعلى العمال في كل مصنع، وعلى الموظفين في كل مصلحة، بل وفي معظم المنازل.

وعند مدخل القناة التي تصل بين نهري الفولجا والدون أقيم تمثال ضخم من النحاس لستالين، وكان وزنه يبلغ نحو ٣٥ طنًا... وفي محطة «مترو» موسكو الذي يسير تحت الأرض أقيم لستالين تمثال آخر من المرمر الملون، وفوق جبال البرز في القوقاز، وهي ترتفع ١٨٤٦٨ قدمًا فوق سطح البحر، أقيم تمثال آخر لستالين نُقشت عليه هذه العبارة:

(فوق أعلى قمة في أوروبا أقمنا تمثالاً لأعظم رجل في هذا العصر.)

وتضاءلت عظمة لينين أمام عظمة ستالين؛ فإن اسم لينين لم يُطلق على مدينة إلا بعد موته، ولكن اسم ستالين أُطلق مدة حياته على مدن كثيرة منها: ستالينجراد، وستالين آباد، وستالينيز، وستاليني، وستالينيكا، وستالينوجورسك، وأُطلق اسم «ستألينسك» على مدينتين، واسم «ستالينسكويا» على مدينتين آخريين، كما أُطلق اسم «ستالينسكي» على ثلاث مدن روسية، وأُطلق اسم «ستالينو» على أربع مدن...

وليس من السهل حصر عدد الشوارع والمزارع الجماعية والمتاجر والسفن والجسور التي أُطلق عليها اسم ستالين في جميع أنحاء روسيا.

وكانت الجهود تُبذل دائمًا لتصوير ستالين أكبر مما هو في الحقيقة، بل ولإبرازه في شكل يُخالف شكل البشر العاديين حتى يؤمن الناس أنه إن لم

يكن إلهًا صغيرًا، فإنه- على الأقل- مخلوق ممتاز...

فقد وصف راديو موسكو يومًا في إحدى إذاعاته خواطر تلميذ صغير وهو يمر أمام الكرملين ويفكر في ستالين فيقول: عندما يغيب الضوء سيذهب «هو»- أي: ستالين- إلى فراشه، فهل يا ترى ينام هو كما ينام سائر الناس؟

وفي كل مرة تشرق الشمس على موسكو... يُخيَّل لي أنه هو الذي يحرك مفتاحًا في يده فيضيء النور...

وفي ذات يوم سُمع في إذاعة لراديو براغ في تشيكوسلوفاكيا وصف لستالين جاء فيه: «أنت اسم آخر للخلود!»

ولكن ستالين مات في يوم من الأيام كما يموت سائر البشر، وعرف الناس في روسيا أن الخلود لله وحده، وصدر بلاغ رسمي من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ومجلس الوزراء ينعي ستالين للشعب، وقال الزعماء الذين نعوه في عبارات باكية:

«إن أعظم القلوب الإنسانية قد نبض نبضته الأخيرة فلا حراك له بعد اليوم».

«لقد توقف قلب القائد والمعلم الحكيم عن الخفقان».

«ولكن اسم ستالين الخالد العزيز علينا سيعيش دائمًا، وسيظل حيًا إلى الأبد في قلوب الشعب السوفييتي وجميع الشعوب التقدمية».

وبكى مولوتوف وهو يودع ستالين الوداع الأخير وقال: «بالأفكار العظيمة ستظل لنا نبراسًا حيًا».

وقال مالنكوف وهو يتنهد: «وداعًا أيها الصديق المحبوب!..».

أما طاقات الزهر التي أُرسلت لتوضع على نعشه فلم يكن من السهل حصرها هي الأخرى، شأنها في ذلك شأن الدموع الحارة التي أذرفت حزنًا عليه يوم موته...

ولكن لم تمضِ سنوات ثلاث على وفاة ستالين حتى فوجئت روسيا، بل فوجئ العالم كله، بعملية تحطيم عجيبة تجري بكل همة ونشاط في روسيا للقضاء على سمعة الإله الذي دُفن منذ ثلاث سنوات.

وبدأ الناس يسمعون، وهم في ذهول، أن «أمل العالم ونوره وضميره» الذي تعوَّد مئات الملايين من البشر أن يحترموه ويبجلوه بوصفه «مجد كل من ولد بقلب أمين»، قد أعيد تقدير قيمته بمعرفة زملائه السابقين، وأنه أصبح اليوم في نظرهم شخصًا عابثًا، جاهلاً، جبانًا، قاسيًا، شريرًا، مستبدًا، مجنونًا... متوحشًا!

ورأى الناس، وهم في ذهول، أن الذين بكوا وانتحبوا يوم وفاة ستالين وقالوا: إن أعظم القلوب الإنسانية قد نبض نبضته الأخيرة، رآهم وهم يهيلون التراب على صورة الرجل العظيم، الأب الحكيم الخالد، القائد، الأمل، نور الضمير العالمي، صاحب أعظم العبقريات الحربية التي تمخضت عنها جميع العصور!

إنهم لم يهيلوا التراب في صمت، بل تحدثوا وتحدثوا كثيرًا، وقالوا: إن الإله الذي عبدوه مع بني وطنهم قد أنزل بالبلاد أضرارًا عظيمة...

وإذا كان الأمر كذلك، أفلا يكون ضروريًا أن نرى إلى أي ذروة من ذرى التأليه ارتفع ستالين على أيدي نفس الزملاء والشركاء الذين أخذوا يهيلون عليه التراب بعد ثلاث سنوات فقط من موته؟ وما هي العوامل التي ساعدته على ارتفاعه؟

ستالين زعيم الشيوعية

كان ستالين أقوى حاكم مطلق في الأزمان الحديثة، كان أعظم ديكتاتور في عهده؛ لأنه كان يحكم ٢٠٠ مليون من الشعب الروسي، كما

كان يتحكم في مصير ٦٠٠ مليون نسمة من الشعوب الأخرى التي يضمها الاتحاد السوفييتي والدول التي تدور في فلك روسيا...

وإذا كان العالم كله يدرك اليوم مدى السلطة التي كان يتمتع بها ستالين في عهده، إلا أن الطرق التي توصل بها إلا الاستئثار بجميع هذه السلطة في يده، والاحتفاظ بها خلال السنوات الطويلة التي امتد إليها حكمه، هذه الطرق والأساليب قد نسيها الناس أو تناسوها... كما أن جهاز الرقابة الذي أحاط به ستالين عهده كان خير معوان على طمس الحقائق وإخفائها حتى باسم التاريخ بما يتفق مع اتجاهات الشيوعية وأهدافها البعيدة.

ولكن لما مات ستالين وأصبح ملكًا للتاريخ، بدأ الباحثون والعلماء والكُتَّاب يتناولونه من نواحيه المختلفة، ويتناولونه عهده وما أحدثه من آثار عميقة في تاريخ روسيا، أو تاريخ أوروبا وآسيا... بل تاريخ العالم كله.

وجاء خروشيشيف بعد ذلك فألقى خطابه السري المشهور في المؤتمر العشرين للحزب، في ليلة ٢٤-٢٥ فبراير من عام ١٩٥٦، وفضح عدة مسائل كانت مستورة، كما نشر عدة صفحات أخرى كانت مطوية، وكان ذلك بعد وفاة ستالين بثلاث سنوات فقط.

ولاشك أن المتتبع للثورة الروسية يمكن أن يرجع بجذورها إلى أول القرن التاسع عشر، والناظر إلى وجه ستالين وهو لا يزال في ريعان الصبا يمكن أن يلمح فيه شابًا تملؤه الفتوة، وتدفعه الجَرأة، عندما كان أحد محترفي الثورة... إنه لاشك شديد الاختلاف عن ذلك الصبي الذي زجت به أمه إلى المدرسة الإكليريكية وهي ترجو أن يكون يومًا من بين رجال الدين!

لقد كان الرجال الذين يمهدون للثورة الروسية- وستالين من بينهم- يعيشون في روسيا القيصرية مرموقين بنظرات البطولة؛ وذلك لما كانوا يتعرضون له من أخطار دائمة، ومؤامرات واسعة النطاق، تتهدد حياتهم وحرياتهم في كل وقت.

كان البوليس السري للقيصر يبحث عنهم ويتتبع حركاتهم حتى يزج بهم إلى أعماق السجون، أو يرسلهم إلى النفي في سيبيريا.

كانت الشعلة التي تلهمهم في ذلك الوقت هي المثالية الاشتراكية التي ابتدعها كارل ماركس وإنجلز، وكان أحرار العالم جميعًا يؤيدونهم في جهادهم، ويتمنون لهم ولبلادهم الخلاص من الحكم القيصري الظالم الطاغي.

ولكن ستالين كان يتميز بصفات لم تتوفر لغيره من الزملاء المجاهدين العاملين في نفس القضية...

فقد كان أشد جرأة من معظم الثوار المحترفين.

وكانت أطماعه لا تقل عن أطماع أي واحد منهم إن لم تزد عنها...

وكان أشدهم انتهازية، فقد رسم سياسته أولاً على أساس السير في ركاب لينين، والانضواء تحت زعامته حتى تسنح له الفرصة للاستئثار بالسلطة لنفسه.

ومهما قيل في ستالين فإنه ليس من المبالغة في شيء أن يقال عنه: إنه كان من أعظم الذين أثروا في تاريخ البشرية في هذا القرن الذي نعيش به.

... والآن نبدأ قصة الرجل أو «الإله» من أولها.

الفصل الثالث

ستالين الذئب الأحمر

يحتار القلم حين يكتب عن ذلك الذئب الأحمر أي طراز من الرجال كان هذا إل «ستالين» الذي سيطر في وقت من الأوقات على مصير ٢٠٠ مليون نسمة في الاتحاد السوفييتي، وأقدار عدة ملايين أخرى في الدول المجاورة التي انتشر فيها نظام روسيا، وكان كل تصريح سياسي له يبعث الأمل أو الخوف في قلوب مئات الملايين من سكان العالم؟

ومن المشكوك فيه أن يكون ثمة رجل، خلال حياته نفسها، قد لقي هذا الاختلاف الكثير من درجة التقدير كما حدث لستالين، فقد رآه مثلا أحد الكتاب فأبدى نفورا من شكله وهيئته وقال: إن وجهه يحمل آثار الإصابة بالجدري، وإن أسنانه رديئة المنظر. ورآه أحد سفراء أمريكا السابقين في الاتحاد السوفيتي فأطنب على عينيه البنيتين الحانيتين اللطيفتين وقال: «إن الطفل ليحب أن يجلس على ركبتيه».

ووصفه تشرشل عقب اجتماعهما الأول كحلفاء في الحرب بأنه رجل ذو شجاعة ومقدرة لا ينفذان وقال: «إن ستالين تركه وقد انطبعت في نفسه الحكمة الهادئة العميقة وزوال الوهم من أي نوع كان».

ومن أظرف ما رواه تشرشل في مذكراته عن ستالين كيف أن سيد روسيا أقام مأدبة في أحد الاجتماعات، ووقف أثناء المأدبة ورفع كأسه وشرب نخب ملك بريطانيا. ويقول تشرشل: إنه ولو أن ستالين شرب نخب ملك بريطانيا بطريقة ودية مهذبة إلا أنه قرن ذلك ببضع كلمات لم

ترق لتشرشل؛ إذ قال ستالين وهو يرفع كأسه: إنه بوجه عام من خصوم الملكية، وإنه يقف دائما إلى جانب الشعب لا في صف الملوك أيا كان مسلكهم، ولكنه تعلم أثناء الحرب أن يحترم الشعب البريطاني الذي يمجد ملكه ويحترمه؛ ولذلك فإنه- أي: ستالين- يدعو الحاضرين ليشربوا نخب ملك بريطانيا!

وتضايف تشرشل من هذه الكلمات الصريحة وطلب من مولوتوف أن يرجو ستالين أن يكتم مشاعره بإزاء الملكية، واقترح للتخلص من هذه المواقف المحرجة أن يشرب المحتفلون نخب رؤساء الدول الثلاث، روسيا وبريطانيا وأمريكا، في وقت واحد، وبذلك لا يتسع المجال لإبداء تعليقات. وقبل ستالين الاقتراح وصار ذلك النهج تقليدا اتبع في الاجتماعات التالية.

وروى ولتر بيدل سميث- سفير أمريكا السابق في موسكو- أنه عرف يوما شيوعيا غير روسي يتملكه نوع من الرعب والخوف من ستالين، حتى إنه ليتحاشى ذكر اسمه في الأحاديث الخاصة، ويقول عنه هامسا إذا أراد الإشارة إليه: «الرجل ذو الشارب».

ولا شك أن ستالين كان مكروها من كثيرين من زملائه في بدء تكوين الاتحاد السوفيتي، كما أنهم كانوا يخافونه، وقد لقي هؤلاء أحد مصيرين: فإما النفي، وإما الموت... بل إن لينين نفسه - لم يكن شديد الاطمئنان لستالين...

ويرجع هذا الاختلاف البين في تقدير ستالين إلى أن معظم الذين قابلوه وكتبوا عنه فعلوا ذلك من وجهة نظر معينة..

والحقيقة أن قليلين جدا من الناس في العالم، بل وفي روسيا نفسها، قد عرفوا ستالين الحقيقي؛ فقد كان أقوى حاكم في العالم، وكان من

أقل حكام العالم ألفة واختلاطا بالناس، فقد عاش بعد أن قبض على زمام السلطة منعزلا عن شعبه، كما انعزل عن الأجانب، وراء أسوار الكرملين التي كانت تفصله عنهم، ومن حوله حشد من رجال الجيش والبوليس تولى حراسته، وأحاط حياته الشخصية بسرية تامة.

وكان العالم الخارجي يجهل أين يقيم ستالين بالضبط إذا خرج من الكرملين، وكان بعض الناس يعتقدون أنه كان يملك منزلا ريفيا يقع في الجزء الشمالي الغربي من المدينة حيث يقيم رجال الحكومة الآخرون، وحيث يفرض البوليس رقابة دقيقة، ولكن لم يكن في استطاعة أحد أن يؤكد ذلك.

حتى حياته الشخصية نفسها أحيطت بالغموض؛ فإن الروس أنفسهم لا يعرفون إذا كان ستالين قد تزوج حقا بعد وفاة زوجته الثانية في عام ١٩٣٢، رغم كل ما أشيع عن ذلك.

لقد كان «ستالين» في روسيا اسما ورمزا لرجل لا يراه الروس مطلقا حتى وفي تلك الاستعراضات الضخمة التي كان ستالين يقف فوق قمة قبر لينين ليشهدها وهي تمر في الميدان الأحمر.. حتى في تلك الاستعراضات كانت الجماهير لا تراه لبعد المسافة، كان المارة في الميدان يرونه عن بعد كما يرون شبحا من الأشباح.

ولم يشهده أحد سائرا في شوارع موسكو، كما أنه لم يزر إلا نادرا إن لم نقل إطلاقا مصنعا أو منجما أو مزرعة جماعية، وقيل: إنه قام في أثناء الحرب العالمية الثانية بعدة زيارات لجبهات القتال المتعددة. ولكن الذين رأوه في هذه الرحلات كانوا عبارة عن عدد قليل من الضباط الكبار أصحاب الرتب العالية، ولم يعلم أحد من الجنود بوجوده بينهم في الميدان.

ولم يسمع عنه أنه سهر ليلة في فندق سوفييتي، كما لم يعرف عنه أنه قام برحلة طويلة داخل بلاد الاتحاد السوفييتي ورآه فيها الناس. وكان أهم ظهور له في العيد الرياضي السنوي بملعب «الدينامو» الضخم في ضواحي موسكو.

ولم يكن بالخطيب المفوه، بل كان يلقي خطبه دائما في مستمعين محدودي العدد مثل مجلس السوفييت الأعلى أو اجتماع الحزب الشيوعي، ولم يعمد إلى إلقاء خطبه العامة في حشود تتكون من آلاف المستمعين كما كان يفعل غيره من الحكام في مختلف المناسبات؛ لكي ينشروا آراءهم وحججهم في موضوعات السياسة العليا على الشعب مباشرة.

ورغم هذه العزلة... فقد كان ستالين موجودا في كل مكان من روسيا.. في كل قرية، وفي كل ضيعة.. في سدس سطح الكرة الأرضية، كان معبودا بكل معنى هذه الكلمة، وكانت صورته في كل مكتب سوفييتي، وفي كل حجرة من كل مدرسة، وفى كل فرع للحزب، وفي منزل كل أسرة... وكان له تمثال مقام في كل منتزه، وفي محطات السكة الحديدية والمطارات، وفي كل مبنى عام؛ كالفنادق ومحطات «المترو» لا دور الحكومة فقط.. وكان الشعب الروسي كلما احتفل بعيد الثورة السنوي يوم ٧ نوفمبر، وضعت له الصور الضخمة في كل مدينة، وكل قرية من قرى الاتحاد السوفييتي.

لقد ظل العالم الغربي وقتا طويلا وهو عاجز من تعليل ذلك المديح البالغ الزائد عن حده الذي تغمر به روسيا ستالين؛ إذا كانت الملايين من أفراد الشعب الروسي تنظر إليه على أنه مزيج نصفه إله والنصف الآخر أب حنون، ومع ذلك فإن هذا الشعب لم يكن يعرف شيئا عن

زعيمه إلا من الصور التي تنشر له، وقلما كانت الصورة تتغير إلا بعد أن تنقضي عليها أمام الناس عدة سنوات.

وقد حدث في الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية أن نشرت للناس صورة جديدة لستالين، ظهر فيها شعره وقد وخطه الشيب، وما كادت مكتبات موسكو تلصق على نوافذها هذه الصورة الجديدة للإعلان عن بيعها حتى أحدثت هزة عميقة في نفوس الناس الذين احتشدوا أمام المكتبات التي عرضتها، وأخذوا يدققون فيها النظر وهم يلاحظون في دهشة أن ستالين هو الآخر قد أخذت السن تتقدم به.. لقد كانوا يعتقدون أن زعيمهم من طينة غير طينة البشر، وأن ما يحدث لغيره من البشر لا يمكن أن يحدث له هو مطلقا؛ لأنه ليس مثلهم، فلما فاجأتهم الصورة الجديدة أثارت دهشتهم وتساؤلهم وقلقهم!

ولم تكن أنباء نشاطه اليومي تنشر أبدا، ولا قائمة زواره الرسميين، إلا إذا كانت الزيارة في مناسبة يجب أن تذاع، كاستقبال سفير جديد أو سياسي أجنبي، أو إقامة مأدبة في الكرملين لمجموعة من الضيوف.

وكانت خطط تنقلات ستالين في داخل روسيا أو في خارجها يحتفظ بها في سرية تامة في وقت السلم كما في وقت الحرب. وكان في اعتاد قضاء إجازته في البحر الأسود، ولم يكن أحد يعرف ذلك، وإنما كان يستنتجه الديبلوماسيون الأجانب في موسكو إذا طلب أحدهم مقابلة ستالين فأجيب بأن المقابلة غير ممكنة بسبب عدم وجود ستالين في موسكو.

هذه صورة لستالين العظيم، في أوج عظمته، وبعد أن توطد ملكه وسلطانه في البلاد، ولكن فلنعد الآن إلى الوراء لنرى كيف وصل الزعيم إلى هذا المركز الممتاز بين أهل وطنه.

الأعوام الأولى في حياة ستالين

كان اسمه الرسمي جوزيف فيزاريونوفيتش دجوجا شفيلي، وقد ولد في مدينة جوري من أعمال جورجيا، في ديسمبر من عام ١٨٧٩.

أما اسم ستالين الذي أطلق عليه فيما بعد فكان معناه: «رجل الصلب»؛ لأن كلمة «ستال» بالروسية معناها الصلب، وكان المقصود بهذا الاسم الدلالة على قوته.

أما والده فيزاريو دجوجا شفيلي فقد كان فلاحا، اشتغل بالصناعة تارة لحسابه الخاص، وتارة بالمصنع، وقد اشتغل بصناعة الأحذية، وتوفي الرجل في عام ١٨٩٠.

أما والدة ستالين وكان اسمها كاترين، فقد كانت تعيش في تفليس، وظلت على قيد الحياة بعد وفاة زوجها بمدة طويلة، حتى لقد شهدت عظمة ابنها عندما صار سيد روسيا كلها...

كان قد مات لها ولداها الأولان وهما في سن صغيرة، فلما جاء الثالث- وهو جوزيف- أخذت تدلله كما تدلل كل أم ابنها الأوحد، ومن جوزيف ابتدعت الأم اسما صغيرا لتدليل ابنها، وكان الاسم الذي وقع عليه اختيارها هو (صوصو». وقد ظلت كاترين تنادي ستالين باسم (صوصو» حتى بعد أن بلغ شأنا كبيرا في روسيا.. بل في العالم.

وكانت الأم تحلم بأن تجعل من ابنها قسيسا؛ ولذلك فإنها أودعته المدرسة الدينية في جوري التي لم تكن تزيد في حجمها عن حجم أي ضاحية لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة. وتحدثت الأم عن ابنها يوما فقالت: «لقد كان دائما ولدا طيبا، لم يستلزم الأمر يوما ما أن

أوقع عليه عقوبة، كان يستذكر دائما بعزم، ويقضي وقته إما في القراءة أو في الحديث، محاولا أن يفهم كل شيء وقد التحق بالمدرسة وهو في سن الثامنة من عمره».

وهذه هي أهم المعلومات الدقيقة المعروفة عن طفولته بغض النظر عما نشره فيما بعد كثيرون من زملائه وتلاميذه مما يجب أن يتناوله المؤرخ بمنتهي الحذر.

وكانت يقظة ستالين الثورية يقظة مبكرة؛ لأنها بدأت في ١٨٩٤ في تلك المدرسة اللاهوتية التي ألحق بها في تيفليس، فقد ثار ضد «النظم القاسية والنظام الجزويتي» الذي كانت تسير عليه المدرسة الدينية، وفضل على تلك الدراسات الدينية أن يشترك في الاجتماعات العامة التي كانت تعقد في المدينة، كما أخذ يقرأ سرا مؤلفات فيكتور هيجو وداروين وكارل ماركس.

وفي عام ١٨٩٩ غادر المدرسة اللاهوتية نهائيا لكي يصبح ثوريا محترفا، وفي هذا الوقت بالذات كان لينين قد دخل السجن لأول مرة.

وهكذا يمكن اعتبار أن حياته السياسية قد بدأت في عام ١٨٩٨؛ إذ تكون في هذا العام الفرع الروسي للدولية الثانية، فأنضم ستالين إلى شعبة تفليس لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، وتحدث أحد الذين أرخوا له فوصف شكله وقال عنه: «الملامح، على وجهه ملامح الجرأة... وكان يسير مرفوع الرأس..».

ستالين يتحدث عن نفسه

وفي عام ١٩٢٦ خطب ستالين في مدينة تفليس، وتحدث عن نفسه فقال: لا أزال أذكر عام ١٨٩٨ حين عرض عليَّ عمال ورش السكك الحديدية رئاسة ناديهم، وقد مضى اليوم على ذلك ٢٨ عاما، ولكنني

لا أزال أذكر كيف كنت أجتمع في منزل الزميل (ستوروا بدجبيلادزيه)، وتشوريد شفيلي، وبوتشريد شفيلي، وغيرهم من العمال التقدميين.. وهناك كنت أتلقى دروسا عملية، ولو قارنت نفسي بهؤلاء لأدركت أنني في ذلك الوقت صفرا من ناحية الشمال.

ربما كنت إذ ذاك أكثر علما من كثيرين من هؤلاء الزملاء، ولكنني كنت لا أزال حدثا في فنون الجهاد العملي.. وعلى يد هؤلاء صرت «صبيا» في فنون الثورة؛ إذ تتلمذت عليهم فأنتم ترون أن أساتذتي الأوائل كانوا عمال تفليس.. واسمحوا لي الآن أن أعبر لهم عن اعترافي بالجميل.. كزميل.

وأذكر بعد ذلك الأعوام التي انقضت من ١٩٠٥ إلى ١٩٠٧ حين ألقوا بي للعمل في «باكو»بأمر الحزب؛ فقد كان لهذه الأعوام التي قضيناها هناك في التمهيد للثورة أعظم الأثر في نفسي؛ إذ جعلت مني جنديا عمليا ومحركا...

وهكذا تلقيت في باكو التعميد الثاني في نضالي الثوري، وهناك صرت عاملا من عمال الثورة، فاسمحوا لي أن أعبر لأستاذي في باكو- أيضا- عن اعترافي بالجميل كزميل..

وأخيرا أذكر عام ١٩١٧.. عندما ألقي بي بأمر الحزب إلى لينتجراد.. فهناك وسط العمال الروس، وإلى جوار المعلم الأكبر الرفيق لينين، وفي خضم الزوبعة الكبرى التي أثارتها المعارك التي نشبت بين الرأسمالية وبين الطبقة العاملة وخلال الحرب العظمى بدأت أفهم للمرة الأولى معنى أن يصبح الشخص من قادة حزب العمال الأكبر!

وهكذا تتمثل حياة ستالين الثورية في أربع مراحل هامة:

الأولى: مرحلة التلمذة في تفليس.

والثانية: مرحلة العمل في باكو.

والثالثة: مرحلة القيادة في ليننجراد.

وأما الرابعة: فهي مرحلة الدكتاتورية المطلقة في موسكو.

ولقد كانت مرحلة الصبا في حياة ستالين هي مرحلة دولة في دور الغليان.

وكان قد حدث في عام ١٨٢٥، وفي شهر ديسمبر على وجه التحديد، أن ثار جماعة من الضباط الأحرار من المتمسكين بالمثل العليا ضد القيصر نيقولا الأول، ولكنهم أخفقوا في ثورتهم ولم ينجحوا في قلب الحكومة، وإنما نجحوا في إيقاظ روسيا، وحركوا روح الأمل في إنقاذ هذه البلاد من ظلام العصور الوسطى الذي كانت لا تزال تعيش فيه تحت حكم القياصرة المتعسفين الظالمين.

ولذلك فإنه عندما تحركت فكرة الاشتراكية الماركسية وبدأت تنتشر في أوروبا وجدت لها عددا كبيرا من المتطوعين في روسيا. وفي عام ١٨٩٨ نظم الماركسيون الشبان حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي. وبعد عامين أخذوا في إصدار جريدة سرية في ألمانيا أطلقوا عليها اسم إيسكرا (أي: الشرارة)، وكان من بين محرري هذه الجريدة فلاديمير لإيليانوف لينين، وكان والده مدرسا.

وحدث في لندن عام ١٩٠٣ أن انقسم الحزب على نفسه، فأطلق لينين على مَنْ بقي معه اسم البولشفيك (ومعناها الأغلبية)، كما أطلقوا على المنشقين اسم المنشفيك (أي: الأقلية) ويمكن لمن يتتبع هذا الانقسام أن يجده حتى اليوم ماثلا في تلك الفروق التي تفصل ما بين الشيوعية الروسية والاشتراكية الغربية.

مرحلة الصبا (١٨٩٨ - ١٩٠٥) في حياة ستالين

وقد رأينا أن ستالين لا يريد أن يعتبر نفسه لا من رجال النظريات ولا من رجال العلم، إن ما يهمه هو الجهد (العملي)، وقد اعتنق الماركسية كما يعتنق المرء دينا جديدا، ولقد حدد غيره فلسفة هذا الدين الجديد، أما دوره هو فكان دور الجندي، دور المبشر المحجب في بادئ الأمر، ولكن المؤمن العنيد الذي لا يتراجع أمام أي عقبة من العقبات، وكان يستعين في نشر أفكاره بمكر الفلاحين.

والمعلومات قليلة عن ظروف حياته الأولى كمحترف للثورة بين عمال السكك الحديدية، وعمال مصانع التبغ، وعمال صناعة الأحذية، والوسائل التي كان يستعملها في التبشير بديانته الجديدة بلغة قريبة من لغتهم واشتراكية طائعة متساوية بين الجميع.

وكان البوليس يعترض طريقه أحيانا ليجعل من العسير عليه أن يؤدي واجبه، ولكنه كان يحس أنه ملك للحزب وحده بكل ما تحمل هذه الجملة من معان، وكان يتوجه دون حذر ولا خور إلى أي مكان (يرميه) فيه الحزب على حد تعبيره هو.

وكان لينين قد كتب وقتئذ يقول:

يجب علينا أن نكون رجالا يخصصون للثورة لا أوقات فراغهم كل مساء فقط، بل كل حياتهم...

وكان يجب على هؤلاء الرجال الذين يمهدون للانقلاب أن يعيشوا على حساب الحزب، وأن يستغنوا عن البحث عن أي عمل آخر، وأن يعيشوا أطول مدة ممكنة في نفس المدينة، وأن يعملوا في الظلام، مما كان يتطلب جرأة شديدة، وخاصة لشدة البوليس في ظل النظام القيصري.

واضطر دجوجا شفيلي[1] تضليلا للبوليس، أن يتخذ لنفسه عددا من الأسماء المستعارة، وأطلق عليه مرة بعد أخرى: دافيد وكوبا ونيجيرادزيه، وتشيجويكوف وإيفانوفتش وستالين.

وفي عام ١٩٠٠ لم يكن غريبا المظاهرات التي وقعت في تفليس وأدت إلى سقوط عدد من القتلى والجرحى، وإلى حل اللجنة الاشتراكية الديمقراطية الخاصة بهذه المدينة.

وقال اربوس في كتابه «لمحة تاريخية عن البلشفيه» يصف هذه المرحلة من حياة ستالين: «دون أن ينطق بكلمة واحدة كان يصغى إلى ما يقال، حتى حين لكي يتولى هو الكلام.

وكان يصحبه دائما رفيقان أو ثلاثة، يقف واحد منهم عند الباب ليتولى الحراسة»

وفي عام ١٩٠١ سافر ستالين إلى باطوم، وكانت هي الباب الرئيسي لتجارة القوقاز؛ حيث كانت المنطقة غنية بالبترول عامرة بالناس، وخاصة أفراد الطبقة الوسطى. وحدث في عام ١٩٠٢ بتأثيره هو أن هاجم المتظاهرون السجن، وكانوا جميعا لا يحملون سلاحا فسقط منهم عدد من القتلى.

وقبض على ستالين وعدد من المحرضين، وحجز في السجن نحو ثمانية عشر شهرا صدر بعدها الحكم ضده يالنفي الإداري إلى سيبيريا لمدة ثلاث سنوات.

وهذه هي الأوصاف التي وردت في «تحقيق الشخصية» الخاصة به:

طول القامة: ٢ أرشين و ٥، ٤ فرشوك.

حجم الجسم: متوسط.

(١) ..... ستالين.

متوسط السن: ٢٣ سنة.

علامات خاصة: التصاق أصبعي القدم اليسرى الثاني والثالث.

المظهر الخارجي: عادي.

الشعر: أسمر فاتح.

الذقن والشارب: أسمر.

الأنف: مستقيم طويل.

الوجه: مستطيل (به علامات جدري).

ولكنه لم يمكث طويلا في سيبيريا، فإنه بعد شهر واحد من وصوله إلى قرية نوفايا أودا. بمقاطعة أركوستتك، هرب وعاد إلى الظهور في تفليس في شهر يناير من عام ١٩٠٤، وهناك وجد الحزب منقسما إلى فريقين: منشفيك، ولينينيين.

وفي عام ١٩٠٥ كان ستالين قد قرر مصيره؛ إذ اختاره البلاشفة القوقاسيون مندوبا عنهم في المؤتمر البلشفيكي الذي قررت الدول الروسية عقده في تامر فورز بفنلندا، وفي ذلك المؤتمر قابل ستالين- لأول مرة في حياته- لينين.

وكتب في وصف هذا اللقاء الأول يقول:

كنت أتمنى أن أرى نسر الجبال الذي يحمي حزبنا بجناحه في صورة رجل كبير.. ليس كبيرا في السياسة فقط، بل كبيرا أيضا في جسمه، فإنني كنت أصور لينين دائما في خيالي في هيئة مارد له قوام جميل تتمثل فيه القوة، ولكن كم خاب أملي عندما رأيت شخصا عاديا جدا، قوامه أقل من المتوسط، ولا يتميز بأي شيء عن العاديين من بني البشر.

وفي تلك السنة وقع ما يشبه التجربة أو (البروفة» للثورة، وكان الذي

أثارها ما تخلل الحرب الروسية اليابانية من فضائح. وكانت القوقاز مسرحا لحوادث خطيرة لابد أن ستالين اشتراك فيها على وجه التأكيد، ولكنه ظل في الصف الثاني، أما لينين نفسه لابد أن ستالين اشترك فيها على وجه التأكيد، ولكنه ظل في الصف الثاني، أما لينين نفسه فإنه لازم الظلام التام؛ لأن دوره لم يكن قد حان.

ستالين العامل (١٩٠٥- ١٩٠٧).

وكان القمع رهيبا، وهنا أعار البلشفيك للثوار الاشتراكيين جزءا من خططهم، وبدءوا يطبقون الطرق الإرهابية بدورهم دون أن يعدلوا عن العمل المشروع.

ويقول بوريس سوفارين عن هذه الخطة الجديدة في شيء من السخرية: إن ستالين باشر عمله في هذا الإطار مستعينا بمواهبه الطبيعية، فبدأ الاستيلاء بالقوة على مبالغ من المال مما كان في حوزة المصارف، أو مكاتب البريد، أو مخازن الدولة، أو أثناء نقلها بالقطار، بل مبالغ كان يملكها أفراد أيضا، وأصبحت هذه عملية عادية ي عامي ١٩٠٦ و ١٩٠٧.

وكقاعدة عامة لم تكن هذه العمليات تنتهي دون تبادل إطلاق النار، ودون سقوط ضحايا من الجانبين، إلا أن الفوضويين الثوريين كثيرا ما كانوا يخرجون من هذه الاصطدامات دون أن يصيبهم أي أذى؛ وذلك لشدة جرأتهم، ولاستغلالهم عنصر المفاجأة. أما حراس المال فإنهم هم الذين كانوا يسقطون صرعى بأعداد كبيرة في هذه الحوادث.

وكان أهم هدف لاغتصاب المال هو إمداد الخلايا الثورية بالمال، وكان الحادث الذي وقع في تفليس في ٢٦ يونيو من عام ١٩٠٧ هو أهم حادث من هذا النوع.

وإليك ما نشر عنه في الصحف يوم ٢٧ يونيو سنة ١٩٠٧:

حدث اليوم في ميدان أريفان الذي يقع في وسط المدينة، وفي الوقت الذي كان الميدان فيه ممتلئا بالناس أن ألقيت عشر قنابل الواحدة إثر الأخرى فأحدثت دويا هائلا.

وبين كل قنبلة وأخرى كان الرصاص ينطلق من البنادق أو من المسدسات وتساقط زجاج النوافذ، كما امتلأت جوانب الميدان بالشظايا، وأجبر المسئولون عن النظام الناس على الابتعاد عن أماكن الحادث ومنعوهم من الوصول إليه. وفي اليوم التالي عادت الصحف فنشرت ما يلي:

لقد كانت السرقة هي الهدف من حادث الأمس الذي وقع في أريفان، ونجح مدبرو الحادث في سرقة ٣٤١٠٠٠ روبل من إحدى عربات الخزانة العامة.

وقد ذكر جوستاف ويلتر في كتابه المحايد المؤيد بالمستندات القوية أن الذي نظم هذا الهجوم على بنك الدولة كان شابا تلميذا من تلاميذ لينين هو الجيورجياني دجوجا شفيلي المشهور بستالين.

واستطرد ويلتر يقول دون تعليق:

وجاء أحد شركاء ستالين إلى باريس وهو اليهودي (والأخ)، يستبدل أوراق النقد التي سُرقت في الحادث فقبض عليه وأودع السجن. وهذا وهو نفس الرجل الذي كان لويس بارتو وزير خارجية فرنسا وعضو الأكاديمي يدعوه بعد ذلك بسنوات في جنيف «بصديقي لتفينوف».

ستالين في صباه

ومن أصعب ما يكون أن نصف مرحلة الصبا في حياة ستالين اعتمادا على مذكرات أو مستندات؛ فإن الشخص الذي عاش حياة ستالين يعمد دائما إلى إحراق أوراقه وإعدام مذكراته، ومحو كل أثر لها أينما كانت؛ حتى لا تفضحه وتساعد البوليس على تتبعه، أو القبض عليه، أو تقديمه للمحاكمة...

والواقع أن ستالين- كما قال عنه خصومه- لم يسترع نظر احد إطلاقا حتى شبت الثورة البلشفية في روسيا، وقد يكون هذا صحيحا، ولكن ستالين، حتى إذا كانت الأطماع تجيش في صدره منذ ذلك الحين، فإنه كان يعرف كيف يخفيها عن جميع الناس، وذلك بطبيعته الآسيوية التي لا تنم عن شيء ولا تكشف عن نياتها.

ومع ذلك فإن من الثابت أنه فيما بين عامي ١٩٠٣ و ١٩١٣ قُبض على ستالين ست مرات، وكان في كل مرة يُقبض عليه باسم يختلف عن اسمه السابق!

وكان كلما نُفي إلى سيبيريا تمكن من عقد أواصر الصداقة مع حراسه لمدد متفاوتة، ولم يكن من السهل مطلقا الهرب من سلاسل قيصر روسيا، ولكن النظام القيصري كان من جهة أخرى قد أوشك على الانهيار؛ لأن القيصر على الرغم مما أحاط به نفسه من منظمات خاصة للتجسس، ومن بوليس سري، لم يكن في إمكانه في النهاية أن يحتفظ بأعدائه في أسرهم.

كانت الفوضى التي ضربت أطنابها في روسيا، تلك الفوضى التي ظل الشيوعيون يحاربونها مدة عشرين عاما متتابعة، كانت هذه الفوضى تتجلى عند نهاية عهد القياصرة، في خلل الإدارة الحكومية، وفي روح الاستياء التي عمت نفوس الشعب.

وإذا عرفنا ما في نفسية الروسي من عواطف متضاربة تتأرجح أحيانا حتى تتفاوت من الوحشية إلى الرقة، لو عرفنا ذلك لما أدهشنا أن نسمع أن كثيرين من المنفيين إلى سيبيريا كانوا يعاملون معاملة حسنة بواسطة حراسهم.

وسيبيريا بلاد واسعة يشتد فيها البرد شتاء كما يشتد فيها الحر صيفا، وقد كان بين الذين نفوا إلى هناك عدد كبير من الكُتاب؛ ولذلك فقد تركوا لنا أوصافا للمنطقة، وكلها تقريبا تكاد تخلو من الشكوى، ويبدو مما كتبوا أنه لم يكن ينقصهم هناك أي شيء لهم إلا الجو المناسب لمزاولة مهنتهم ومباشرة نشاطهم.

وقد كان النفي خير مساعد لستالين على التثقيف، وهي فرصة أتاحها له المنفى على أن الرجل الذي يميل إلى صيد السمك وصيد الحيوانات في كل يوم لا يمل الحياة في سيبيريا. كان ستالين في صباه على وشك الإصابة بمرض في الرئة، ولكنه شفي تماما من هذه العلة أثناء نفيه في سيبيريا.

وقد حدث يوما وهو يجتاز نهرا متجمدا أن فاجأته الرياح القطبية القاسية العاتية التي تجرف مراعي «الإستبس» أحيانا- ويسمونها هناك (بوران)- فاجأته هذه الرياح وهو يجتاز النهر، فظل ساعات طويلة يصارع الريح الصرصر، حتى تمكن بشق النفس من الوصول إلى كوخ إحدى الفلاحات، ولكن قواه كانت قد خارت تماما حتى إنه لم يتمكن من دفع الباب والدخول، وأغمى عليه عند عتبة الباب، ولحسن حظه شعر به سكان الكوخ فأدخلوه عندهم وأسعفوه، فنام مدة ثمان ساعات متتالية وهو لا يعي شيئا مما حوله.

وتقول القصة: إنه منذ ذلك اليوم أصبح محصنا ضد السل!

وهكذا أكمل ستالين تعليمه في سيبيريا نفسها، حتى إنه ليبدو أن

القيصر المسكين، الذي كان يريد القضاء على أعدائه بإرسالهم إلى المنفى، إنما كان يساعدهم بهذا النفي على الاستزادة من الصحة والعافية، علاوة على الثقافة العقلية!

ولم يتمكن ستالين من فهم كارل ماركس على حقيقته إلا وهو في منفاه بسيبيريا، على الرغم من أن ثلاثة أجيال متعاقبة من الروس كانت قد أكبت على دراسته...

ومن الأوصاف الممتعة عن هذه الفترة من الحياة في المنفى منظر المنفي المسجون ستالين وهو يقرأ كتاب (رأس المال» لكارل ماركس، وقد اجتمع حوله سجانوه من القوزاق ليستمعوا إليه وهو يشرح لهم ما يقرأ، ولكنهم يشعرون بالسأم؛ لأنهم لا يفهمون شيئا، ثم ينامون.. ولكن السجين المنفي لا ينام! هكذا كان حال ستالين في المنفي في صباه.

وحتى الوقت الذي شبت فيه الثورة كان زمام النظام قد أفلت من روسيا؛ إذ إنها كانت قد خسرت ثلاثة حروب في ستين عاما، كان هناك في تلك الدولة الواسعة سلم يصعد عليه الثائرون درجة درجة إلى أن يصلوا إلى المساواة... كان هناك ثائرون بين طبقة النبلاء، كما خرج ثائرون من بين الطبقة العاملة، أما العملاء الخونة الذين كانوا على استعداد لفضح إخوانهم فإنهم كانوا قد انتشروا بين جميع الطبقات.

وكانت الطبقات العاملة التي ينشر بينها ستالين وزملاؤه دعايتهم قد تكتلت بأعداد هائلة في منطقة البترول بباكو، كان ذلك حوالي عام ١٨٧٠؛ إذ وجد مئات الألوف من العمال من جميع الأجناس ومن جميع الأديان وقد تركزوا في تلك المنطقة، وكانوا يعيشون في أحوال تعسة ومنازل فقيرة، ولذلك فقد وجدت فيهم الحركة الاشتراكية أرضا خصبة جدا لنشر مبادئها.

الفصل الرابع

ستالين الثورة الروسية

هل كان ستالين أحد ثوار الثورة الروسية أو كان له أي دور فيها؟

إن الحقيقة الهامة التي ينساها الناس دائما عن ثورة روسيا الاشتراكية هي أن الذين انتصروا في هذه الثورة؛ وهم البولشفيك، ليسوا هم الذين أسقطوا القيصر نيكولاس الثاني؛ ففي الوقت الذي أُجبر فيه القيصر على التنازل عن عرشه كان ستالين منفيا في سيبيريا، وكان تروتسكي على وشك مغادرة نيويورك، حيث كان يتكسب من قلمه.

أما لينين فقد كان في سويسرا، وعقد هناك اتفاقا مع الألمان، وهم في حالة حرب مع روسيا، فسمح له القائد الألماني الجنرال فون لودندورف بأن يغادر سويسرا في أبريل من عام ١٩١٧ في عربة قطار خاصة مغلقة تحمله وبعض رفاقه الأخرين إلى روسيا عبر الأراضي الألمانية، ويقول لينين تفسيرا لهذا: إن الألمان سمحوا بذلك وهم في حالة حرب مع بلاده، على أمل «أن تتحول الحرب الاستعمارية إلى حرب أهلية في روسيا»، وبذلك تخرج روسيا من ميدان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨).

وفي ١٧ يوليو من عام ١٩١٧، بعد أربعة أشهر من اعتزال القيصر للعرش، وبعد ثلاثة أشهر من عودة لينين إلى روسيا، اندلعت نيران الثورة البولشفية الأولى وتسبب عنها وفاة مئات من المدنيين في شوارع بتروغراد[1] إلا أن حكومة كيرنسكي تمكنت من إقماع هذه الثورة وشنت

(١) ..... العاصمة الروسية القديمة، وهي التي أصبحت اليوم لينجراد.

هجوما عنيفا على البلاشفة، فاضطر لينين إلى الهرب.

وانقضت فترة استعداد قصيرة، وما جاء شهر نوفمبر، وفي الفترة الواقعة بين ٧ نوفمبر و ١٦ نوفمبر من عام ١٩١٦، حتى تمكن لينين والبلاشفة من الاستيلاء على الحكم بعد إسقاط حكومة ألكسندر كيرنسكي التي باءت محاولتها الديمقراطية بالفشل.

أما ستالين فقد كان خلال هذه الحوادث كلها لا يزال شخصية غامضة مجهولة، ولكنه ما لبث أن بدأ ينمو داخل الحزب عندما عُين عضوا في اللجنة المركزية، وكان قد عاد في شهر مارس من عام ١٩١٧ إلى بتروجراد، وتولى بوصفه عضوا في اللجنة المركزية للحزب البولشفيكي إدارة جريدة برافدا بالاشتراك مع مورانوف وكامينف، ويقال: إنه ظهرت منه في ذلك الوقت وقبل وصول لينين في شهر أبريل بعض بوادر توحي بقبول أنصاف الحلول والإجراءات حتى بدأ بعض الارتياح في أمره من جانب الماركسيين المخلصين.

ولكن ما لبث لينين أن ظهر على المسرح، ومنذ ذلك الوقت تبعه ستالين، وانصهر ستالين في جهاز الحزب، وأدى للحزب أجل الخدمات الإدارية، ولكنه على حد تعبير تروتسكي لم يكن له وجود سياسي، فقد قنع ستالين بأن يكون المنفذ المخلص لخطط لينين.

وقد كان من نتيجة هذه الخطط سقوط حكومة كيرنسكي وسيطرة البولشفية.

إن معظم المؤلفات التي تناولت بالتفصيل ثورة أكتوبر لا تذكر اسم «ستالين» إلا في القليل النادر، والواقع أن ستالين منذ أوائل عام ١٩١٨ أبدى شيئا كثيرا فيما يتعلق بالثورة العالمية، وذلك في الوقت الذي كان تروتسكي فيه يبشر «بالثورة الدائمة»، وهو يؤمن بأنه إذا لم تؤد الثورة

في روسيا إلى قيام حركة ثورية في أوروبا كلها فإن الدول الأوروبية ستقوم من جانبها بقمع الثورة الروسية، ولم يكن ستالين يكره أن تمتد الثورة إلى كافة أنحاء القارة الأوروبية كبداية، ولكنه كان يوصي بتحديد تاريخ قيام هذه الثورة بالشهور لا بالأسابيع.

وعين بعد ذلك عضوا بالمكتب السياسي مع لينين وتروتسكي وسفردلوف، وكان من المؤيدين لحقوق الشعوب الوطنية كما كان يؤيد برنامج لينين في جميع المسائل الأخرى، ولكنه ما يلبث أن يكشف أن التطبيق العملي لا يتفق مع النظريات، وبعد أن كان ستالين يؤيد نظريا حق الشعوب في الاستقلال انقلب مؤيدا عمليا لحق الدولة السوفيتية في فرض إرادتها على الشعوب المتمردة. فقد رأى لينين وستالين بعد ذلك أن حقوق الاشتراكية أسمى بكثير من حقوق الأمم في تقرير مصيرها، وإذا كانت «الانفصالية» مبدأ اعتنقه الاثنان فلا شك أن الاتحاد عمل واقعي يحسن إتمامه.

وكان ستالين هو الذي اقترح على اللجنة المركزية للحزب البلشفيكي تأليف لجنة خاصة أطلق عليها اسم «تشيكا» ومهمتها أن تقمع بالقوة وإثارة الرعب كل ثورة مضادة للثورة البلشفية.

وفي عام ١٩٢٣ نشرت جريدة «برافدا» إحصاء عما قام به أعضاء إل «تشيكا» الذين بلغوا مائة ألف عضو، انتخبوا من أعظم المتحمسين للنظام الجديد، وتغلغلوا في جميع مقاطعات روسيا.

وقد قام إل «تشيكا» في جميع أرجاء الاتحاد السوفييتي بإعدام: ٢٨ أسقفا، و ٣٧١٥ كاهنا، و ٩٥٧٥ مدرسا، و ٨٨٠ طبيبا، و ١٠٥٠٠٠ ضابطا من ضباط البوليس، و ٤٨٠٠٠ رجلا من رجال البوليس، و ٢٥٨٥٠ موظفا بالحكومة، و ٢٦٠٠٠ ضابطا.

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الإرهاب كان يلقى تأييدا من الجماهير، أو كما لاحظ بعض الكُتاب أن حكم الإرهاب الذي اضطلع به البوليس السري الروسي كان استمرارا لحكم الفرد المطلق الذي شكا منه الروس في عهد القياصرة... وهو حكم يقوم على امتهان النفس البشرية والإقلال من شأنها أو قيمتها.

وقال ستالين في تبرير ذلك: «إن إحدى الوظائف السياسية لكل سلطة سياسية هي القمع».

وهكذا قامت إل «تشيكا» في عهد البلشفية بما قامت به إل «أوخرانا» في عهد القيصرية.

ولكن هذه اللجان والهيئات كانت تؤدي أحيانا الخدمات للأشخاص، فقد تمكن ستالين وهو يقوم بوظيفة «قوميسير الشعب» من فرض رقابته على جميع مقاطعات روسيا، كما تمكن بواسطة إل «تشيكا» التي كان على رأسها صديقه دزيرجينسكي من السيطرة على الروح المعنوية لكل شخص كان يريد إهلاكه أو الإبقاء عليه...

كان هذا هو مصدر قوته ومبعثها، وكان تروتسكي أول من تبين ذلك في عام ١٩٢٥.

أما فيما يتعلق بمعاهدة برست ليتوفسك،(١) فإن ستالين كان من مؤيدي الصلح المنفصل، ولما اجتمعت اللجنة المركزية في «المسرح الكبير» بموسكو لمناقشة الموضوع ضرب ستالين حصارا على المسرح كله بواسطة الجنود الحمر، وصعد إلى منصة الخطابة ثم أعلن أن إل «تشيكا» تعرف الخونة، وأنها ستنزل بهم العقاب. وتحت ضغط هذه

(١) ..... المعاهدة التي أخرجت روسيا من الحرب العظمى «١٩١٤- ١٩١٨»، وبمقتضاها حصلت ألمانيا علي مساحة واسعة من الأراضي.

الظروف أعلن ثلثا المجلس تأييدهم للصلح، وبعد شهر واحد تمت الموافقة على المعاهدة.

وتلت ذلك مرحلة الحرب الأهلية، وفيها تركت قيادة الجيش الأحمر لتروتسكي، وكان رأي تروتسكي فيما يتعلق بالأسرة الحاكمة الإمبراطورية متفقا مع رأي لينين في ترك هذه الأسرة تحت حراسة بحارة وعمال بترغراد، ولكن ستالين كان يؤمن بأنه لا يجب أن يترك أي بصيص من الأمل للبيض في إنقاذ هذه الأسرة في يوم من الأيام.

وقام ستالين بدور غامض في مسألة «إيكاترينبرج».

وعين بعد ذلك قوميسيرا[1] للتفتيش فتعدى اختصاصاته وأخذ يصدر أوامر القتال، وأخذ تروتسكي يشكوه إلى لينين الذي أمر باستدعائه إلى موسكو، ولا شك أنه أحس بشيء من الكمد والحقد عندما أعيد إلى دائرة الأعمال الإدارية.

ولما قامت الحرب بين بولندا وجيش فرانجيل ظهر ستالين في جبهة القتال، ولكنه لم يقم بأي دور استحق أن يسجله له الكُتاب البلشفيك أنفسهم.

ويقول المؤرخ المحايد ويلتر: «إن ستالين عُين في عام ١٩٢٢ سكرتيرا عاما للحزب الشيوعي، فأستقال من جميع الوظائف الرسمية الأخرى حتى يتفرغ لأداء هذه الوظيفة.

ويبدو أن المنصب الجديد كان يتفق مع الأهداف التي يسعى إليها، وكان في وسعه أن يطبق صفاته الريفية في الميدان الجديد فيتعهد المشروعات على مهل، ويقضي السنوات الطوال عاملا في سبيل تحقيقها، ويزيل العقبات من طريقه بدلا من مواجهتها، ويعند إلى الخيانة والغدر عندما يعجز عن العثور على وسيلة أخرى للتصرف».

(١) ..... القوميسيرا هو المفوض أو المندوب السامي

وصية لينين

هل أوصي لينين بأن يخلفه ستالين كزعيم لروسيا؟!

إن لينين لم ينتخب ستالين خلفا له، بل يقال: إنه على العكس من ذلك لم يكن شديد الرغبة في أن يخلفه ستالين؛ فإن لينين لم يكن شديد التحمس لكفاءة ستالين خلال فترة طويلة من حياته؛ بل إن بعض الذين أرخوا حياة لينين قرروا أنه ترك وصية سياسية يدعو فيها إلى البحث عن شخص آخر بدلا من ستالين لكي يتولى منصب السكرتير العام للحزب، وذلك بسبب حدة خلقه وشدة تمسكه بالحكم والسلطان. وها نحن أولاء ننشر تفاصيل هذه «الوصية».

كان المركز الأدبي لتروتسكي يرتفع كلما اشتد المرض بلينين، وكانوا يعتبرونه ممثلا للينين وإن لم يحمل لقبا رسميا، وكان هذا سببا يدعو منافسيه على التكتل ضده والعمل على إبعاده.

ولاحظ تروتسكي بعد أن أخذ يتردد على صالات الاجتماعات في موسكو أن مناقشاته تقاطع، وكانت هذه أولى علامات المؤامرة التي دبرت ضده، وكانت المؤامرات هي المادة الأولى في السياسة الروسية في تلك الأعوام، وكان الناس جميعا يعرفون أن استمرار الدولة الجديدة رهن بخليفة لينين ومَنْ يكون؟ ولكن في ظروف خطيرة كهذه يحدث أحيانا ألا تحد الوطنية من المطامع الشخصية.

ومنذ اللحظة التي دب فيها التحاسد بين أصدقاء لينين وأقوى رجال في حزبه، بدأ عمله كله يتعرض للخطر والانهيار بسبب تعرض وحدة الحزب للانقسام، ولم يكن لينين رجلا يحاول تحقيق مطامع شخصية، وإنما كان كل

ما يهمه في الحياة هو العمل الذي حققه لبلاده.

فلما استلقى على فراشه بعد أن حُرم مؤقتا من المقدرة على الكلام اخذ يقلب في رأسه موضوع المرشح الذي يجب أن يُلقي على أكتافه عبء السلطة، وقبل وفاته بعام واحد أملى، للعرض على مؤتمر الحزب، المذكرة الآتية، والتي أطلق عليها البعض اسم الوصية: أعتقد أن العامل الأساسي لاستقرار نظامنا يجب أن يتلخص في تأييد كبار الأعضاء في لجنتنا المركزية من أمثال ستالين وتروتسكي، وفي رأيي أن العلاقات بين هذين الرجلين تنذر بخطر شديد على وحدة الحزب، وربما كان من الممكن تجنب الفرقة بزيادة عدد أعضاء اللجنة المركزية ومضاعفتها من ٥٠ إلى ١٠٠.

إن الرفيق ستالين بعد أن أصبح سكرتيرا عاما للحزب قد ركز سلطة واسعة في يده، ولست واثقا إذا كان يستعمل هذه السلطة دائما بالحذر المطلوب.

ومن جهة أخرى فإن الرفيق تروتسكي لا يتميز فقط بكفاءته الشخصية، فهو بكل تأكيد أكفأ أعضاء اللجنة المركزية، وإنما أيضا بثقته العظيمة بنفسه وميله إلى الناحية الإدارية من كل موضوع.

إن هذا الاختلاف في خلق الرفيقين اللذين يعتبران أكثر الأعضاء كفاءة في اللجنة المركزية قد يؤدي إلي انقسام ولو لم يحدث هذا باختيار أحد، فإذا لم يتخذ الحزب إجراءات لوقف هذا فقد يحدث في لحظة غير متوقعة.

وفي نفس الأسبوع الذي حرر فيه لينين مذكرته هذه أبلغ بنبأ الفضيحة التي أثارها ستالين بتصرفاته في جورجيا، فقد نكل ستالين والحقد يملأ قلبه بمسقط رأسه، وأوقف أصدقاءه القدماء عن وظائفهم، واشمأز لينين

للسماح لستالين باستعمال القوة لتسوية مشاكل كان الدستور يقدم بشأنها ضمانات تقضي بالتسامح إلى أبعد الحدود.

ولما عرف ستالين أن لينين قد أُبلغ تفصيل ما حدث عنف زوجة لينين؛ لأنها أبلغته إياه بدلا من أن تتركه يخلد للراحة وهو في مرضه الأخير، وعلى ضوء ما بلغ لينين من تصرفات ستالين الأخيرة قام بتقوية «مذكرته»، فأضاف إليها بعد عشرة أيام الأسطر التالية:

إن ستالين عنيف جدا، وهذا العيب وإن كان محتملا لبقائه بيننا إلا أنه يصبح غير محتمل عندما يقوم بأعباء وظيفة السكرتير العام للحزب، ولهذا السبب فأنا أقترح على الرفقاء أن نبحث عن وسيلة لإبعاده عن هذه الوظيفة حتى نرشح لها رجلا يختلف عن ستالين من جميع الوجوه... رجلا يتحلى بصبر أكثر، وإخلاص أشد، وأدب أكبر، ورعاية أعظم لحقوق زملائه، وأقل تعرضا للنزوات منه... وقد تبدو هذه الصفات أمورا تافهة لا معنى لها، ولكنني أعتقد أننا لو أردنا أن نتحاشى الانقسام في داخل الحزب، وأيضا من ناحية العلاقات بين ستالين وتروتسكي التي أشرت إليها آنفا، تعتبر هذه الأمور التافهة هي التي يمكن أن تتسبب في نتائج حاسمة.

ومما هو جدير بالذكر أن هاتين الوثيقتين الهامتين جدا لم تنشرا قط في روسيا، ولكن مضمونهما لا يختلف إلا قليلا جدا في معظم المصادر، وأما الأصل نفسه- أصل الوثيقتين- فقد اختفى منذ مدة طويلة جدا، وقد يكون أُحرق وزال نهائيا من الوجود.

وقد أزاح خروشوف الستار عن حقيقة هذا النزاع المستتر في سبيل الاستئثار بالسلطة، وقدم وثيقتين للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي (فبراير ١٩٥٦).

وذكر أن الوثيقة الأولى هي عبارة عن خطاب كتبته زوجة لينين مدام كروبسكايا في ٢٣ ديسمبر من عام ١٩٢٢، ويعتقد أنه إلى الرفيق كامينيف الذي كان رئيسا للمكتب السياسي «وقد جاء به»:

ترتب على الخطاب المقتضب الذي أملاه علي فلاديمير إيليتش لينين بعد استئذان الأطباء، ترتب على ذلك أن سمح ستالين لنفسه أن ينفجر في غلظة وقحة. وقالت زوجة لينين موجهه كلامها لزملائه:

ليس هذا يومي الأول في الحزب، كما أنني خلال الثلاثين عاما التي انقضت لم أسمع من أي رفيق كلمة تنم عن الوقاحة، وليست رسالة الحزب وجهود لينين عزيزة على ستالين أكثر مما هي عزيزة علي.

وعدا ذلك فإنني في مسيس الحاجة في أيامنا هذه إلى راحة الأعصاب والسيطرة على النفس.. وإنني لأعرف أكثر مما يعرف أي طبيب ما ينبغي أن يناقش مع لينين، وما لا ينبغي أن يناقش معه؛ ذلك لأنني أعرف المؤثرات التي تثير أعصابه أولا تثيرها، ولا شك أنني أعرف ذلك خيرا مما يعرفه ستالين على أية حال...

لذلك فإنني ألجأ إليك وإلى جريجوري[1] لأطلب منكما باعتباركما من ألصق الرفاق بلينين أن تحمياني من تدخل ستالين الوقح في شئوني الخاصة، ومن تجسسه علي وتهديده لي... ولست أشك في طبيعة القرار الإجماعي الذي سوف تتخذه في هذا الصدد لجنة المراقبة التي يستخدمها ستالين في تهديدي، ومع ذلك فإني لا أملك من القوة أو من الوقت ما أبدده عبثا في عراك أحمق، إنني امرأة متقدمة في السن، وأعصابي متوترة غاية التوتر...

وبعد أن كتبت زوجة لينين هذا الخطاب بشهرين ونصف أرسل لينين

(١) ..... تقصد الرفيق زينوفييف.

بنفسه في مارس ١٩٢٣ بالخطاب التالي إلى ستالين قال فيه:

عزيزي الرفيق ستالين:

لقد سمحت لنفسك أن تتحدث في قحة إلى زوجتي عن طريق التليفون وقد أغلظت في القول، وعلى الرغم من أن زوجتي قد اتفقت معك على نسيان ما حدث، فإن زينوفييف وكامينيف قد وقفا منها على ما حدث، ولست راغبا في أن أغتفر لك بسهولة ما حدث، وما بدر منك ضدي.

ولست في حاجة إلى أن أقول لك: إنني أعتبر كل إساءة موجهة إلى زوجتي إساءة موجهة إلى شخصي، ولهذا أود أن أعرف منك: هل ستعتذر لزوجتي أو أنك ستفضل أن تظل العلاقة بيننا على ما هي من جفوة وغلظة؟

مات لينين فليحيا ستالين

مات لينين... فليحيا ستالين! هكذا حال الشعوب الغير مستنيرة

عاش لينين طويلا حتى رأى دولته وقد اعترفت بها ست حكومات أجنبية اعترفا «واقعيا»، واثنتا عشرة حكومة اعترافا «شرعيا».

ونجح في إبرام معاهدة مع تركيا، واتفاق مع ألمانيا حتى يثبت للعالم أن الدولة السوفييتية كانت في موقف يسمح لها بإبرام المعاهدات. وكان من نتائج زيادة التوتر بين الولايات المتحدة واليابان، ذلك التوتر الذي بدت آثاره منذ ١٩٢٣، كان من نتائج هذ التوتر عودة روسيا الآسيوية إلى السوفييت.

وسعد لينين في أخريات أيامه؛ إذ رأى السلم وقد ساد جميع بلاده، ومركز حزبه وقد توطد في الداخل.

وتوفي الزعيم فجأة في شهر يناير من عام ١٩٢٤.

وكان تروتسكي قد سافر إلى الجنوب للعلاج، وعلم بالنبأ بواسطة رسالة برقية تلقاها من ستالين، وذكر ستالين في هذه البرقية تاريخا غير صحيح لتشييع الجنازة، وذلك حتى يحرم تروتسكي من الاشتراك فيها، وكان عجز تروتسكي عن تحديد موعد الجنازة دليلا على أن سلطته قد أخذت في التقلص.

والقى ستالين خطاب التأبين في مناسبة جنازة لينين في الجموع الحاشدة، وقال في هذا الخطاب الهام:

عندما افترقنا أوصانا الرفيق لينين أن نحتفظ باللقب المشرف

«عضو الحزب» نقيا طاهرا.

ونحن نقسم لك أيها الرفيق لينين بأن نطيع أمرك.

وأمرنا الرفيق لينين قبل أن يفارقنا بأن نعمل على تدعيم الاتحاد بين الصناع والفلاحين بجميع الوسائل.

ونحن نقسم لك أيها الرفيق لينين بأن نطيع أمرك.

وهكذا بدا ستالين أمام نعش لينين كأنه خليفته الطبيعي بلا منازع، تماما كما بدا مارك أنطوني أمام نعش قيصر، ولكن بفارق واحد هو أنه كان يستعد لسحق أوكتافيوس الغائب.

ومنذ ذلك اليوم كان ستالين قد قرر بينه وبين نفسه أن ينتصر على كل خصم أو منافس يقف في طريقه ما دامت الجماهير قد أمنت بأنه خليفة لينين، ولم يعترض أحد أو يرشح إنسانا غيره.

وفي السنوات الأربع التي تلت وفاة لينين في عام ١٩٢٤ تكلم الناس كثيرا في روسيا ولم يعلموا إلا قليلا، وتعتبر هذه الفترة في حياة ستالين فترة الاستعداد للدكتاتورية، وهكذا مرت أربع سنوات لم يشيد فيها أي شيء في روسيا، وهي الفترة التي انقضت بين نهاية عهد لينين وبين استئثار ستالين بالسلطة، وقد تخلل هذه السنوات نضال سري مرير في سبيل السلطة والحكم، وكان أهم نضال تحكم في الموقف كله هو النضال بين ستالين وتروتسكي.

وقد بدأ النضال بين الاثنين؛ بين ستالين وتروتسكي، بشكل مسرحي يذكر برواية «يوليوس قيصر» لشكسبير، بدأ أمام جثة الزعيم المتوفى نفسه، كما بدأ بمناوشات بين أرملة لينين وبين ستالين.

والواقع أن مدام كروبسكايا- أرملة لينين- شنت حربا صامتة لا هوادة فيها ضد ستالين، وكان موضوع الخلاف (المذكرتين) اللتين

كانت تتكون منهما وصية لينين، وكان في نشر هاتين المذكرتين أو عدم نشرهما سيقرر مستقبل ستالين.

كانت مدام كروبسكايا قد ظلت ثلاثين عاما وهي موضع احترام الأصدقاء والأعداء على حد سواء، وعلى الرغم من أنها لم تنجب أولادا توليهم اهتمامها إلا أنها ظلت دائما في عزلة اختيارية ولم تشهد طول الأعوام العشرين التي قضاها لينين في المنفى، والسنوات السبع التي قضاها في حكم مضطرب، تلك الحفلات التي تجتذب إليها النساء.. وكانت أرملة لينين تقنع بالاشتراك في مؤتمر الحزب.

وشرعت مدام كروبسكايا بلباقة عظيمة في مساعدة تروتسكي في كثير من الظروف، وعلى إثر وفاة زوجها وكتبت إلى تروتسكي خطابا تقول فيه:

أكتب إليك لأخطرك أن فلاديمير إيليتش (لينين) قبل وفاته بشهر كان يقلب كتابك، فتوقف عند فقرة ناقشت فيها مميزات ماركس، وطلب مني أن أقرأ له تلك الفقرة، ثم عاد فقرأها بنفسه مرة أخرى.

وأود أن أقول لك ما يلي، وهو: إن العواطف التي كان يشعر بها من نحوك عندما خصرت لزيارتنا في لندن بعد العودة من سيبيريا (١٩٠٢) لم يطرأ عليها أي تغيير.

وإنني لأتمنى لك يا ليو دافيدوفيتش صحة حسنة وشجاعة، وأقبلك.

وأخذت أرملة لينين تلح- عبثا- في ضرورة قراءة وصية لينين علنا على مسامع الجماهير، إلا أن ستالين بوصفه السكرتير العام للحزب تمكن من الحصول على الموافقة بألا تقرأ الوصية إلا في جلسة سرية للجنة، هذا على الرغم من أن اجتماع الحزب كان قد التأم في ذلك الوقت.

وبعد وفاة لينين بأربعة أشهر اجتمع تسعة عشر رجلا في الكرملين، وأخذ ستالين يقرأ عليهم تلك الوثيقة.

ولم ينطق أحدهم بكلمة واحدة، وجاء في الوصية العبارة الآتية:

إن ماضي تروتسكي الذي لا يتصل بالبلشفية ليس حدثا.

وهنا سأل تروتسكي الذي لا يتصل بالبلشفية ليس حدثا.

وهنا سأل تروتسكي: ما هذا؟

فأعاد ستالين قراءة الفقرة، وكانت هذه هي العبارة الوحيدة التي تبودلت في الاجتماع الهام.

وكانت وصية لينين لا تقتصر على الحديث عن خلفه، وإنما كانت تشير إلى ما قد يطرأ على الدولة من تطور سياسي، وكانت الوصية تمتدح وتنتقد كلا من ستالين و تروتسكي، ولكن لينين كان يتحدث فيها عن تروتسكي بوصفه الرجل الأكفأ، وفي نفس الوقت كان يوصي بإبعاد ستالين عن منصبه، ولما كانت المسألة لا تتعدى توصية يتقدم بها فإنه ترك الأمر في النهاية للمؤتمر حتى يتولى توجيه الدولة وتوجيه الحزب.

وقد بلغ عدد الذين تنازعوا عرش لينين بعد وفاته نحو أربعة من الزعماء، وكان كل واحد منهم يرجو أن يخلفه، إلا أن اثنين فقط من بين الستة هما اللذان كانت تتوفر فيهما الصلاحية، وهما: ستالين و تروتسكي. أما ستالين فبسبب نفوذه داخل الحزب، ذلك النفوذ الذي أحرزه بعد جهود مضنية، وأما تروتسكي فبسبب الشهرة التي أحرزها أثناء الثورة.

واحتاج ستالين إلى أربع سنوات كاملة حتى يضيع أثر وصية لينين ويتمكن من التغلب على منافسه، وليس حقيقيا ما وصف به ستالين من أنه كان بناء في حين كان تروتسكي ثائرا؛ فإن العنصرين عنصرا البناء

وعنصر الثورة كانا يتوفران في الرجلين معا.

وكان لينين يشعر بقلق وهو يقدر أن الرجلين: ستالين، و تروتسكي، لا يمكن أن يحكما معا، والواقع أن الاثنين كانا يتفقان في الأهداف العامة: كانا يتفقان في ضرورة إقامة دولة صناعية، وفي ضرورة القضاء على الفلاح الثري «الكولاك»، وهو الذي نجا من الثورة باعتباره وسيطا بين النبلاء من أصحاب الأراضي وبين الفلاحين العبيد، وربما كان سبب الخلاف بينهما هو وسائل الوصول إلى تحقيق هذه الأهداف.

وبعد أن تناقلت الأفواه وصية لينين، وأصبحت شائعة معروفة للجميع، سارع ستالين بتقديم استقالته من منصب السكرتير العام للحزب، وكان على ثقة من أن المؤتمر

الذي كان آلة في يده سوف يرفض هذه الاستقالة، وقد سمحت له خطته هذه بأن يستعمل الوسائل الديمقراطية ضد المعارضة المتزايدة من جانب تروتسكي.

كان ستالين يعتبر مجرد معارضة الأقلية مؤامرة يجب القضاء عليها وهي في المهد، وكان قد قرر ألا يسمح لأحد بالوقوف في طريقه، بعد أن رأى أن الدكتاتورية وحدها هي التي يمكن أن تساعده على تحقيق برنامجه، فأخذ يمهد لها على الرغم من مبادئ لينين، وعلى الرغم من الدستور الجديد.

ونجح ستالين أخيرا في إقامة ديكتاتوريته، ولكنه نجح بعد أن اضطر إلى طرد تروتسكي، بل وإلى طرد جميع أصدقائه القدامى من روسيا، بل ومن عالم الأحياء كله!

ستالين وتروتسكي وجها لوجه

في هذه المرحلة، بدأ تروتسكي التحدي، وبدأ نضاله ضد ستالين في ظروف مواتية.

كان تشيانج كاي شيك الذي عقد محالفة مع الشيوعيين قد أصدر أمره بإجراء حركة تطهير دموية واسعة النطاق في الجيش، وبدا كأن ستالين هو المسئول عن ذلك؛ إذ إنه هو الآسيوي الأصل، كان أول من وطد أواصر الصداقة مع الرئيس الصيني، وأشار بتكوين كتلة آسيوية تضم ٦٠٠ مليون نسمة لاستغلالها ضد الإمبراطورية البريطانية، وهكذا وجد تروتسكي الفرصة لاتهام ستالين علنا بأنه قد خان الثورة العالمية، وتمكن تروتسكي من الحصول على توقيع ٨٣ رئيسا مشهورا على منشوره الذي تضمن الاتهام.

ورأى ستالين الخطر محيطا به، فجازف بكل شيء في سبيل إتمام الانقلاب، وقدم للجنة المؤتمر قرارا خاصا يتضمن نفي تروتسكي، وكسب قضيته. وقد وصلت بعض تفصيلات عن المناقشات التي دارت في هذا الاجتماع، وها نحن ننشر طرفا منها:

ستالين: أنت أيها الرفيق تروتسكي ليس عندك من الشجاعة ما يكفي للدفاع عن نظريتك..

تروتسكي: إنها نظرية ابتدعها شخص غيري، وليس لي صلة بهذه الاتهامات...

ستالين: إن الرفيق تروتسكي يعرف جيداً أن-في وسعي أن أثبت كل شيء بالمستندات.

تروتسكي: ليس في وسعك إثبات شيء.. أنت كاذب!

ستالين: إنني أترك لك الشتائم، وسأقدم الوثائق الخاصة برفيقنا إلى المؤتمر ليبحثها.

وقرر المؤتمر بعد ذلك بأيام الموافقة على نفي تروتسكي، ورفض تروتسكي تنفيذ القرار، ولما ذهب إليه البوليس للقبض عليه ظل جالسا على مقعده حتى اضطر رجال البوليس أن يحملوه بين أيديهم وينزلوا به السلم إلى أن وصلوا به إلى العربة التي كانت تنتظره عند باب المنزل.

وكان ابنه الذي يبلغ السادسة عشرة من عمره قد تمكن من الهرب، واخذ يصيح طالبا العون والمساعدة وهو يقول: يا رفاق! يريدون أن يأخذوا تروتسكي!

وفي المحطة اعترض الجمهور الطريق ليحولوا دون وصوله إلى الرصيف الذي يسافر منه القطار، فاضطر رجال البوليس إلى إعادة تروتسكي إلى منزله.

وقد سبب هذا الحادث تأخيرا صغيرا في عملية الإبعاد، ولكن البوليس عاد في اليوم التالي وقد تنبه إلى ما حدث بالأمس، وقاد تروتسكي إلى قطار تحرك من محطة أخرى...

واستمرت رحلة تروتسكي وزوجه وابنه ١٧ يوما في منطقة القردغيز، وهو في الطريق إلى منفاه في سيبيريا، ذلك المنفى الذي ألقي إليه تروتسكي منذ ٢١ عاما في نفس الوقت الذي نفي فيه ستالين أيضا، وبسبب نفس هذه الثورة التي جاهد من أجلها الاثنان، وكان ابن تروتسكي يحاول، كلما وصل القطار إلى إحدى المحطات الصغيرة، أن يشتري خبزا وزبدا وورق للكتابة.

وأثبت تروتسكي وهو في هذا الموقف المرعب أنه زعيم يسمو فوق الحوادث والأقدار، فأخذ يداعب مَنْ معه، ويصلح من المنزل الصغير الذي خصص لهم، وهي عملية أطلق عليها اسم «مقاومة إعادة بناء»، وأطلق على ابنه اسم «مدير البريد».

وهكذا استقرت الأسرة في هذا الركن المنعزل من نهاية العالم، وفي منطقة موبوءة بحمى الملاريا، تنتشر فيها الكلاب المتوحشة، وقد استقروا وعاشوا هناك بروح تتجلى فيها البساطة والرضاء بالأمر الواقع.

واستغرق تروتسكي في دراسة الجغرافية والتاريخ والاقتصاد الآسيوي، وقد ظهرت صورة لتروتسكي وزوجته في المنفى، الزوجة تضع يدها على كتف ابنها وتنظر في نفس الوقت إلى زوجها بعينين تملؤهما الثقة التي لا حد لها.

واستفاد تروتسكي من تجارب النفي الماضية، تلك التجارب التي كانت تساعده على التخلص من القيود المفروضة على المنفيين، ولكن ستالين كان يعرف تلك الحيل التي سبق له هو نفسه أن استعملها، كما أنه كان يعرف جيدا أن الخمسة آلاف كيلو مترا التي تفصل تروتسكي عن العاصمة الروسية ليست مسافة كافية، وأنه لا يمكن أن يطمئن إلا إذا غادر عدوه البلاد.

ولذلك لم ينقض عام واحد على نفي تروتسكي حتى تلقى مرسوماً ينبئه بأنه قد تقرر إبعاده إلى تركيا؛ لأنه قد تآمر ضد الاتحاد السوفيتي.

وكانت رحلة شاقة في شهر يناير، اجتاز فيها المبعدون نفقا في الجبال، ومسالك وعرة، وقطعوا فيها نحو ٦٥٠٠ كيلو مترا في عشرين يوما، حتى انتهى بهم المطاف أخيرا إلى البحر الأسود، وهناك وجدوا الناقلة التي أعدت لهم عاجزة عن الحركة بسبب الثلوج التي كانت تحيط بها من كل ناحية في البحر. وكان لابد من الاستعانة بمحطة جليد حتى يمكن للمنفيين استئناف الرحلة إلى القسطنطينية.

ولما تسلم ستالين تقريرا ينبئه برحيل تروتسكي نهائيا شعر براحة

شديدة، وأحس كأن الثلوج التي كانت تحيط به هو أيضا قد تحطمت، وأن في وسعه أن يبدأ عمله الإنشائي.

وبينما كان ستالين يقرأ التقرير استرعى نظره في الجزء الأخير اسم جعله يتوقف لحظة عن الاستمرار في القراءة ويقطب حاجبيه، فقد وقعت عيناه على اسم الباخرة التي أقلت تروتسكي وقادته إلى خارج روسيا.

لقد كان اسم الباخرة: لينين!

وأهم ما اتهم به تروتسكي ستالين هو أنه نبذ الثورة العالمية في سبيل «الاشتراكية في دولة واحدة»، ولكن الأمر لم يكن كذلك؛ فإن ستالين لم ينبذ الثورة العالمية، وتروتسكي لم يرفض فرصة بناء الاشتراكية في روسيا.

وكان ستالين يحاول أحيانا الترويج للثورة بوسائل كان تروتسكي يصفها بالاستهتار والمغامرة، وحدث أحيانا أن تروتسكي كان يتعجل بناء الاشتراكية في روسيا بخطوات كان ستالين يعتبرها خطوات طائشة تؤدي إلى النكبات، وكلما ازدادت شقة الخلاف اتساعا ثبت الرأيان ثبوتا راسخا أكثر فأكثر، ففي النظام الستاليني كان إنشاء الاشتراكية في روسيا هو المقدم وتليه الثورة العالمية، أما في نظام تروتسكي فقد كان الأمر هو العكس.

إلا أن الخلاف بين الرجلين كان جوهره الخلاف في الطبع لا في النظريات. كان تروتسكي يعتقد أن أوروبا قد «نضجت للثورة»، والثورة الروسية من وجهة النظر هذه ما هي إلا مقدمة لثورة أعم كثيرا؛ ذلك أن تحقيق البناء الاشتراكي في روسيا وحدها يعد قليل القيمة إذا قورن بما يمكن تحقيقه بسياسة اقتصادية اشتراكية توضع على أساس أوروبي.

على أن ستالين لم يشاطر تروتسكي تفاؤله أبدا فيما يتعلق «بنضوج» أوروبا للاشتراكية، وقدر أن قوة المقاومة في النظام الرأسمالي ما زالت عظيمة جدا.

أما ستالين فإن طراز الاشتراكية الخاص به كان عنده أهم بكثير من احتمال قيام الاشتراكية في الغرب، وقد رفض أن يعتبر روسيا قائمة على محيط الحضارة الغربية.

وكان مؤمنا بأنها أعدت لتكون حصن النظام الاشتراكي الجديد.

لقد كان هو الخلاف القديم بين المحبين للجنس السلافي بإيمانهم بعبقرية روسيا النوعية، والميالين إلى الغرب بإيمانهم بما تستطيع أوروبا أن تمدهم به.

وقد نشبت الحرب بين هؤلاء وأولئك في أعقاب الثورة.

وقد اضطرت روسيا بعد سنة ١٩٢١ أن تتبع سياسة مزدوجة، فقد استلزم التعمير الداخلي من ناحية عقد اتفاقيات مع الدول الرأسمالية، في حين أنها من ناحية أخرى راحت تعمل بوصفها زعيمة الكومنترن على قلب نظام الحكم في تلك الدول، وقد تحايل لينين خلال حياته على حفظ التوازن بين السياستين، ولكن اعتلال صحته اضطره في ربيع سنة ١٩٢٣ إلى أن يعتزل الإشراف الفعلي. ولما مات في يناير سنة ١٩٢٤ أول سلطانه إلى زينوفييف وكامينيف وستالين.

وفي سنة ١٩٢٣ برز تروتسكي في المعارضة، وكان حديث عهد بالحزب، فلم يكن زعماء الصف الأول من البلاشفة يعتبرونه واحدا منهم، وكان يذهب إلى أن حكم الدولة إنما كان في أيدي رجال كان سجل أعمالهم- كمعارضين للثورة- كافيا لتفسير فشل الثورة في ألمانيا وفي كل مكان، ولذا فقد حُرم من منصبه كوزير للحرب في سنة ١٩٢٥،

ولكنه عاد في سنة ١٩٢٧ إلى الهجوم وقد أصبح يؤيده آخرون من زعماء الحزب، فحمل على سياسة ستالين الخارجية على أساس أنه أحل محل الماركسية مذهب «البورجوازية الدنيا»، أو رفع الطبقة الدنيا إلى مستوى الطبقة الوسطى في «اشتراكية الدولة الواحدة»، ولا داعي لأن نصدق أن تروتسكي كان خليقا بأن يكون أكثر توفيقا من ستالين في تحقيق الثورة لسبب بسيط؛ هو أنه ما من دولة من الدول الغربية لم تنشد الثورة كما تجلى عندما أعاد الألمان الذين كانوا أكثر الغربيين ميلا للثورة إلى الحكم في أول انتخابات بعد الحرب حكومة اشتراكية ديموقراطية معتدلة بأغلبية ساحقة، كذلك لم يكن تروتسكي- كما رأينا- محقا في اتهامه ستالين بالتخلي عن قضية الثورة العالمية.

ومع ذلك فإن سياسة ستالين أثرت في هذه القضية دون شك؛ فقد قام الحزب الشيوعي الروسي حتى سنة ١٩٢٤ بدور هام في الكومنترن[1]، ولكنه لم يكن دورا متسلطا، ومن سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٩ كشفت سياسة الكومنترن عن سياسة سلسلة من التكتلات المعارضة الداخلية كانت في البداية ضد تروتسكي ثم ضد بوخارين وراديكوف.

وكان المؤتمر السادس في سنة ١٩٢٨ آخر مؤتمر أبيح فيه أي تباين في الرأي؛ ففي سنة ١٩٢٩ عين ستالين كلا من مولوتوف ومانويلسكي وكوزيف للإشراف على جهاز الكومنترن، وأصبحت سياسته من ذلك الحين تمليها المصالح الروسية التي كان السعي إلى تنميتها هو عماد الثورة العالمية المقبلة، ولم يكن للمناقشات العامة أي دور في تحديد سياسة المؤتمر السابع والأخير في سنة ١٩٣٥، وهو المؤتمر الذي دعى لإذاعة انقلاب في

(١) ..... الكومنترن حركة أسست بروسيا عام ١٩١٩ وحلت هذه الحركة عام ١٩٤٣ لتهدئة مخاوف حلفاء روسيا في الغرب.

السياسة قررته موسكو فعلا وبدأت تنفيذه في بعض الحالات.

وكان تشجيع الحركات الثورية في الدول الأجنبية أو وقفها يتم وفقا لمدى تمشيها مع السياسة السوفييتية ودونما كبير اعتبار لمصير أولئك الذين كانوا مسئولين عنها...

بينما دعى جيل كامل تقريبا من «الثوريين القدامى» إلى موسكو؛ حيث أجريت بينهم حركة تطهير عندما قرر ستالين في سنة ١٩٣٥- حين واجهته مسألة استفحال نفوذ ألمانيا- أن يدعوا إلى إيقاف الثورة في سبيل سياسة «الجبهة الشعبية».

وظلت سياسة المؤتمر العشرين متبعة حتى توقيع ميثاق «ستالين»- «هتلر» في أغسطس سنة ١٩٣٩ حين تخلى الكومنترن عن صراعه ضد الفاشية، ومن ثم أطلق على الحرب عندما أعلنت وصف «حرب استعمارية»، ثم غير الهجوم الهتلري من موقف الاتحاد السوفييتي؛ إذ دفع روسيا إلى التحالف مع الديموقراطيات الغربية.

وعلى ذلك أصبح الكومنترن- الذي لم يكن ستالين يثق به ثقة عظيمة- عقبة مطردة الاستفحال، فتم حله في يونيه سنة ١٩٤٣ بمرسوم نص على أن الكومنترن قد استوفى غرضه أو أوجد حركة عالمية بروليتارية- أي: قوامها العامة أو الدهماء- بلغت في ذلك العام سن رشدها. ولم يشر المرسوم إلى السياسة الثورية التي عمل الكومنترن على تنميتها، والتي ظلت دون تبديل، في حين أن إلغاء المنظمة المركزية التي حددت ما اعتبر- ولو من الناحية النظرية على الأقل- سياسة عامة جعلت الاتحاد السوفييتي أكثر حرية من ذي قبل في رسم الخطة التي كان على أي حزب شيوعي معين أن يسلكها.

ستالين والقضاء على المعارضة وإبادة المعارضين؛

مات لينين في ٢١ يناير من عام ١٩٢٤، وبدأ ستالين يتطلع إلى الاستئثار بالسلطة دون شريك، ومرت روسيا في هذا الوقت بفترة هادئة هي الفترة التي كان ستالين يمهد الطريق فيها لنفسه، ويتخلص فيها من معارضيه واحد بعد الأخر حتى يتم له ما يريد.

ووجد ستالين في البوليس السري الروسي خير مساعد للتخلص من المعارضين، والتجسس على غيرهم ممن يشتم فيهم عدم الإخلاص لزعامة ستالين أو رئاسته التي يمهد لها.

وبدأت بعد ذلك حملته على تروتسكي فاتهمه بأنه يعمل على إثارة الحرب الأهلية في روسيا وذلك «بمشروعاته الجنوبية» لفرض التصنيع الإجباري؛ وبدقه الطبول تحريضا على قيام الثورة العالمية مما سيكون من شأنه تعريض موقف روسيا للخطر، وادعى ستالين عندئذ أن تروتسكي شديد التعلق بوسائل الذعر والإرهاب وأساليبها، وسر كثيرون عندما سمعوا ذلك؛ لأنهم فهموا منه أن ستالين لا يقر الوسيلة التي أقمع بها تروتسكي ثورة البحارة والعمال في كرونستات.

وقد انتهى الأمر بإبعاد تروتسكي إلى القسطنطينية في عام ١٩٢٨، وسبق ذلك طرده من الحزب الشيوعي في نفس العام، وفي عام ١٩٣١ سمح لتروتسكي بالسفر إلى إسبانيا، ومن هناك سافر إلى دول الشمال «إسكندينافيا»، وأخيرا استقر في مكسيكو حيث قُتل بتحريض ستالين في يوم ٢٩ أغسطس من عام ١٩٤٠ بيد فرانك جاكسون على مقربة من مكسيكو سيتي.

وعند وفاة لينين في عام ١٩٢٤ كان الطامعون في مركزه أربعة أشخاص، هم: ستالين، وتروتسكي، وزينوفييف، وكيمينيف، فقد كان كل

منهم بطلا في الثورة ومساعدا للينين، وقطبا في الحكومة.

بيد أن ستالين كان أوفر حظا من زملائه بعد أن طوى الموت زعيمهم رغم أنه في العام السابق كان لينين قد كتب يقولك: «إن ستالين ركز قوة هائلة بين يديه». وأضاف إلى ذلك قوله: «وستالين رجل فظ، وهذا العيب ليس مقبولا فيمن يتولى منصب السكرتير العام، وإن كان من الصفات اللازمة في العلاقات بين الشيوعيين، ومن ثم أقترح على الرفاق أن يهتدوا إلى وسيلة لإقصاء ستالين عن هذا المنصب».

وبعد أربعة أعوام انتهى الصراع على الخلافة بانتصار تام لستالين...

ويرجع الفضل في انتصاره إلى أنه فعل ما فعله لينين في سنة ١٩١٧، وإلى أنه لم يكن يقل عنه كفاءة وبراعة في مزج الخطط العملية بالمذهب البلشفي نفسه، ثم أنه كان يشغل منصبا قويا يمكنه من تنفيذ خططه؛ هو منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي.

والواقع أن لينين كان قد وضع الخطة التي ينبغي أن تنفذ في مثل هذه الحالة؛ إذ قال: «إذا كان هناك خمسة أطراف فأنضم إلى ثلاث لسحق الخامس، ثم تعاون مع اثنين من الباقين لإزالة الرابع، ثم أيد أحد الاثنين الباقين للتخلص من الثالث، وعندئذ لن يبقى سوى خصم واحد يسهل القضاء عليه».

ولقد تعاون ستالين بادئ بدء مع زينوفييف وكيمينيف، مندوبي الحزب في لييننجراد وموسكو، ضد تروتسكي الذي كان يبدو في بداية الأمر أقوى المنافسين الأربعة، وبعد انقضاء عام واحد على وفاة لينين كان ستالين قد انتصر على تروتسكي ثم تحول إلى الاثنين الآخرين اللذين شرعا يقتديان بتروتسكي ويدعوان إلى تعزيز الاشتراكية وتوسيع حركة التصنيع، وإشعال الثورات في الخارج، وإلى مزيد من حرية القول.

أما أتباع تروتسكي وأنصاره في روسيا فقد تحدث عن مصيرهم وعما لاقوه خروشوف السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي في خطابه الذي ألقاه في يومي ٢٤ و ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٦ بالمؤتمر العشرين الذي عقده الحزب؛ إذ قال:

في الوقت الحاضر، وبعد أن انسلخت من التاريخ فترة طويلة من الزمن، نستطيع أن نتحدث عن المعركة التي خاضها الحزب ضد أتباع تروتسكي حديثا هادئا، كما نستطيع أن نحلل هذه المعركة تحليلا موضوعيا دقيقا، وينبغي أن نقول بادئ ذي بدء: إن بعض الذين التفوا حول تروتسكي كانوا ينحدرون من مجتمع لا يمكن أن نسميه بأية حال من الأحوال مجتمعا بورجوازيا؛ فبعض هؤلاء الأتباع كانوا من طبقة الحزب المثقفة، كما كان البعض الآخر من صميم الطبقة العاملة.

وفي وسعنا الآن أن نذكر أسماء أفراد كثيرين انضموا إلى جماعة تروتسكي، ولكنهم في الوقت نفسه ساهموا بنشاط في الحركة العمالية التي سبقت الثورة، كما ساهموا في ثورة أكتوبر الاشتراكية نفسها، وفي تدعيم نجاح هذه الثورة الكبرى، بل إن كثيرا منهم خرجوا على مبادئ تروتسكي واستعادوا إيمانهم بمبادئ لينين.. فهل كان من الضروري إذلال هؤلاء الأشخاص؟ إننا على يقين من أن هؤلاء الأشخاص ما كانوا ليقعوا ضحية إجراءات تعسفية لو أن لينين كان لا يزال على قيد الحياة.

وهكذا تمكن ستالين في عام ١٩٢٨ من القضاء على عناصر اليسارية التروتسكية، وما كاد يقضي عليها حتى أخذ في تنفيذ برنامج تروتسكي نفسه فيما يتعلق ببرنامج التصنيع الإجباري والتأميم ونشر الشيوعية الدولية.

وكان من نتائج تنفيذ هذه السياسة القضاء على طبقة «الكولاك»؛[1]

---

(١) ..... طبقة الفلاحين الأثرياء.

وذلك عندما تبين أن ٢٪ فقط من الفلاحين قد لبوا الدعوة إلى الزراعة الجماعية، فأصدر أمره بالتنكيل بالكولاك ونفيهم إلى سيبيريا، وما إن وافت سنة ١٩٣٢ حتى كان أكثر من ٨٠٪ من الأراضي قد صار خاضعا في زراعته للطريقة الجديدة.

وقد قامت بعض النزاعات في داخل الحزب الشيوعي الروسي في الأعوام الواقعة بين ١٩٢٩ و ١٩٣٤، وبدا بعض التذمر بين الناس، وإن لم يكن بدرجة خطيرة، وقد ظهر أنه لم يكن من الممكن تنفيذ السياسة الصناعية والزراعية الجديدة، وهي سياسة فيها مبالغة كبيرة للخطوط التي كان قد رسمها وأوصى باتباعها تروتسكي.. نقول: إنه ظهر أنه لم يكن من الممكن تنفيذ هذه السياسات تحت قيادة بوهارين وتومسكي وريكوف.

وفي صيف عام ١٩٢٨ بدت بوادر الخلاف بينهم وبين ستالين، وحدث في شهر يوليو من ذلك العام أن قابل بوهارين كامنيف، وكان كامنيف مغضوبا عليه، وأبدى بوهارين لكامنيف استنكاره لسياسة ستالين وأساليبه.

وفي الجلسة العامة التي عقدتها اللجنة المركزية للحزب في شهر نوفمبر عرضت آراء بوهارين الخاصة بالسياسة الاقتصادية فرفضت قبولها ووصمتها بالانحراف والمهادنة.

وفي شهر يناير من عام ١٩٢٩ عرف سر الحديث الذي دار بين بوهارين وكامنيف للمسئولين، فعزل في شهر فبراير من منصب رئيس تحرير جريدة «برافدا»، وفي نفس الوقت طرد تومسكي من عضوية اتحاد النقابات بعد أن عزل أولا من منصب الرئاسة.

وفي شهر يوليو طرد بوهارين من مكتب الكومينترن، وتقرر سحب

كتبه ومؤلفاته التي نشر فيها نظرياته من السوق، وفي شهر نوفمبر طُرد من المكتب السياسي.

ويلاحظ أن الزعماء «اليمنيين» الثلاثة لم يكن لهم أي نفوذ في داخل الحزب، بخلاف المعارضة «اليسارية» التي قامت في عام ١٩٢٦؛ ولذلك فإن أملهم في التمكن من معارضة ستالين أو الوقوف في وجهه كان معدوما، وربما كان هذا هو السبب فيما ظهر من الرفق في معاملتهم في الأعوام التالية، واستمر المسئولون في استشارتهم في السياسة الاقتصادية والمشاكل الإدارية.

وهكذا استتب الأمر لستالين، وأصبحت زعامته كاملة تامة لا يمكن أن تلقى أي معارضة أو تجد من داخل الحزب، وقد ظهرت في الأعوام التالية بعض حركات المعارضة، ولكن الستار أزيح عنها بسهولة، لم يكن قادة هذه الحركات الذين أصدروا منشورات ينتقدون فيها ستالين من أتباع زينوفييف، ولا من أتباع كامنيف، ولكنهم كانوا ممن عرفوا بأنهم أذناب السكرتير العام، ومع ذلك فقد اتخذت العقوبات التي أنزلت على مدبري هذه المنشورات ذريعة لنفي زينوفييف وكامنيف إلى سيبيريا من أكتوبر سنة ١٩٣٢ إلى مايو سنة ١٩٣٣، ولتوجيه اللوم الشديد إلى زيكوف وتومسكي.

وتميز عام ١٩٣٤ بتحسن الأحوال الاقتصادية، وتخفيف حدة الضغط السياسي، وكان أمل الحصول على نظام مخفف القيود مقترنا باسم كيروف سكرتير الحزب عن دائرة لينجراد، وكان في ذلك الوقت هو الرجل الثاني في الدولة بعد ستالين، ولكن حدث في ديسمبر من عام ١٩٣٤ أن قتل كيروف هذا، ولم يكشف قط عن الظروف الغامضة التي أحاطت بهذه الجريمة، وكان طبيعيا أن ينسبها ستالين إلى تروتسكي

وزينوفييف في حين اتهم التروتسكيون ستالين بمقتل كيروف.

أما الرواية الثالثة، وقد تكون أقرب الروايات إلى الصحة؛ فهي أن مقتل كيروف كان نتيجة بغضاء شخصي.

وقبض على زينوفييف وكامنيف بعد ارتكاب هذه الجريمة، كما قبض على بعض أتباعهما المعروفين وأتباع تروتسكي، وعلى عدد كبير من عمال مصانع لينجراد. وفي يناير من عام ١٩٣٥ قدم زينوفييف وكامنيف للمحاكمة السرية أمام محكمة تتكون بوليس أمن الدولة، وحكم عليهما بالسجن لمدة طويلة، واتخذت بعد ذلك إجراءات مشددة للمحافظة على الأمن، كما شددت الرقابة على أعضاء الحزب، ولكن مع ذلك ظل عدد المقبوض عليهم محدودا.

وفي عام ١٩٣٦ كان ستالين يفكر في تخفيف بعض القيود التي تحيط بالنظام، وأراد أن يختبر الرأي العام، فاتخذ الإجراءات لتنظيم مناقشات ومناظرات عامة بين الجماهير حول مسألتين كانتا تشغلان الرأي العام وقتئذ وهما: مشروع الدستور الجديد، ومشروع القانون الخاص بحظر الإجهاض.

ولم تكن نتيجة الاستفتاء مشجعة لستالين على السير في سياسة تخفيف القود؛ فقد ظهر أن الرأي العام معارض بشدة لقانون حظر الإجهاض، كما أن الاستفتاء في المؤتمرات الحزبية التي عقدت في موسكو ولينجراد أثبت أن عدد كبيرا من الأصوات قد جاء ضد أعضاء المكتب السياسي، بل وضد ستالين نفسه، ولكي يبرر ستالين هذه الهزيمة أخذ يبحث عن أسبابها بين العناصر المناهضة للثورة، ولما لم يكن في وسعه اتهام زينوفييف وكامنيف وأتباعهما بعد أن زج بهم جميعا في السجون، فقد وجه الاتهام إلى بوهارين وتومسكي وريكوف، ولم يكن

الغرض من اتهام هؤلاء الثلاثة هو إبرازهم في مظهر المعارضين لسياسة ستالين فقط، ولكن في مظهر المتآمرين على إبعاده عن السلطة.

وقدم زينوفييف وكامنيف وأنصارهما للمحاكمة العلنية في أغسطس من عام ١٩٣٦، فاعترفوا بأنهم ألفوا في عام ١٩٣٢ «جبهة» بالاشتراك مع التروتسكيين الموجودين في روسيا، وأنهم تلقوا تعليمات من تروتسكي في الخارج، واعترفوا علاوة على ذلك أنهم فكروا في قلب الحكومة، وفي قتل ستالين، وأنهم هم الذين دبروا مقتل كيروف.

وفي يناير من عام ١٩٣٧ بدأت محاكمة فريق آخر من زعماء الشيوعيين، كان من بينهم بياتكوف وراديك وسربرياكوف، واعترف هؤلاء أيضا بأنهم دبروا مؤامرة لقتل ستالين وغيره من زعماء الحزب، وأنهم ألفوا جبهة «تروتسكية بوهارينية»، ونظموا أعمال التخريب في حوض الدونتس، والأورال، وسيبيريا، وموسكو.

وقد اعتمد الاتهام في هذه القضية على «اعترافات» المتهمين وشهادة غيرهم من المقبوض عليهم، ويمكن القول إن الاتهام لم يكن قائما على أساس؛ فقد قرر تروتسكي أنه منذ عام ١٩٢٨ لم تكن له أي علاقة بزينوفييف وكامنيف، كما لم تكت له علاقة بأحد من أتباعه؛ لأنهم جميعا سلموا لستالين، بل إن راديك نفسه الذي قدم في هذه القضية على أنه من أتباع تروتسكي كان من ألد أعدائه؛ بدليل أنه قتل صديقا من أخلص أصدقاء تروتسكي وهو بلومكين.

وقد هزت قضية هذه المؤامرة أوروبا كلها عندما أذيع أنها كانت تستهدف القضاء على شخص ستالين وعهده كله...

وصدر الحكم بالإعدام ضد المتهمين جميعا، وفي مقدمتهم زينوفييف وكامنيف وساياكيف، وحاول بعضهم أن يتنصل من التهمة ويلقيها على

غيره، حتى قال أحدهم عن نفسه وعن زملائه: لقد كنا كلابا للفاشيست!

وأكد بعضهم للمحكمة، والدموع تتساقط من عيونهم، أنهم يحبون ستالين ويقدرونه.

أما كامنيف نفسه فلم يقل أكثر من أن عريضة الاتهام التي تقدم بها النائب العام إلى المحكمة ليس فيها إلا الحق والصدق، ثم أثنى وهو يبكي على ستالين!

وهكذا صدر الحكم بالإعدام بعد أن قرر المتهمون كلهم أنهم مذنبون، واعترفوا بأنهم نادمون على جريمتهم!

وعلق تروتسكي وقتئذ- أي: في أغسطس من عام ١٩٣٦- على هذا الحكم فقال: إن البوليس السري الروسي «الأوجبيو» هو الذي ألزم المتهمين بالاعتراف كذبا بعد أن وعدهم بأنهم سينجون بأرواحهم بهذا الاعتراف الكاذب...

ولما اعترفوا تخلى عنهم البوليس!

وعرف كثيرون بعد ذلك أن المؤامرة الموهومة التي راح ضحيتها ستة عشر شخصا لم تكن سوى رواية تمثيلية أخرجت بإتقان، وكان هدفها تخلص ستالين من بعض أعدائه، أو من بعض الذين يشك في إخلاصهم، ويخشى ما قد يتسبب له بسببهم في المستقبل.

وقد لاحظ بعض الذين شهدوا المحاكمة أن الأشقياء الستة عشر كانوا يعترفون أثناء المحاكمة كأنهم بلا إرادة ولا رأي... فقد وقفوا أثناء المحاكمة، لا للدفاع عن أنفسهم أو عن تصرفاتهم، ولا لطلب الرحمة، ولكنهم وقفوا يطلبون الموت... وكانت أمنية كل واحد منهم كما عبر عنها في الحكمة هي: «أن يرى الطبقات العاملة قبل أن يموت، وقبل أن يكفر بحق عن الخيانة التي ارتكبها».

فهل يمكن أن يتصرف رجل عاقل يتحكم في قواه العقلية بهذا الشكل وهو يعلم أن مصيره الموت على أي حال من الأحوال؟

وكان من جاء ذلك أن انتشرت الشائعات المختلفة، حتى لقد ذهب البعض إلى حد القول بأن التنويم المغناطيسي قد استعمل وسيلة للتأثير على هؤلاء المتهمين الأبرياء، وأن «المنوم المغناطيسي» هو الذي أثر عليهم التأثير وأمرهم بالإدلاء بهذه الأقوال في المحكمة، فامتثلوا لأمره.

بل ذهب البعض إلى أبعد من هذا فقال: إن ستالين تمكن بواسطة أطبائه من اختراع دواء يفقد كل من يشربه إرادتـه.. وأن المتهمين لا شك تجرعوا هذا الدواء، وهو الذي جعلهم يعترفون في المحكمة بما اعترفوا به!

ولكن الواقع هو أن البوليس السري كان يتولى بنفسه ترتيب كل شيء، و«تنظيم» عملية المحاكمة والاعتراف...

ويجدر بنا وقد تعرضنا هنا «لاعترافات» المتهمين في هذه القضايا أن نسجل ما جاء في خطاب خروشيشيف الذي فضح أساليب ستالين خاصا بهذا الموضوع؛ إذ قال: بدا تجبر ستالين على الحزب واللجنة المركزية واضحا وضوحا كاملا عقب المؤتمر السابع عشر الذي عقده الحزب في عام ١٩٣٤.

فقد حصلت اللجنة المركزية على معلومات كثيرة في هذا الصدد تكشف عن تجبر ستالين حيال بعض أعضاء الحزب القدامى المجاهدين، ومن ثم شكلت لجنة تخضع لرقابة المجلس الأعلى للجنة المركزية مهمتها التحقيق في حقيقة الأسباب التي أدت إلى اتخاذ إجراءات قمع جماعية ضد معظم أعضاء اللجنة المركزية السابقين، وضد أعضاء انتخبوا في المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي.

ولقد وقفت هذه اللجنة على قدر كبير من المعلومات التي تضمنتها ملفات إدارة البوليس السري، كما وقفت على وثائق قد تتضمن حقائق كثيرة عن تلفيق بعض القضايا ضد شيوعيين مخلصين، وعن اتهامات زائفة وجهت إليهم، وعن سوء استغلال للشرعية الاشتراكية، وهي كلها مثالب أطاحت بعدد من الأبرياء.

ولقد كشفت هذه الوثائق والمعلومات عن حقيقة واضحة هي: أن كثيرين من أعضاء الحزب، ومن العناصر التي كانت تتولى الترويج للشيوعية في الحقل الاقتصادي، اتهموا زورا وبهتانا بأنهم «أعداء الشعب» في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ مع أنهم كانوا دائما شيوعيين مخلصين، ولم يكونوا قط في يوم من الأيام أعداء أو جواسيس أو خونة، ولكنهم حينما وجدوا أنفسهم متهمين بارتكاب جرائم مشينة لم يرتكبوها، وحينما عجزوا عن احتمال التعذيب الوحشي الذي تعرضوا له، اتهموا أنفسهم تنفيذا لأوامر القضاء والمحققين والمزيفين بارتكاب كل ما يجول في الخاطر من جرائم خطيرة وغير معقولة.

كل هذه المعلومات وقعت في أيدي اللجنة التي تبحث في تلك المآسي، وقد رفعت اللجنة إلى المجلس الأعلى للجنة المركزية مذكرات ووثائق مستفيضة تكشف عن القمع الجماعي الذي تعرض له المندوبون للمؤتمر السابع عشر وأعضاء اللجنة المركزية الذين انتخبوا أثناء انعقاد ذلك المؤتمر.

وقام المجلس بدراسة هذه المذكرات والوثائق، ويبين من تلك الوثائق أن من بين المائة وتسعة وثلاثين عضوا الذين انتخبوا في المؤتمر السابع عشر ثمانية وتسعين (أي نحو ٧٠٪) اعتقلوا وأعدموا رميا بالرصاص خلال عامي ١٩٣٧ و ١٩٢٨ على الخصوص.

وكتب أندريه جيد الكاتب الفرنسي المشهور- وكان قد زار روسيا ي عام ١٩٣٦- أنه لاحظ أن البوليس السري قد اشتد نفوذه في البلاد، واتخذ لنفسه سلطات جديدة، أو على الأصح سلطانا عرفيا لا يعرف قانونا، ولا يوقر قضاء، ففي شهر يناير من عام ١٩٢٨ قبض على ليون تروتسكي وأبعد إلى آسيا الوسطى، وكانت جريمته هي خلافه السياسي مع ستالين، وكانت هذه المشاورات والخصومات قبل الثورة، وفي عهد زعامة لينين تعرض على الحزب الشيوعي وهو وحده الذي يفصل فيها عن طريق المناقشات واخذ الآراء، أما الآن فقد أصبح المسدس في يد البوليس السري هو الحكم الفيصل.

وشبه أندريه جيد استخدام البوليس في إنهاء كل نزاع على السياسة بأنه كان «واترلو» الحزب، أو المعركة الفاصلة التي انهزم فيها بغض النظر عما إذا كان الحق في جانب ستالين أو في جانب تروتسكي.

ويقول: «لقد استتبع الاستعانة بالبوليس على هذا النحو اعتقاد الذين أوتوا القوة في أيديهم أنهم قد أوتوا معها الحكمة، فلم يسع المخالفين لهم إلا أن آثروا السلامة على المجاهرة بالرأي، ولم يلبث خراب الذمم أن انتصر على الأمانة والنزاهة والصدق.

ولم تغب عني هذه الظاهرة وقتئذ، وإنما غاب عني إذ ذاك أنها بداية التدهور الذي أثمر اليوم هذا المين والإفك الذي نراه، وأدى إلى هذا الصمت السائد الذي نشهده، ولم يكن بد أيضا من أن تساعد هذه الظاهرة على ظهور الزعيم».

وقد ذكر خروشوف في خطابه التاريخي المشهور أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي وهو يهاجم استبداد ستالين:

لم يحدث خلال المعركة الفكرية العنيفة التي شنها الحزب على أنصار تروتسكي وزينوفييف وبوخارين وغيرهم أن اتخذت إجراءات قمع

متطرفة؛ ذلك لأن هذه المعركة كانت مستندة إلى أساس فكري، ولكن حدث بعد ذلك ببضع سنوات عندما وضع البناء الأساسي للاشتراكية في بلادنا، وعندما تلاشت الطبقات المستغلة تدريجيا، وعندما أدخلت تعديلات جوهرية أساسية على البناء الاشتراكي السوفييتي، وعندما أخضعت العناصر المناهضة للحزب الآراء السياسية والاجتماعية المعارضة لفلسفة لينين... عندما تم ذلك كله بدأت إجراءات القمع توجه ضد هؤلاء الأعداء.

نعم، بدأ القمع بعد ذلك... ففي خلال الأعوام ١٩٣٥ و ١٩٣٧ و ١٩٣٨ بدأت عمليات القمع بواسطة الجهاز الحكومي، بدأت ضد أعداء فلسفة لينين أولا، ثم ضد أتباع تروتسكي وزينوفييف وبوخارين، مع أن هؤلاء كانت قد حاقت بهم هزيمة سياسية كبيرة على يد حزبنا... ثم بدأ القمع يوجه ضد عدد كبير من الشيوعيين المخلصين، وضد بعض القادة المجاهدين الأوائل الذين تحملوا مرارة الكفاح أثناء الحرب الأهلية، وأثناء الكفاح من أجل التصنيع، وتطبيق نظام المزارع الجماعية، الذين حاربوا بقوة ضد أتباع تروتسكي واليمنيين من أجل نصرة الحق.

الفصل الخامس

ستالين واللينينيه

كان واضحا أن ستالين كان ينادي عندما تولي زمام الأمور باللينينية مذهبا فهل استمر في ذلك للنهاية أم تغيرت أفكاره بعد ذلك؟

إن الماركسية بفرض أنها نظرية لها قيمتها في نتاج التفكير الغربي، فإن الواقع أن التهمة الرئيسية التي يمكن توجيهها إلى كارل ماركس بوصفه ثوريا دوليا هي أنه فكر في الثورة في حدود قصرها قصرا شديدا على الأحوال السائدة في الغرب.

وقد سار الروس على هديها في حماسة، فقد كفلت لهم الشيئين اللذين كانوا في أشد الحاجة إليهما: الثقة، والنظام. إلا أنه كان يعوزهم دائما لسوء الحظ الشعور بالنسبية، فاعتنقوا المذهب في يقين صلب لا يلين، حتى إنهم بمرور الزمن أحالوه إلى قانون متحجر جامد زعموا أنهم وحدهم القادرون على تفسيره تفسيرا صحيحا.

وقد كان رسل الشيوعية الأربعة هم: ماركس، وأنجلز، ولينين، وستالين، وإن مؤلفاتهم هي وحدها التي كان لها السلطان دون أن تضاف إلى هذه الشريعة أية مؤلفات أو أعمال أخرى، وقد قسم هؤلاء الرسل إلى قسمين، فاختص ماركس وأنجلز بوضع أساس النظرية الشيوعية ومزاولتها في القرن الماضي، بينما اختص لينين وستالين بتطبيق مبادئها على الأحوال الجديدة التي نشأت في القرن الحالي، وقد أدخل لينين تحسينات على الماركسية في أكثر من ناحية، ولكن يصح من

الناحية العامة القول بأن أهم ما عمله في هذا السبيل كان في ميدان التنظيم الحزبي والتكتيك، أما ستالين فكان أهم ما أقام به نظريته التي تقول: «الاشتراكية في وطن واحد». بكل ما توحى به هذه النظرية.

وما قيل عن لينين بوصفه ممَنْ يهتمون بالأمور النظرية يصح أن يُقال عن ستالين؛ فقد كان كلاهما مدفوعين إلى توجيه النظرية الماركسية توجيها جديدا.

وكما أن لينين كان يرجع إلى ماركس، فكذلك ستالين كان حريصا كلما دعته الحال إلى الاستشهاد بلينين، فليس من قبيل الصدفة أنه أطلق اسم «اللينينية» على المجلد الذي يحتوي على أهم كتاباته وتصريحاته.

على أنه ثمة خلاف بين الرجلين؛ فإن لينين عندما اضطر بحكم ظروف لم تكن في الحسبان إلى الأخذ بسياسات ما كان ليشير بها لولا تلك الظروف، وصفها بأنها إجراءات مؤقتة، واحتمى وراء حجة «الضرورة القاسية»، بينما كشف ستالين عن هذه السياسات في وضح النهار وأكره الحزب على قبولها بوصفها تطبيقات صحيحة للمذهب الرسمي.

وقد عجل لينين بهذا الإجراء؛ ذلك أنه شعر بالحاجة إلى أن يستمد من الماركسية المبرر على كل ما كان يفعله باسم الثورة، وكان هدف الماركسيين الغربيين دولة من الطبقة العامة يتعلم فيها الناس وقد تخلصوا من أغلال الرأسمالية، كيف ينظمون الإنتاج للصالح العام إلا أن ثورة أكتوبر لم تحقق هذا الهدف؛ لأنها لم تكن «عمالية» إلا بالمعنى الذي أضفاه عليها لينين الذي عرف الطبقة العاملة بأنها هي الحزب بوصفه طليعة الجماهير، وذلك القسم منها الأشد وعيا، وقد ترتب على هذا أن زعامة الحزب أضحت تعني سيطرته، وخاصة بعد ما صادف البلاد من صعاب كثيرة.

ويبدو أن لينين قد كافح في الواقع ضد هذه النتيجة التي لم يكن منها بد، وقد تكون كتاباته المريرة التي حمل فيها على كاوتسكي قد أخفت شيئا من اضطراب الضمير الذي لم يزعج خليفته، ولكن القوى التي كان قد حركها لم تظهر في الحال؛ ولذلك وقع على كتفي ستالين التعبير «بخيانة الثورة» لذا طمعت في أيامه الماركسية بالتقاليد الآسيوية البيزنطية مع العودة إلى الأتوقراطية فيما بعد، وهو نوع الحكم الوحيد الذي عرفه الروس طول حياتهم.

على أنه من الصعب علينا أن نقول: إن لينين لو كان قد عاش لاضطر أن يفعل ما فعله ستالين؛ ذلك أن النظرية التي قامت على أساسها ثورة أكتوبر كانت مركبا من المثالية السياسية والواقعية السياسية، وما إن وجد الزعماء الجدد أنفسهم وقد واجههم الموقف الذي خلقوه هم أنفسهم حتى لم يكن مفر من أن ينشر مبدأ الواقعية السياسية.

إلا أن هذا كان لابد أن يتضمن تعديل الأساس الذي يقوم عليه المذهب، ومن ثم عرفت نظرية الثورة تعريفا جديدا، وحول الحزب إلى حزب استبدادي مركزى يجمع السلطة كلها في يديه، وقلبت النظرية الكلاسيكية للدولة رأسا على عقب، ولو أن الخدمات ظلت تؤدى إليها في غير إخلاص، واتبعت سياسة زراعية كانت مخالفة لتعاليم ماركس وأنجلز، بل لتعاليم لينين نفسه وشجع نمو الشعور القومي.

وكانت سياسة «الاشتراكية في دولة واحدة» حافزا جديدا على حدوث التطورات، ولم يكن في هذه السياسة من بعض نواحيها ما يثير الخلاف؛ ذلك أن الجميع كانوا متفقين على وجوب قيام الاشتراكية في روسيا.

أما أهميتها فقد كانت فيما تضمنته وخاصة الأثر الذي يكون لتطبيقها على الثورة العالمية.

وقد ذكر ستالين في «أسس اللينينية» أن الحرب العالمية الأولى خلقت ظروفا مواتية لثورة الطبقة العاملة فجعلت هذه الثورة أمرا لا مناص منه؛ ذلك أن روسيا القيصرية كانت ذخيرة غير محددة للاستعمارية الغربية تزودها بميدان شاسع للاستثمار يتطلب جيوشا جرارة لحراسته.

ومن ثم فقد كانت روسيا «نقطة مركزة للثورة»؛ لأن متناقضات الرأسمالية كانت أوضح ما تكون فيها، ثم إنه استخدم «قانون التطور غير المتعادل» كأحد الدليلين الرئيسيين اللذين برر بهما مذهب «الاشتراكية في دولة واحدة» عندما نادى به في سنة ١٩٢٤- ١٩٢٥؛ ذلك أنه زعم أنه يجعل الرأسمالية أكثر تعرضا للهجوم بإنشائها سلسلة من الدول التي لا تتساوى في الارتقاء والتي يمكن دائما مهاجمتها في أضعف صلة من صلاتها.

ومن ثم أصبحت مناهضة الاستعمارية جزءا هاما من البرنامج الشيوعي، وكان موجها إلى توسيع الأساس الذي يقوم عليه وعي الطبقة العاملة، وفي الوقت نفسه إلى إضعاف النظام الرأسمالي بإثارة أو تأييد حركات التحرر التي تقوم بها الشعوب المتخلفة، وهي الشعوب التي كانت ضحية الاستغلال.

ولذلك أنشئت المنظمات التي لا عدد لها، والتي كانت تهز المشاعر الإنسانية تارة، أو تبذر بذور الخوف من الحرب تارة أخرى بزعمها أن الاستعمارية تسعى إليها. ثم إن تعاليم لينين قوت الاعتقاد- ويبدو أنه لا يمكن استئصاله بأن الاتحاد السوفييتي قد يصبح هو نفسه ضحية الاعتداء الاستعماري.

وهكذا وصفت الحرب العالمية الثانية بأنها «استعمارية» حين هاجم هتلر روسيا، وعندما وضعت الحرب أوزارها عاد الزعماء الروس إلى القديم وبذلوا من عنايتهم أكثر مما كانوا يبذلون من قبل.

وقد كانت ثورة لينين بوجه خاص ثورة سياسية؛ فقد قضت على النظام الإمبراطوري، كما أنها قضت على جميع الأحزاب الاشتراكية الروسية فيما عدا حزب البولشفيك، كما أنها نشرت في روسيا كلها دكتاتورية بلشفية.

ولقد حققت دون شك تغيرات اجتماعية كبيرة؛ فقد حطمت القوة الاقتصادية التي كان يتمتع بها أصحاب الأراضي ورجال الأعمال، إلا أن طبقة الغالبية في روسيا؛ وهي طبقة الفلاحين، استمرت تعيش طبقا للنظام الاجتماعي الماضي حتى بعد أن تسلمت نصيبها من الأراضي التي صودرت من أصحاب الأملاك.

إلا أن ثورة ستالين التي بدأت في عام ١٩٢٩ كانت آثارها الاجتماعية أعمق من ثورة لينين؛ فقد حطمت طبقة صغار الملاك، أو بمعنى آخر أنها قضت على الفلاح المستقل.

وخلقت صناعة جديدة كبيرة، وذلك بالتجنيد الشامل للقوى الفردية والاستغلال المنظم للطبقة العاملة.

وكانت لها أيضًا آثارها السياسية؛ إذ إنها استكملت إخضاع الحزب لإرادة ستالين، وكانت هذه المحاولة قد بدأت منذ عام ١٩٢٠.

وأخيرا فقد أثرت هذه الثورات في كل فرع من فروع الثقافة، فأخضعت الآداب والفنون والعلوم ليس فقط للرقابة السلبية التي كانت موجودة منذ عهد لينين، ولكن لتوجيه إيجابي سيطر عليها...

ولذلك يمكن القول إن نظام لينين كان نظامًا دكتاتوريًا شاملًا في حين أن نظام ستالين كان نظامًا فرديًا.

وقد بدأت ثورة ستالين كنتيجة لنقص كميات الطعام في المدن، فإن الفلاحين وقد زاد نصيبهم من الأرض عما كان عليه في عام ١٩١٧ بدءوا

يأكلون أكثر من الماضي، وكان اطراد الزيادة في عدد السكان، وتقلب الأحوال الجوية، مما يجعل تموين المدن بالمواد الغذائية غير مأمون العواقب، وكان زعماء السوفييت قد اعتزموا مستندين إلى أسباب عامة وإلى عوامل حربية تنمية الصناعة بسرعة، ولتحقيق هذا الغرض كان عليهم أن يواجهوا مشاكل الإنتاج الزراعي والتسويق.

وكان من الممكن إتباع إحدى سياستين بإزاء الفلاحين، والسياسة الأولى تتلخص في تشجيع الفلاحين على مضاعفة جهودهم مما يضاعف بالتالي إنتاجهم وبيعه بالمدن، وكانت خطة تشجيع الفلاحين على مضاعفة إنتاجهم تتطلب إمداد الأسواق ببضائع الاستهلاك حتى ولو اقتضى الأمر استيراد بعضها.

أما السياسة الثانية فقد كانت سياسة تقوم على القمع، وتتطلب مصادرة المحصولات من الفلاحين بأثمان منخفضة، كما كانت تتطلب استعمال القوة ضد أثرياء الفلاحين الذين كان يطلق عليهم اسم «الكولاك»، وكان لهذه السياسة ميزتها؛ إذ كان في وسع الدول أن تجمع ثروة كبيرة دون أن تدفع ثمنًا، وكان من مزايا هذه السياسة أيضًا توجيه ضربة قاضية لطبقة من الناس كان زعماء الشيوعيين لا يزالون يعتبرونها «الطبقة المعادية» الوحيدة الباقية التي تعتبر خطرًا على المذهب الجديد.

واختار ستالين لنفسه السياسية التي تتفق مع المذهب الماركسي، فكان لا بد من البحث عن أعداء وأكباش فداء، وانتحال أعذار؛ ولذلك فقد نسبت أزمة التموين في عام ١٩٢٧-١٩٢٨ - كما حدث فى أزمة التموين في عام ١٩١٨- إلى خيانة «الكولال». إنهم أعداء الشعب الذين يريدون أن تخضع الحكومة السوفييتية لسيطرتهم عن طريق التموين.

وكان العلاج هو إثارة حرب الطبقات في القرى، وكان الشعار هو نفسه الذي استعمل في حرب الشيوعية: اعتمدوا على فقراء الفلاحين، اكسبوا المتوسطين من الفلاحين، اعزلوا الكولاك واقضوا عليهم.

ولا شك أنها كانت أعظم سخرية في التاريخ عندما نجح ستالين في تحويل روسيا إلى ما يمكن أن يُعتبر في التاريخ دولة من أعظم الدول الرأسمالية في جميع العصور؛ فقد كان من بين تعاليم كارل ماركس أن «عملية الجمع البدائية لرأس المال» وهى ألزم ما يكون لخلق المجتمع الصناعي... لا يمكن أن تتم في ظل النظام الرأسمالي إلا باستغلال العامل الذي لا بد له أن يثور يومًا ضد تزايد فقره، وبهذا يضع حجر الأساس للاشتراكية العالمية.

ولكن في ظل رأسمالية الدولة تابع الاتحاد السوفييتي سياسة «عملية الجمع البدائية لرأس المال»، وذلك بواسطة حكام أقوياء يستقل كل منهم برأيه، وكان الهدف الوحيد للشيوعية، كما لا يزال يعترف به زعماؤها، هو التوصل إلى اقتصاد يؤدي إلى تحويل راحة الفرد إلى نوع من وفرة الإنتاج لا يمكن أن يحلم به أحد، وإذا كان ستالين قد استمر في اعتناق هذه الفلسفة فلأنه كان مدفوعًا بأطماعه في سبيل التفوق على الغرب؛ سواء من الوجهة الحربية أم الصناعية، وقد كان مدفوعًا أيضًا بإدراكه أن الأولوية للصناعات الثقيلة ومركزية التخطيط اللذين تعتمد عليهما هي أسهل طريق إن لم يكن الطريق الوحيد لكي يحتفظ الحزب الشيوعي باحتكار السلطة السياسية، وأن توزيع ثمار نجاح الشيوعية قبل الأوان سوف يؤدي إلى إضعاف هذه السلطة.

وباسم الشعب حرم الكرملين الشعب من كل شيء!

وكأن جوزيف ستالين يوم موته كان على موعد مع التاريخ وتم

اللقاء في الموعد المحدد بالضبط: إذ قبيل موته بالضبط، وعلى وجه التحديد في شهر مارس من عام ١٩٥٢ بدا انه هو نفسه منشغل بحل بعض المشاكل المتضاربة التي خلقها بنفسه.

فقد كانت وصيته الأخيرة كما جاءت في كتابه «المشاكل الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي»؛ إذ قال في ذلك الكتاب: إن حل مشاكل السوفييت في ظل الشيوعية ليس سهلًا، وقال: إن حل هذه المشاكل لا يتلخص في زيادة الاستثمار ولا في زيادة الاستهلاك، ولا في الضغط على الفلاحين، ولا في استجلاب رضاهم.

ولم يوضح بالضبط ما كان ينصح به لاستبقاء الحزب في الحكم.

وبقي على نيكيتا خروشوف خليفته في خطابه المشهور الذي ألقاه في شهر فبراير من عام ١٩٥٦ واستنكر فيه حكم ستالين المطلق: نقول: بقي على خروشوف أن يوضح الحل الذي كان يقترحه ستالين، وهو مذبحة أخرى كبيرة ليحتفظ الحكم بسيطرته واحتكاره.

ولكن لم تحدث المذبحة وقد لا تحدث مطلقًا، كما أن زعماء الكرملين لا يميلون إلى تنصيب ستالين جديد، ولما خلا مكان ستالين لم يكن هناك شخص يمكن أن يخلفه كحاكم مطلق له نفس سلطته، حاكم يمكنه أن يتخلص من أي معارض يبرز له، وهنا بدأت تنحل وحدة الدكتاتورية السوفييتية.

وكان من أهم نتائج موت ستالين أن مقدرة الحكومة على استعمال الرعب والإرهاب كسلاح اقتصادي أخذت تقل شيئًا فشيئًا، وبدت رغبة من الزعماء في استجلاب حب الشعب.

وفي صيف عام ١٩٥٣ ألقى كل من رئيس الوزراء الجديد جيورجى مالنكوف وزعيم الحزب نيكيتا خروشوف خطبًا هامة نبّها فيها إلى ضرورة بذل عناية أكبر ببضائع المستهلك وبالزراعة.

ستالين يحدد أهدافه

شرح ستالين في كتابه «مشاكل مذهب لينين» الذي بيعت منه ملايين النسخ في روسيا:

إن هدف روسيا في سياستها هو تعزيز دكتاتورية الطبقات العاملة حتى تصبح وسيلة للقضاء على الاستعمار في العالم كله...

ويقول ستالين في فصل من فصول الكتاب عنوانه «السياسة والمناورات»: إن أهم القوى المدخرة للثورة العالمية هي الدكتاتورية الشعبية في روسيا والحركات الثورية الأخرى في البلاد الخارجية.

أما الاحتياطي المدخر للحركة الثورية فيتكون من أشباه العمال وصغار الفلاحين في البلاد المتقدمة، كما أنه يعتمد على الحركات التحريرية في المستعمرات.

واستشهد ستالين بما قاله لينين من أنه لا مناص من أن تقوم الحرب في عالم استعماري كهذا الذي نعيش فيه ضد الحركات الثورية الأوروبية وثورات المستعمرات في الشرق؛ وذلك لأن اتحاد الحركات التحريرية الأوروبية مع ثورات المستعمرات في الشرق سيؤدي إلى تكوين جبهة ثورية متحدة ضد الاستعمار.

وذكر ستالين مسترشدًا بآراء لينين أن خير الأوقات المناسبة لإشعال نيران الثورات العالمية هي فترات الحروب، والأزمات الاقتصادية، والنكبات الوطنية...

كما أنه يعترف بأن من المسموح به في مثل هذه الظروف الالتجاء إلى جميع وسائل الخداع المعروفة وغير المعروفة؛ وهو يقول في هذا: «إن من المضحك أن تشن حربًا تهدف إلى التخلص من الطبقة

البورجوازية[1] في العالم كله ثم تتعفف عن استعمال الوسائل لإثارة بعض الطبقات ضد البعض الآخر، ولاستغلال تعارض المصالح بينها ... وذلك لأن هذه الحرب سوف تكون أصعب مائة مرة من الحروب العادية التي تقوم بين الدول وبعضها ..».

وهـو يقول: إن الطرق تتغير في كثير من الظـروف، ولكن السياسة تبقى دائمًا كما هي... ولا شك أن سياسة ستالين نفسه كانت خير برهان على إيمانه بتغير الوسائل؛ فقد كانت وسائله تتغير كل يوم طبقًا للظروف والضرورة، ولكن أهدافه السياسية بقيت كما هى دون تغيير.

وقدم ستالين لقادة الحركات الثورية في العالم أربع نصائح هامة طالبهم بالتزامها، وهي:

(١) ركزوا الهجوم على أشد الأجزاء حساسية لدى العدو.

(٢) تخيروا الوقت الملائم للمعركة الحاسمة، ولا تدخلوها إلا إذا حلَّ الوقت...

(٣) تابعوا العمل في سبيل أهدافكم دون كلل رغم ما قد يعترضكم من صعاب ومتاعب، وذلك حتى يظل الحرس الأمامي على علم دائم بحقيقة أغراضكم، وحتى لا تضل التكتلات الشعبية عن الطريق السوي.

(٤) تقهقروا عندما لا يكون من المصلحة أن تقاتلوا، واستغلوا احتياطيكم في المناورات...

وكان من رأي ستالين أن الحياة ليست إلا مصارعة حرة بين المذهبين، وفي المصارعة الحرة يمكنك أن تمسك بخصمك من أي مكان في جسمه وأنت تحاول أن تلقي به أرضًا.

وقال في ذلك جملته المشهورة: «إننا نعيش طبقًا لنصيحة لينين؛

(١) ..... الوسطى.

وهى أن الحياة مباراة من مباريات المصارعة الحرة، فإما أن نقضي على الرأسماليين ونوجه إليهم الضربة القاصمة... وإما - كما قال لينين- أن يقضوا هم علينا!» ويواصل ستالين حديثه قائلاً:

ومنذ بداية الثورة في روسيا كانت المشكلة الزراعية هي إحدى المشاكل التي واجهتها، وقد أدرك لينين في ذلك الوقت أنه من المستحيل تطبيق نظام الملكية الجماعية في الريف الروسي دون أن يقع صدام عنيف مع الفلاحين الذين كانوا يرون في امتلاك الواحد منهم لقطعة أرض غاية ما يصبون إليه من أمل.

وإزاء هذا الموقف أقدم لينين على تقسم الأراضي إلى ملكيات صغيرة فهاجمه كثير من الزعماء والكُتَّاب، وقالوا: إن هذه الخطوة خروج على المبادئ الاشتراكية، وهي من باب أولى غير شيوعية.

وكان رد لينين على ذلك هو أنه وإن كان تقسيم الأراضي إلى ملكيات صغيرة ليس عملا اشتراكيًا إلا أنه على أي حال خطوة تقدمية ديمقراطية، والماركسية ليست حقائق منزلة وإنما هي دليل يرشد إلى الطريق القويم فحسب.

وقد ظل هذا النظام سائدًا في روسيا حتى أقدم ستالين على تحويل الملكية الفردية إلى ملكية جماعية في صورة «الكولخوزات»، وهى المزارع الجماعية بنظامها الاشتراكي الراهن لا الشيوعي.

وبالرغم من أن هذا التغيير حدث بعد أن رسخت أقدام الثورة بسنوات طويلة إلا أنه صادف مقاومة عنيفة من مجموعات كبيرة من الفلاحين، وذهبت ضحيته آلاف من الأرواح.

ولا شك أن هذا الثمن الكبير الذي دُفع لتحويل الملكية من فردية إلى اشتراكية كان من الأسباب التي جعلت ستالين في أواخر أيامه يرفض فكرة تحويل هذه الكولخوزات الاشتراكية إلى النظام الشيوعي الكامل،

خصوصًا بعد أن تعلق الفلاحون بمزارعهم الجماعية، وأصبح أهل كل مزرعة يرون أنها ملك خاص لهم؛ ولذلك فمن غير المعقول أن يقبلوا بسهولة اندماج المزارع كلها في جهاز واحد يكونون فيه عُمّالًا وموظفين.

وقد وجه بعض الاقتصاديين الروس النقد إلى الوضع الراهن فيما يتعلق بالأسواق المتعددة والأسعار المتعددة، وهاجموا النشاط الفردي الذي ما زال موجودًا بالريف السوفييتي حتى اليوم، ولكن ستالين رد على هذه الانتقادات بما معناه: إن الوضع الراهن يجب أن يبقى زمنًا آخر كمرحلة انتقالية، وذكر أنه لكي يتم الانتقال إلى النظام الشيوعي الكامل في الزراعة يجب أن تتوفر عدة شروط أهمها:

* أن يتم تصنيع الزراعة تمامًا بحيث يصبح كل العمل آليًا وتتحول المزرعة إلى مصنع.

ويحتاج هذا إلى فترة طويلة تصنع فيها الآلات الثقيلة التي تنتج الآلات الزراعية نفسها.

* أن يصل الإنتاج الزراعي إلى درجة تكفى كل حاجات المستهلكين.
* أن يرتفع المستوى الثقافي في الريف إلى درجة تساعد الفلاح على تفهم النظام الجديد والاقتناع به.

ستالين وسياسة تقديس الفرد

كان لينين ممددًا على فراشه، في حجرة من حجرات مجلس الشيوخ، وأحس بأنه سيعاني آلام صدمة جديدة، فما لبث أن اشتد اهتمامه مرة أخرى بموضوع من يخلفه. وفي هذه الفترة نفسها اضطر تروتسكي هو الآخر أن يلازم فراشه بسبب آلام روماتيزمية كان يشعر بها، وكانت حجرته في قسم فرسان القيصر، وكان براح الكرملين الكبير يفصل بين

الرجلين، ولذلك فإنهما كانا يتبادلان الرأي في المسائل الهامة بواسطة مذكرات صغيرة يتبادلانها، أو رسائل شفوية يبعث بها كل منهما إلى الآخر بواسطة سكرتاريته، ولذلك فقد كان الموقف محزنًا حقًا...

وزاد من حزن لينين في ذلك الوقت تلك الدعاية الغريبة عليه التي عمد إليها الزعماء؛ فقد استبدلوا اسم مدينة «تزاريتزينه»[1] التي دافع عنها ستالين أثناء الحرب دفاعًا مجيدًا استبدلوه باسم ستالينجراد، وسميت مدينة أخرى «زينوفيسك»، وأطلقت أسماء الزعماء أيضًا على عدد من المدارس والمصانع والبواخر.

وكان لينين طول حياته قد رفض مثل هذا التمجيد لاسمه، فلم يطلق على مدينة «بتروغراد» اسم لينينجراد إلا بعد موته.

ولكن تمجيد الأشخاص في حياتهم ما لبث أن صار طابعًا للعهد؛ حتى إن أميل لودفيج في كتابه عن ستالين يروي أن زائري المعرض الدولي الذي أقيم في باريس في عام ١٩٣٧ ذهلوا لكثرة عدد تماثيل وصور ستالين الضخمة التي رأوها منصوبة في ستة مواضع من القسم الروسي في ذلك المعرض.

ويقول لودفيج: إنه وجد نفسه عاجزًا عن التوفيق بين هذا التمجيد للأشخاص وبين المبادئ الاشتراكية، ولذلك فقد صمم على أن يسأل ستالين في هذا الموضوع، وقال له عندما قابله: إنني في دهشة من تمجيد الأشخاص الذين تبالغون فيه هنا أكثر من أي مكان آخر... فأنتم أيها الشيوعيون لا يجب أن تبالغوا في تمجيد أي شخص، وانا شخصيًا من المؤمنين بأن الرجال هم الذين يصنعون التاريخ، وهذا ما يجعلني أختلف عنكم؛ لأنكم بنظرتكم المادية للتاريخ كان يجب أن تعارضوا في ظهور زعمائكم على الصور المختلفة التي تُعرض في كل مكان، وفي

(١) ..... تزار معناها قيصر.

إطلاق أسمائهم على المدن أو غيرها...

ويقول لودفيج: إن ستالين تلقى هذا الهجوم بمنتهى الهدوء ثم قال ردًا عليه: إنك على خطأ؛ أن الرجال هم الذين يصنعون التاريخ ولكن ليس بالطريقة التي تتصورها، بل بالطريقة التي يتصرفون بها أمام الحوادث التي تكتنف حياتهم السياسية، فإن كل جيل تصادفه سلسلة جديدة من الأحداث عليه مواجهتها. ويمكن القول بوجه عام: أن عظماء الرجال لا يستحقون التقدير إلا بحسب الطريقة التي يواجهون بها الظروف، وإلا كانوا عظماء من طراز «دون كيشوت». وفي رأيي أن التاريخ هو الذي يصنع الرجال، ولم ينكر ماركس بتاتًا أهمية الدور الذي يقوم به الأبطال. والواقع أن هذه الأهمية كبيرة جدًا...

قال ستالين هذا ونسي أنه في الوقت الذي كان فيه بطل الثورة لينين لا زال على قيد الحياة فإن السلطة كانت قد انتقلت من يده حتى إن ستالين نفسه بوصفه سكرتيرًا عامًا أخذ في تعيين أصدقائه وزراء، وأخذ هؤلاء في تعيين أصدقائهم وكلاء للوزارات... كل ذلك... لأن «البطل» كان قد أصابه المرض...

وأدرك لينين الخطر الذي يهدد النظام كله بهذه التصرفات فأملى مقالًا، ربما كان آخر مقال له في حياته، وجعل له عنوانًا هو: «اعملوا أقل... ولكن أحسن!»

وفي ذلك المقال اقترح لينين إدخال عنصر الشباب في الأداة الحكومية على أساس اتساع المعرفة وأفضلية التعليم، ولكن في الوقت الذي كتب فيه لينين هذا المقال كان المكتب السياسي «البوليبيرو» المكون من ستالين وأعوانه قد أصبح في درجة من القوة جعلته يرفض نشر مقال لينين، وبلغ من جرأتهم في ذلك الوقت أن اقترحوا نشر

المقال في نسخة واحدة من أعداد جريدة برافدا، وقالوا في سخرية لاذعة: «حتى يقرأها العجوز!..».

ولم يسمحوا بنشر هذا المقال إلا بعد أن هدد تروتسكى كما هددت زوجة لينين بفضح أساليبهم.

ويقول أندريه جيد بعد زيارته لروسيا: وقد نفرت نفسي من هذا التمجيد الذي رأيته لمكانة ستالين، والمديح الذي يُزجى إليه، والملق المترامي من حوله، فقد راحت الدعايات التي كان هو بالذات مسئولاً عنها تصوره للناس في صورة الزعيم «المعصوم» الرحيم العليم المبدع الذي صنع كل شيء حسن في روسيا، جاء بكل خير، ومنه كانت تستفيض البركات والأنعم والطيبات، أما الأغلاط والمحن والنكبات والهزائم والنكسات فلم تكن بالضرورة إلا من عمل «المخربين» و«التروتسكيين» وأعداء الشعب وخصومه!

وقد رحت أصب جام غضبى على هذه العبادة الجديدة لشخص ستالين في مقال كتبته في موسكو ونشرته في نيويورك في عام ١٩٣٠ وحملته تبعة ذلك، وأطلقت على هذه الظاهرة أسوأ التسميات، فقلت: إنها «مناقضة للبلشفية»، وإن كانت في الواقع «بلشفية صميمة»؛ لأنها النهاية التي لا مفر منها للديكتاتورية، فقد رأينا هتلر وموسوليني يتوليان حركة مماثلة في باب المديح الذاتي، وإملاء التسبيح والحمد والتمجيد.

ومما يستحق الذكر أن «أندريه جيد» الفرنسي كتب هذا الكلام قبل أن يقف خروشوف بوصفه السكرتير العام للحزب الشيوعي بسنوات طويلة ليتحدث في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في فبراير ١٩٥٦ عن تقديس الفرد، ومدى ما يترتب عليه من نتائج ضارة، وليقول: إنه من الأمور الدخيلة على الكامل. واستشهد خروشوف بالخطاب الذي بعث به كارل ماركس إلى ويلهلم بلوس القائد العمالي الألماني وقد قال له فيه:

إنني أنفر من جميع مظاهر تقديس الفرد نفورًا جعلني أستنكف الترويج لأي مظهر من مظاهر التقديس الذي خلعه عليَّ البعض في خطبهم التي ألقيت في عدة دول طيلة عهد الدولية الأولى، فقد ضايقني هذا التقديس كثيرًا رغم ما فيه من تأييد للمبادئ التي أنادي بها...

وقال خروشوف أيضًا وهو يقارن بين تواضع لينين نبي الثورة الروسية، وتجبر ستالين بعد أن قدس شخصه: لقد كان لينين يؤمن إيمانًا قويًا بدور الشعب كخالق للتاريخ، وبالدور التوجيهي والتنظيمي للحزب كأداة خالقة حية، كما كان يؤمن بالدور الذي تلعبه اللجنة المركزية للحزب، ومع ذلك فإن الماركسية لا تنكر الدور الذي يلعبه قادة الطبقة البروليتارية في توجيه حركة التحرر الثورية.

ولكن لينين كان في الوقت الذي يعلق فيه أهمية بالغة على الدور الهام الذي يلعبه قادة الكتل الشعبية ومنظموها، يستنكر بغير هوادة شتى مظاهر تقديس الفرد، كما كان يستنكر بكل قواه الآراء الدخيلة على المبادئ الماركسية، وهي التي تقيم بعض الفوارق بين «الزعيم» والشعب.

كذلك كان لينين يقول في تعاليمه: إن قوة الحزب تعتمد على وحدته التي لا تنفصم مع الشعب؛ عمال وفلاحين ومثقفين، فهو القائل: «لن يتسنى الفوز والاحتفاظ بالسلطة إلا لمن يؤمن بالشعب، ويصهر نفسه في بوتقة قوة الشعب الخالقة الحية».

ستالين الديكتاتور الحديدي

يمكن القول إن «النظرية» التي كانت تحكم روسيا اشترك في وضعها أربعة من القادة: ماركس وأنجلز ولينين وستالين...

وقد كان ستالين هو الوحيد من بينهم الذي أتيح له أن يحكم روسيا أطول فترة من الزمن: إذ حكم الدولة ثمانية وعشرين عامًا، من ثمانية وثلاثين عامًا هو عمرها كله في ذلك الوقت

والأمر الذي لا شك فيه والذي يمكن فهمه هو أن ستالين كان ديكتاتورًا طول مدة حكمه، كان ديكتاتورًا بمعنى: أن إرادته كانت فوق كل إرادة أخرى في الاتحاد السوفييتي...

ربما استمد ستالين قوته هذه من الظروف التاريخية التي جعلته أبرز صانعي الثورة، أو من أنه أحد الذين ساهموا في صنع هذه النظرية نفسها فأصبح هو أكبر حجة فيها، واستمد بذلك قوته وقداسته من قوتها وقداستها... ولكن النتيجة على أية حال هي أن ستالين كان صاحب الكلمة العليا في البلاد...

وتسجيل هذه الحقيقة يغنينا عن تقصي نظام الحكم وأجهزته في عهد ستالين، فقد كانت الأنهار كلها على أية حال تنبع منه.

وقد قال كثيرون: إن ستالين حتى سنة ١٩٣٩ كان محبوبًا من فريق، ومكروهًا من فريق، ولكنه كان مهابًا من الجميع.

وكان طبيعيًا أن نسأل: لماذا كان مكروهًا... من فريق؟ إن اسمه قد اقترن بكل الإجـراءات العنيفة القاسية التي اقتضتها الثورة، ثم اقتضاها وضع النظرية موضع التطبيق. فقد اقترن اسمه بإعدام عدد كبير من أبرز زعماء الثورة نفسها مثل: زينوفيف وكامينيف وبوخارين، وبالمحاكمات الدامية وحركات التطهير الواسعة التي قضى فيها على الذين كانوا يعارضونه من اليسار ومن اليمين على السواء، والمعتقلات التي فغرت فاها لتتلقى الآلاف، ثم بالمذابح التي صاحبت تحويل الملكية الفردية في الريف إلى ملكية جماعية.

إن كل ثورة لها الديكتاتور، أو الدكتاتورية التي تضع مبادئها موضع التطبيق، ولو كان التطور والتغيير يتم سلميًا وبالإقناع لما كان هناك داع لأي ثورة، ولكن الأمر الواقع في تاريخ كل البلاد أن كثيرًا من التغيرات التقدمية تمت بطريقة الثورة...

والثورة معناها عمل عنيف يستهدف تحطيم كيان قديم يدافع عن نفسه بالعنف أيضًا...

لقد عرفت الثورة الإنجليزية دكتاتورية كرومويل، وعرفت الثورة الفرنسية دكتاتورية اليعاقبة، والثورة الأمريكية دكتاتورية جورج واشنجطون، وكل ثورة من هذه الثورات أو كل دكتاتورية من هذه الدكتاتوريات كانت تضطر إلى إنكار حق الحرية على القليلين الذين قامت الثورة ضدهم، من أجل الكثيرين الذين قامت الثورة لحسابهم...

إن ما صنعه ستالين ليس جديدًا في تاريخ العالم؛ إنه قديم تستطيع أن تجده في تاريخ أي ثورة...

«لقد دار الحديث بين هـ. ج. ويلز وستالين حول هذه النقطة بالضبط، كان ويلز يرى أن التطور البرلماني العادي كفيل بأن يحقق أي تغيير اجتماعي أساسي، وكان ستالين على العكس من ذلك يرى أن النظم القديمة في العادة لا تسلم معاقلها للنظم الجديدة في هدوء..».

ولست أذكر ما قاله ستالين بحروفه، وأنا الآن أكتب من الذاكرة فحسب، ولكنى أذكر أن ستالين قال ما معناه: إن النظم القديمة تدافع عن كيانها بكل الوسائل... بالحرب والقوة المسلحة، بالسجون والمؤامرات وبالاغتيالات... فكيف تريد من النظم الجديدة أن يقابلوا هذا كله؟... هل يقابلونه بالكلمات الجميلة فحسب... أم بنفس السلاح العنيف؟...

وأذكر أيضًا أنه قال ما معناه: إن الرجعية في دفاعها عن نفسها

تحمل السلاح قبل أن يحمله التقدميون الذين يطالبون بالتغيير... وإذا حمل خصمك السلاح فلا بد لك أن تحمله!...

على أية حال فقد كان لا بد لستالين أن يتحمل كراهية الكثيرين له، وحقدهم عليه، ما دام قد صمم على أن يمضي بفلسفته مهما كان الثمن...

ستالين يخرج منتصراً

لقد خرج ستالين من الحرب محاطًا بهالة ضخمة من التقدير؛ إذ اقترن اسمه أولًا وقبل كل شيء بالنصر العسكري، وبكل الانتصارات التي أحرزتها روسيا في ميدان السياسة العالمية منذ نهاية الحرب، وبالمكانة الدولية الهائلة التي قفزت إليها روسيا خلال فترة قصيرة.

وقد سُئلت فتاة روسية مثقفة: ماذا كان شعورها عندما سمعت لأول مرة نبأ وفاة ستالين؟

وقالت الفتاة: لقد بكيت، ومرت بي فترة من الذهول، فقد نشأنا جميعًا لنجد ستالين يصنع كل شيء، كان لا يقول شيئا إلا ويحققه، وفي موعده، كأن إرادته قدر لا يقبل التغيير أو التأجيل...

كان يقرر تحويل الزراعة إلى نظام المزارع الجماعية فتتحول مهما كان الثمن، كان يعلن أن الإنتاج سيزيد في مدة كذا بمقدار كذا فتتحقق الزيادة، كان يؤكد اقتراب النصر والألمان يقتربون من موسكو، فيتحول التيار ويقترب النصر... فأصبحنا نظن أنه شخص خارق خارج على نواميس الطبيعة، لا يموت!

وقد ساعدت الدعاية المركزة على شخص ستالين في خلق هذه

الصورة الإلهية له! فأنت في موسكو أو في غيرها من مختلف بلاد الاتحاد السوفييتي لا تجد شارعًا أو مبنى أو مصنعًا أو مدرسة تخلو من صورة لستالين أو تمثال له... حتى في بيوت الحضانة للأطفال الصغار تجد صورة ستالين معلقة في كل حجرة، قريبة من الأرض بحيث يراها الأطفال الذين لم يبلغوا ثلاث سنوات من العمر بعد، أو تجد تمثالًا له وهو يحمل طفلًا صغيرًا في هذا الركن أو ذاك!...

دعاية ضخمة لا أظن زعيمًا أو حاكمًا تمتع بها قط.

في الاتحاد السوفييتي ستة مصانع، خمسة منها كانت تحمل اسم ستالين، وفي مباراة كرة القدم التي شهدتها كانت صورة ستالين في حجم هائل تشرف على الملعب كله!

وفي مصيف هادئ مثل «سوتشي» كنت تجد تمثال ستالين في أصغر الحدائق وأخفى الخمائل ينصت إلى تنهدات العشاق!

وعند مدخل قناة «الفولجادون» كان هناك تمثال ضخم جدًا لستالين، قطر القبعة التي يحملها في يده متر وعشرون سنتيمترًا!

وقد صُنعت هذه اللوحات والتماثيل كلها قبل أن يموت ستالين!

وقد يُخيل أن ستالين كان هو الموضوع الرئيسي لإنتاج الفنانين في الرسم والنحت خلال حقبة طويلة من الزمن!

ولينين يشارك ستالين في كثير من الصور والتماثيل والأسماء، ولكنه لا يساويه...

إن ستالين في نظر الروسي العادي إنسان خارق للعادة... وهو من أجل ذلك يقول لك: إن ستالين لا يمكن أن يتكرر، ومن أجل ذلك فإن النظام بعد ستالين يجب أن يتغير.

فهل يتغير النظام حقا؟ وإلى أي اتجاه؟

أعتقد أن الشعور بالحاجة إلى التغيير قد بدأ قبل أن يموت ستالين، ربما منذ نهاية الحرب الأخيرة...

وتساءل والتر بيدل سميث سفير أمريكا السابق في موسكو هو أيضًا هذا السؤال: هل من الممكن الوصول إلى تفاهم مع ستالين؟

هل هو ديكتاتور مطلق مماثل لهتلر وموسوليني، أم أنه أسوأ منهما؟ منطو بينه وبين نفسه على نية غزو العالم، ومسئول عن سياسة الاتحاد السوفييتي العدائية ضد أمريكا التي كلفتنا كثيرًا من الوقت والجهد والمال، وأنزلت بالعالم بعد الحرب الخوف المفزع المثبط من قيام حرب أخرى؟

أم أنه على العكس زعيم أقلية داخل المكتب السياسي السوفييتي تميل إلى الغرب وتود الوصول إلى ترتيب معقول معه ينفذ بإخلاص كامل لضمان سلام العالم إلا أنه لا يستطيع ذلك: لأن أغلبية الأصوات تجيء في جانب الزملاء الآخرين في الهيئة الخاصة الحاكمة داخل الكرملين؟

يقول سفير ارتيا السابق في موسكو هذه الأسئلة ألقيت عليَّ مئات المرات منذ عدت إلى الولايات المتحدة، وهي تعكس التيارات المتضاربة في الرأي العام الأمريكي... وقد تدرج هذا الرأي العام من نظرة يائسة لحفنة من المتطرفين ينظرون إلى ستالين على أنه ديكتاتور مطلق معادٍ، ويعتقدون أن حربًا رادعة هي الحل الوحيد... إلى تمنيات عند الآخرين يصورونه كزعيم يعمل لصالح الغير، فإذا ما مُنح بعض التشجيع استطاع إقناع زملائه بأن يتخلوا عن سياستهم الفكرية الأساسية لسيادة الشيوعية في العالم، ويجعل من الممكن قيام سلام وطيد دائم على أساس من التعاون الدولي.

لقد كان مكتبي في السفارة الأمريكية بموسكو طيلة ثلاث سنوات

يطل على «يوخافا بلاتزا» المجاورة لجدران الكرملين مقر السلطة السوفييتية، ومع ذلك فإنني لم اخترق هذه الجدران لعمل رسمي إلا أقل من عشرين مرة في هذه السنوات الثلاث، وتحدثت مع ستالين حديثًا طويلًا أربع مرات فقط، ومع ذلك فإن أربعة أحاديث طويلة مع ستالين واجتماعًا أو اثنين معه كانت أكثر مما حصل عليه أي دبلوماسي آخر في الفترة التي قضيتها في روسيا.

وهذه الفرص التي أتيحت لي لمقابلة زعيم الشعوب السوفييتية وجهًا لوجه مع دراسة دقيقة لما قاله وفعله خلال السنوات الأخيرة تجعل من الممكن التفريق بين ستالين «الحقيقة» وستالين «الأسطورة»، ولقد كوّنت عدة أحكام عن ستالين في العام التاسع والستين من حياته، والخامس والعشرين من حكمه.

فهو مثلًا ليس ديكتاتورًا مطلقًا، وهو كذلك ليس أسير المكتب السياسي، ويمكنني أن أقول: إن مركزه أكثر من مجرد رئيس للوزارة، وإن رأيه هو القاطع، وقد توجد بلا شك انقسامات في السياسة، وأحزاب في داخل المكتب السياسي، ولكن ليس بين الأعضاء واحد ضد ستالين، فكل خصومه قد صفى حسابهم، فنفوا أو «أعيد تعليمهم»!

والسياسة الخارجية العدوانية والتوسعية للاتحاد السوفييتي في فترة ما بعد الحرب هي سياسة ستالين، ولم يكن ممكنًا في ظل النظام السوفييتي الحاضر أن توضع موضع التنفيذ وتستمر دون موافقة ستالين واعتماده، ولذلك يجب أن ينظر إليها باعتبار أنه بطلها لا مجرد مؤيد متردد لها.

وعندما يقول ستالين للسياسيين الأجانب أو الصحافة الأجنبية بأن من الممكن أن تعيش الرأسمالية والشيوعية جنبًا إلى جنب في سلام

فإنه يناقض نفسه، أو أنه لا يعنى ما يقول: فإنه في خطبه وكتاباته لزعماء الحزب الشيوعي يكرر تأكيد نظرية لينين الأساسية القائلة بأنه لا مناص من أن تقوم في المستقبل معركة بين الاتحاد السوفييتي والرأسمالية التي تحاصره.

حوار مع ستالين

كان المستر أريك جونسون، رئيس الغرفة التجارية بالولايات المتحدة أحد القلائل الذين تمكنوا من مقابلة ستالين في عام ١٩٤٤، ودامت مقابلته لسيد روسيا حينئذ نحو ثلاث ساعات، وقد كتب وصفًا شائقًا لهذه المقابلة التي تعتبر من أطول المقابلات التي سمح بها ستالين، أو أي زعيم آخر لضيف من ضيوفه.

ونحن ننقل هنا بعض ما جرى في هذه المقابلة من أحاديث كما سجله حينئذ مستر أريك جونسون نفسه في وقت كانت فيه العلاقات بين روسيا وأمريكا على خير ما يرام! وسوف يلاحظ القارئ أن هذا الوصف رغم ما مرّ به من زمن فإنه لا شك ينطبق في كثير من المواضع تمام الانطباق على الوقت الحاضر...

وها هو أريك جونسون يتحدث عن مقابلته لستالين: «إن ما يعرفه العالم عن روسيا قليل، وما يفهمه من شئونها أقل من القليل، في حين ينبغي للناس أن يعرفوا عنها أكثر مما يعرفون، وأن يفهموها أكثر مما يفهمون، وإنني لأعترف بأن ما أعرف وأدرك من أمورها نزر يسير، فإنها بلاد واسعة مترامية الأطراف، كثيرة التعقيد، شديدة الغرابة. ثم إن للأمم الأخرى أسلوبًا في التفكير يختلف عن أسلوبها.

وقد قطعت عشرة آلاف من الأميال في ستة أسابيع قضيتها ضيفًا على الحكومة، مرتحلًا أجوس خلال الأراضي السوفييتية، فعرفت كثيرًا،

ونبذت من الآراء التي كنت أعرفها أكثر مما عرفت، وقد وجدت «خبراء» الجاليات الأجنبية في موسكو يختلفون حتى على أبسط المسائل، على أنه من الإنصاف أن أسلم بأنه قلما تتاح لهم فرصة الاطلاع الصحيح؛ إذ قلما يسمح لهم بالخروج من موسكو».

ستالين رجل غامض

وإذا حاولنا أن نعرف روسيا وجب علينا أن نعرف رجلًا واحدًا يتكلم ويعمل من أجل شعب الاتحاد السوفييتي، وهو أقوى شخص في العالم اليوم، ومع ذلك لا يعرفه العالم إلا معرفة يسيرة، ألا وهو المارشال جوزيف ستالين...

وحتى المقابلات القليلة التي أتاحها للأجانب قلما نشر مما يدور فيها من الأحاديث إلا النزر الأقل، فكان من جراء ذلك تكاثف ضباب من الإشاعات والشكوك والمبالغات حول الرجل الذي أصبح «الرجل الغامض رقم ١».

يقول أريك جونسون رئيس الغرفة التجارية الأمريكية أيام ستالين:

وقد قضيت زهاء ثلاث ساعات مع ستالين في جناحه بقصر الكرملين، وأعتقد أنه من الخير لكي يستنير الرأي العام أن أخرج على السُّنة الجارية وأروي طرفًا من الموضوعات التى تناولها الحديث.

وقد كان موعد المقابلة في الساعة التاسعة مساء؛ لأن العمل يقل في الكرملين أثناء النهار، ولكن أنواره تسطع متلألئة طول الليل وقد استقبلني في البناء المخصص لجناح ستالين عدد من كبار ضباط الجيش، وبعد تبادل التحيات المألوفة قادونا إلى حيث هبطنا في ممر

دائر أبيض، كانت الأرض مصقولة لامعة، وفي وسطها بساط ممدود من المخمل، وكان سقف الممر ناعمًا صقلًا مزودًا بالأنوار المستورة، ولم يكن هناك من مظاهر الزينة سوى رجال أيقاظ من الحرس عند كل منحنى، وليس بينهم من تقل رتبته عن درجة «الماجور».

وسرعان ما دخلنا غرفة للانتظار، ونظرت إلى ساعة كهربائية في الحائط وسألت نفسي: تُرى إلى متى يمتد بنا الانتظار؟ فقد علمتني التجارب أن رؤساء الدول اعتادوا ألا يحفظوا المواعيد، ولكن في الساعة التاسعة تمامًا فتح الباب وقال أحد ضباط الجيش الأحمر بصوت مرتفع: إن الماريشال ستالين يستقبلكم الآن!

وسار الرجل أمامنا إلى حجرة ذات بابين مطابقين بينهما نحو نصف متر تقريبًا حتى لا يسمع أحد ما يجري في داخل الحجرة، وكانت غرفة رحبة مستطيلة، ورأيت رجلين وقفا فى طرفها البعيد، وعرفت أحدهما؛ لأنني كنت قابلته من قبل وهو مولوتوف... قوميسير الشعب للشئون الخارجية.

وكان الرجل الذي يقف إلى يساره هو الماريشال ستالين، وخيل إليّ أنه ابتسم ابتسامة غامضة ونحن نتقدم إليه من أقصى الحجرة.

كان ستالين الحقيقي يبدو أكبر سنًا من صاحب الصور التي رأيتها تزين المكاتب والمصانع والأماكن العامة في الاتحاد السوفييتي، فقد شمط شعر رأسه وخف، ووخط المشيب حاجبيه الأسودين الكثيفين وشاربه الكث.

وقد لاحظت أنه قصير؛ فقد كان أعلى رأسه يصل إلى طرف أذني الأسفل فقط، ولكنه ضخم الصدر، قصير الساقين.

وكانت سترته الرسمية متقنة التفصيل، وإن كان الكمان مفرطين

في الطول حتى ليكاد أن يتدليان إلى أطراف أصابعه. وكانت السترة مصنوعة من القماش «الكاكي» الناعم الجميل، وقد وشيت أطرافها بالشريط الأحمر الرفيع، وعلى الكتفين شريطتان عريضتان مذهبتان تعلوهما شارة براقة ضخمة هي شارة الماريشالية.

وكان يحمل وسامًا واحدًا، هو نجمة من الذهب معلقة في شريط أحمر هي شارة «بطل الاتحاد السوفييتي».

وكان بنطلونه المكوي مثبتًا في حذاء أسود شديد اللمعان. يعبث على الورق!

وتم تقديمنا إليه، وكانت مصافحته عادية، ولكنه نظر إليَّ بعينيه الرماديتين نظرة سريعة فاحصة، ثم أشار بإجلاسي عند طرف مائدة طويلة مغطاة بقماش أخضر يحيط بها نحو ٣٥ مقعدا، صُنعت من أجود أنواع الخشب «الموجنه»، ودار فجلس أمامي، وتمثلت في ذهني وأنا أشهد مشيته وطول ذراعيه صورة الدب القطبي عندما يمشى قائمًا على ساقيه الخلفيتين!

وقد جلس إلى يمينه مولوتوف، وجلس إلى يساري مستر هاريمان ومستر بيدج، كما جلس المترجم الرسمي لوزارة الخارجية بافلوف في طرف المائدة.

وأخذت أتمعن في الحجرة وأنا على مقعدي، فهذه المائدة الكبيرة التي يكاد يبلغ طولها ثلاثين قدمًا تشغل حيزًا كبيرًا منها، ورأيت في أحد الأركان مكتب ستالين الضخم ومقعده الفاخر، وعلى الأرض بساط طويل أحمر اللون، وقد غطيت الجدران بخشب قاتم اللون إلى ارتفاع يبلغ ثلاثة أقدام ونصف قدم تقريبًا، ويليه طلاء يميل إلى اللون الأصفر ويصل إلى السقف الأبيض الذي كان يتلألأ بالضوء المستور، وكانت الحجرة ملأى

بالأثاث الجيد المتين، تتجلى فيها آيات الذوق السليم، وكان الأثاث يلمع كالمرايا الساطعة.

ولم يكد الماريشال ستالين يتخذ مقعده حتى تناول قلمًا أحمر من الرصاص وراح يرسم به عابثًا في مفكرة من الورق الأبيض الكبير، وقد ظل خلال الحديث يرسم ذئابًا ونساء وقصورًا وأشكالًا هندسية أخرى حتى تمتلئ الصفحة فيطويها بعناية من أسفلها إلى أعلاها، ثم يستأنف الرسم، ويكرر ذلك حتى تصبح الورقة أشبه بالشريط الضيق لكثرة الطي، فيلقي بها إلى السلة ثم يبدأ بورقة أخرى من جديد.

وقد لاحظت أن يديه مربعتان قويتان، وأظافره مقلمة ومطرفة، ولم ينظر إليَّ بل بدا شارد اللب منهمكًا في الرسوم التي يخطها على الورق.

أما مولوتوف فكان يدخن وهو يحدق في وجهي بوجه مربع غامض السمات، كأنه رئيس قبيلة من الهنود الحمر، وكانت عيناه الزرقاوان اللتان لم تكفا عن التحديق في لحظة واحدة واسعتين أشبه بعيون الدمى المصنوعة من الخزف الصيني.

أطول حديث مع ستالين

ويواصل أريك جونسون رئيس الغرفة التجارية الأمريكية ذكرياته عن لقاء ستالين قائلاً: ومرت فترة ثقيلة محرجة ساد فيها الصمت، ولما لم يبدأ الحديث رأيت أن أبدأه أنا، وأنا أنقله من المذكرات التي دونتها في اليوم التالي عند طيراني إلى سيبيريا.

وقد بدأت الحديث بأن أبلغت ستالين تحيات عدد كبير من الأمريكيين، فقال وهو مستمر في الرسم على الورق: أشكرك!

وطلب منى كذلك أن أحمل إلى هؤلاء الناس أطيب أمانيه، وجاء اسم أحد أساطين الصناعة الأمريكية فقال: الله يرعاه!

وقلت بعد ذلك: إنني أود أن أعرب عن شكري لما لقيت من ترحيب ومجاملة في الاتحاد السوفييتى، كما ذكرت بأن زياراتي للصناعات السوفييتية المختلفة كانت ممتعة ومفيدة في وقت واحد.

فقال ستالين وهو يحدق في المائدة ويرسم عابثًا دون أن ينظر إلى ما يرسم: ولم ذلك؟ قد تكون الصناعة الأمريكية أكثر متعة؟!

وبدأ يداخلني الشعور بأن هناك شيئًا لا يرتاح إليه ستالين في هذا الحديث، فقلت: ربما كان هذا صحيحًا من وجهة النظر الروسية، ولكننا في الولايات المتحدة نتوق إلى أن نعرف من دراستنا المباشرة مدى التقدم الذي بلغتموه.

فقال ستالين: لقد أسدت الولايات المتحدة إلى الصناعة السوفييتية خدمات جليلة، وقد أُنشئت في الاتحاد السوفييتي مصانع كبيرة بواسطة المعونة الأمريكية، كما استعين في إنشاء بعضها بالخبرة الأمريكية...

فقلت: نعم، لقد لاحظت ذلك يا ماريشال ستالين، وقد رأيت بالفعل آلات أمريكية في مصانعكم، وشهدت أساليب أمريكية وخططًا أمريكية، وقد استعنتم بكثير من خبرة مهندسي الإنتاج الأمريكيين...

ستالين لا يحب سماع النقد

ويواصل أريك جونسون حديثه قائلاً: ثم استطردت قائلًا: ولكنكم ما زلتم تهدرون كثيرًا من الجهود البشرية؛ ففي مدنكم المكتظة بسكانها اكتظاظًا مروعا رأيت صفوفًا طويلة من الناس تقف لتشتري الطعام، وفي ذلك إهدار لنشاط بشري أنتم في حاجة إليه، كما أنكم في حاجة إلى

تحسين نظام التوسيع لرفع مستوى الكفاية والإنتاج: لقد استقدمتم حقًا خبراء أمريكيين في الإنتاج، ولكنكم في حاجة إلى المشورة الفنية الأمريكية في التوزيع... وإن عددًا قليلًا من خبرائنا في المخازن المسلسلة..

ولم يتركني ستالين أتم هذه الجملة فقاطعني دون أن يرفع رأسه وهو ما يزال يرسم على الورق، وقال: وما هي هذه المخازن المسلسلة؟

وأخذت اشرح له نظام هذه المخازن الذي يتلخص في شراء البضائع بالجملة وتوزيعها بالجملة أيضًا على سلسلة من الفروع متغلغلة في جميع القرى والمدن والولايات الأمريكية.

وأطرق ستالين برأسه ثم قال: ولكن لكي يكون هنا توزيع يجب أن يكون هناك ما يوزع!...

وأردت أن أبعث الأمل في نفسه فقلت: سيكون لديكم بعد الحرب ما توزعونه...!

فسألني: وكيف عرفت هذا؟

ولم أستطع أن أتبين ماذا يكون ذلك الرسم الذي يخرج من قلمه العابث.

وقلت: لأن إنتاج بضائع المستهلك يزداد دائمًا بعد الحروب، ولعلك تذكر أنه على إثر حروب نابليون ظن كثيرون من الإنجليز أن بلادهم قد منيت بالدمار في حين أن إنجلترا كانت في ذلك الوقت على عتبة عهد من الرخاء منقطع النظير دام قرنًا من الزمان كاد يخلو من أي حادث يعكر صفو السلام، ولذلك فإنه إذا أتيحت للعالم فرصة طويلة من السلام بعد هذه الحرب يقصد الحرب العالمية الثانية من عام ١٩٣٩-١٩٤٤ واستطاعت روسيا أن توجه طاقتها المطردة الزيادة إلى إنتاج بضائع الاستهلاك...

وكان ستالين قد تململ في جلسته مرتين أو ثلاثًا، بل لقد خيل

إليّ مرة أنني سمعته يتهد، ولهذا غيَّرت موضوع الحديث وقلت: إن صداقة الشعبين الروسي والأمريكي ربما كانت ترجع إلى أيام ثورتنا؛ فإن دول أوروبا الأوتوقراطية لم تشأ في ذلك الحين أن تتبادل التجارة مع الولايات المتحدة، ولكن قيصر روسيا كان أول من تقدم للاتجار مع بلادنا الجديدة...

وقاطعني ستالين والابتسامة على شفتيه: ذلك لأن القياصرة وجدوا من هذا السبيل بابًا للحصول على المال!

فقلت: مهما يكن من أمر، فإن الصداقة العريقة بين شعبينا قد عادت عليهما بالفائدة في الماضي، وأعتقد أن التجارة بين روسيا وأمريكا سيتسع مداها بعد هذه الحرب...

فقاطعني وهو لا يزال مطرقًا وقال: إن الكساد يصيب الدول الرأسمالية بعد كل حرب، وسينزل بكم الكساد بعد هذه الحرب!..

وقلت له: ليس ذلك بالأمر المحتوم، على الأقل خلال عدة سنوات، وإذا أوتينا من الشجاعة وبُعد النظر وسعة الحيلة ما يمكننا من استخدام المعلومات التي تجمعت لدينا فلربما استطعنا أن نتفادى أزمة أخرى من أزمات الكساد.

وقال معقبا: إنني لم أحدد تاريخًا...

وكان عند هذا الحد قد طوى ورقته بعناية بعد أن ملأها رسمًا، وشرع يرسم في وجه آخر صورة جديدة ذات خطوط مديدة مقوسة.

وكان قد طُلب منى أن أختتم حديثي حتى تنتهي المقابلة إذا لم أجد من الماريشال ستالين اهتمامًا، كما كان بعضهم قد ذكر لي أن مقابلتي قد تستغرق نصف ساعة فقط. ونظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط البعيد فوجدتها تشير إلى التاسعة والنصف تمامًا، فهل

أحاول أن أمهد طريق الخروج بلباقة وينتهي الحديث؟

وألقيت لمحة خاطفة على الصورة الأخيرة التي كان ستالين قد انتهى من رسمها على الورق وقلت له: يا ماريشال ستالين إن هذا الرسم يبدو لي وأنا جالس هنا في مكاني كأنه صورة فتاة تتعذب، ولما كنت قد حدثتني بلهجة التأكيد عما سنصاب به من الكساد والضيق في أعقاب الحرب فإنني أرجو ألا تكون قد رمزت بصورة هذه الفتاة التي تتعذب إلى «مس أمريكا»!..

وهنا ولأول مرة رفع ستالين بصره إليَّ، ورماني بنظرة ملؤها الدهشة والتساؤل، ثم ما لبث أن ابتسم فجأة عندما نظر إلى الرسم الذي أمامه، وبدا عليه شيء من الحياء ثم قال: كلا، إنني أعبث... ولا أحاول أن أرسم شيئًا معينًا...

فقلت له: ربما لم تكن تحاول، ولكنك كنت تتحدث عن أزمات الكساد حديث الواثق بما يقول، وكان الشقاء واضحًا على وجه الفتاة التي رسمتها حتى لقد خشيت أن تكون بين الأمرين علاقة!

فأجاب: كلا، لا علاقة بينهما إطلاقًا!...

ثم نحَّى الورق جانبًا، ووضع القلم في مكانه وابتسم ابتسامة عريضة!

قال ستالين: «ربما سمعت أنني كنت رجلًا مرحًا ودودًا، ولكن السن يتقدم بي، وعلى عاتقي تقع جميع مشاكل الحرب ومتاعبها، ويجب أن أبحث المسائل التي تتعلق بالاتحاد السوفييتى كله..».

ثم أشار بيده إلى الجالس عن يمينه وغمز بعينه وقال: وها هو ذا مولوتوف لا يزال مرحًا ودودًا، وليس لديه من سبب يجعله غير ذلك، وينبغي عليَّ أن أبدو أكثر الناس مرحًا وظُرفًا برغم متاعبي!...

ولاحظت أن مستر هاريمان السفير يمد يده إلى جيبه ليخرج سجائره،

وكنت قد سمعت أن الماريشال ستالين يفضل تدخين الغليون «البيب»، ولكنه لم يكن حتى هذه اللحظة قد دخن أو مس السجائر الروسية التي أمامه، فسألته قائلًا: ألا تتناول سيجارة أمريكية يا ماريشال ستالين؟

ومد يده وتناول السيجارة التي قدمتها إليه وقال: أشكرك، إنني أحبها!...

وأخذ يدخن منها بضعة أنفاس عميقة، ثم استطرد حديثه قائلًا: «إن الحكومة السوفييتية وشعبها يقدران المعونة التي تلقيناها من الولايات المتحدة خلال هذه الحرب أعظم تقدير، وقد كانت آلات المصانع، ومواد التغذية، والطائرات التي أرسلتموها عظيمة القيمة، وقد ظفرت سيارات النقل التي وصلت إلينا بتقدير خاص؛ فإن هذه السيارات هي التي مكنتنا من ملاحقة الألمان المدحورين بهذه السرعة. إن الشعب الروسي يكن للأمريكيين أعظم الاحترام والتقدير..».

وقاطعته قائلًا: إننا نحن الأمريكيين ننظر إلى الانتصارات الروسية المجيدة بأعظم الإعجاب...

وقال ستالين: ونحن من جانبنا مبتهجون بغزو الحلفاء الموفق لأوروبا؛ لقد وفقتم إلى عمل حربي باهر بإنزال قوات كبيرة على الساحل الأوروبي الذي كان يسيطر عليه العدو، حتى لقد أدركت ألمانيا الآن أنه لا سبيل إلى ممارسة حرب ضروس واسعة النطاق بغير أسطول، وقد كان من الحماقة أن يثير الألمان حربًا كبرى بلا أسطول، وأنت لا تستطيع أن تملك أسطولا تجاريًا بغير أسطول حربي، كما أن الأسطول الحربي لا يزدهر وحده، بل يجب أن يكون إلى جانبه أسطول تجاري يغذيه بالرجال...

فأجبته قائلًا: هذا صحيح يا ماريشال ستالين، وإن الحديث عن الأسطول التجاري ليذكرني بالرغبة في أن أتحدث إليك كرجل أعمال

بشأن مشاكلنا التجارية المشتركة، وأحب أن أسأل: هل تريدون أن تشتروا بعد الحرب بضائع استهلاك أم معدات صناعية؟ وقد فهمت مثلًا أن الجلود تنقصكم، ونحن نصنع أحذية رخيصة في أمريكا، فهل تفضلون يا ترى في مثل هذه الحالة استيراد أحذية مصنوعة في أمريكا، أم استيراد جلود وآلات لصنع الأحذية عندكم؟

كان ستالين يفضل دائمًا العمل واستقبال زائريه بالليل. وهو يرى هنا بمكتبه في الكرملين ومن فوقه صورة كارل ماركس نبي الشيوعية الأول.

الرأسمالية والذهب:

فقال ستالين: ربما استوردنا بعض الأحذية، ولكن مطلبنا الأساسي هو استيراد الآلات التي تمكننا من صنع الأحذية هنا؛ إننا سنحتاج بعد هذه الحرب إلى كثير من المعدات والآلات...

كان ستالين يحدجني بنظراته، وكان يجيب على أسئلتي بصوت خفيض متزن، وكانت جمله موجزة، ولم يكن يبحث عن كلمات أو ألفاظ؛ ولذلك لم يتردد عند أي جواب.

وسألته: كم تريدون أن تبتاعوا من الآلات الثقيلة من أمريكا؟

فأجاب: أي قدر منها... تبعًا لمدة التقسيط والشروط التي تتقدمون بها، وسيسدد ثمن كل شيء في موعده المحدد طبقًا لشروط العقود...

فأجبته قائلًا: إنني واحد من أولئك الأمريكيين الذين يؤمنون بفكرة منح قروض طويلة الأجل للاتحاد السوفييتي، ولكن للتجارة طريقان: غاب ورائح، فيهمني أن أعلم ماذا يستطيع الروس أن يرسلوا إلى أمريكا من البضائع؟

ونظر ستالين إلى السقف برهة، ومر بأنامله على شاربه ثم قال: إن

لدينا صنوفًا متعددة من المواد الخام، فهل تريدون منجنيزًا؟ إن لدينا منه مقادير كبيرة، وفي استطاعتنا كذلك أن نعطيكم الكروم والبلاتين والنحاس والزيت... وهناك فوق هذا الخشب ولب الخشب لصناعة الورق... ثم استطرد قائلًا: ربما احتجتم إلى الذهب، ونحن نستخرجه بمقادير كبيرة، وفي استطاعتنا أن نزيد هذه المقادير كثيرًا بعد الحرب.

ونظر إليَّ بعد ذلك في شيء من السخرية الغامضة وقال: إن معظم الدول الرأسمالية تحتاج إلى الذهب!

وقلت له: لا أستطيع أن أجزم بأن الولايات المتحدة ستهتم في المستقبل بزيادة رصيدها من الذهب لمجرد دفنه في الأرض على نحو ما فعلنا في الماضي بخمسة بلايين من الدولارات الذهبية دفناها في قلعة نوكس!...

ومد ستالين يده لكي يتناول سيجارة أمريكية أخرى قدمتها إليه وهو يواصل الحديث، فقال: إن الإنتاج السوفييتي للمواد الخام التي تصدر إلى الولايات المتحدة سيعدل طبقًا لحاجات الولايات المتحدة، وفي استطاعتنا أن نقدم أي مقدار تريدون إذا استطعتم إمدادنا بالمعدات اللازمة لإنتاجها، ولهذا ترانا حريصين على الحصول على قروض طويلة الأجل، وإن كان في استطاعتنا أن نستغني عنها، ولكن النتيجة في حالة الاستغناء عنها ستكون أبطأ.

فأجبته قائلًا: إذا أرسلنا إليكم شتى أنواع المعدات وبعناها بأقساط طويلة الأجل، فكم يستغرق إتمام برنامجكم الخاص بالتصنيع؟...

فقال الماريشال ستالين وهو يؤكد بحركة من يده ما يريد أن يقول: مثل هذا البرنامج لا يمكن أن ينتهي: إن بلادنا واسعة الرقعة، فهي تعادل مساحة الولايات المتحدة مرتين ونصف تقريبًا، وحاجاتنا عظيمة،

ونمونا ضئيل، حتى إنني لا يمكن أن أتكهن بالوقت الذي نبلغ فيه كفايتنا من أي شيء، وقد وضعنا قبل الحرب مشروع السنوات الخمس، فكنا كلما أنتجنا ما نحتاج إليه ازداد شعورنا بما نفتقر إليه، وسيكون أول واجب علينا بعد انتهاء الحرب أن نعيد تعمير مناطقنا المخربة؛ فقد دُمرت مدن بأكملها، وحتى المصانع الباقية لا بد من تعديلها وإصلاحها بعد ما تبين لنا من أن كثيرًا مما أعد كان ناقصًا..

الإنتاج والتصدير

وقلت له: يا ماريشال ستالين، كما يلزمكم من الوقت حتى تصبحوا مصدرين، لا للمواد الخام فقط، بل وللبضائع المضنوعة أيضًا؟

فقال ستالين: لن يكون ذلك قريبًا؛ إذ إن أمامنا حاجات بلادنا، وهى بالغة الكثرة، عظيمة الضخامة، ولم يحدث قط أن اشتبك الاتحاد السوفييتي في صراع على الأسواق الخارجية، وسياستنا تقضي بألا نصدر سوى البضائع التي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بوارداتنا، ومثال ذلك: البضائع الخام التي ندفعها مقابل الآلات الثقيلة...

وفي هذه المرحلة كان الحديث قد بلغ حده من السرعة والحرارة، وكان يجيبني على كل سؤال إجابة كاملة سريعة، فقد سألته: وماذا عن صناعة الصلب السوفييتي؟ ماذا كان إنتاجكم فيها قبل الحرب؟ وكم يبلغ الآن؟ وماذا يكون مستقبلًا؟ ومتى تصل روسيا إلى أن تكفي نفسها بنفسها في هذه الصناعة؟

وذكر ستالين الأرقام من فوره فقال: لقد كان إنتاجها قبل الحرب ٢٢ مليون طن، ولكن كثيرًا من مصانعها قد دمر بواسطة النازي، وربما بلغت هذا العام ١٢ مليون طن، ويجب أن تزيد بعد الحرب حتى تصل إلى ٦٠ مليون طن.

فسألته: وماذا تصنعون بالمقادير الزائدة من الصلب؟ هل تصدرون بعضها؟ فأجاب ستالين: لا! فإننا سنضاعف شبكة خطوطنا الحديدية، وسنبني جسورًا، كما سنحتاج للفائض في التعمير والإنشاء، وسيمضي وقت طويل قبل أن تستوفي حاجة السوفييت إلى الحديد والصلب.

وتحدثنا بعد ذلك عن إنتاج الطاقة الكهربائية، وكم كان؟ وماذا يبلغ اليوم؟ وقد تبيّن لي أن مهمة التعمير في روسيا تبلغ من المشقة حدًا لا يكاد يصدق. وتناقشنا كذلك في بعض أرقام الإنتاج الأخرى. ثم قلت: يخيل إليّ أنكم تحتاجون في كل هذه البرامج إلى المعونة الفنية الأمريكية نفس حاجتكم إلى الآلات الثقيلة.

فقال ستالين: سنحتاج إليهما معًا بالطبع، وقد تعلم المهندسون السوفييت كيف ينشئون مصانع حسنة، ولكننا مع ذلك نحتاج إلى معونة فنية...

فسألته: وهل تفكرون في الانتفاع بمشورة أفراد تستخدمونهم، أم تراكم تفكرون في التعاقد مع شركة أمريكية على أن تبني لك المصنع وتتحمل مسئولية إنشائه؟

فأجاب ستالين: سيتوقف ذلك على المال والثمن ونوع الآلات وشروط الاتفاق، وسيبت في كل حالة على حدة.

سعة اطلاع

ومضيت في مناقشة الإنتاج الصناعي، وأوضحت له كيف أن التحسينات التي أدخلت على العمل من ناحية الإدارة والخبرة الفنية قد زادت الإنتاج في الولايات المتحدة نحو ثلاثة في المائة لكل رجل، وأن هذا الإنتاج يمكن أن يستوعبه قوم يرتفع مستوى معيشتهم باطراد، وقلت

له مدللًا على صدق هذه النظرية: «إن ما يعتبر اليوم ترفًا بالنسبة لأحد الأمراء سوف يعتبر غدًا من الضروريات للفلاح!»

وضحك ستالين لهذه العبارة الأخيرة وقال: «هذا مثل حسن جدًا؛ إن لشعبنا مطالب كثيرة لا تقابلها إلا فرص قليلة لإشباع هذه المطالب، ولا يزال إنتاج كثير من الأشياء ضعيفًا عندنا..».

ثم هز رأسه واستطرد قائلًا: إن إنتاجنا من المخارط والأدوات الزراعية قليل إذا قيس بحاجتنا إليها، ولم تزل صناعة السيارات عندنا في دور الطفولة، وأنتم - مثلًا - كنتم تنتجون قبل الحرب ٥٠٠٠٠٠٠ سيارة في العام، بينما كان إنتاجنا نحن يتراوح بين ٣٥٠٠٠٠ و٤٥٠٠٠٠ فقط.

وعلقت على هذا قائلًا: ومعنى ذلك أن هناك مجالًا كبيرًا للتوسع في هذا الميدان.

وقال ستالين في لهجة المفكر المتأمل: نعم! إن الآمال عظيمة ولكن الفرص لمثل هذا التوسع قد لا تكون مواتية الآن، فإن علينا - مثلًا - أن نبدأ بإنشاء الطرق في شتى أنحاء الاتحاد السوفييتي...

ثم استطرد قائلًا: أما أنتم في أمريكا فإنكم تنتجون الآن نحو ١٠٠ مليون طن من الصلب، في حين كنتم قبل الحرب تنتجون ٦٦ مليون طن فقط. فماذا أنتم فاعلون بالفائض الذي يبلغ نحو ٣٠ مليون طن؟

فأجبته قائلًا: إننا نتوقع توسعًا في الأسواق، وقد صرح أحد كبار صانعي السيارات عندنا بأن إنتاج السيارات الأمريكية سيزيد حتى يصل إلى سبعة ملايين سيارة سنويًا؛ أي: ما يزيد بنسبة ٤٠٪ على إنتاج ما قبل الحرب، وستزداد حركة بناء المنازل، وتظهر الحاجة إلى أنواع كثيرة جديدة من المنتجات، وربما ازدادت طلبات تصدير الصلب بمختلف

أنواعه زيادة كبيرة.

وقال ستالين: ولكن مجموع صادراتكم قبل الحرب لم يكن يزيد على عشرة في المائة من إنتاجكم؟

فأجبته: أعتقد أن صادراتنا لم تزد على سبعة في المائة!

أليس ذلك قليلا بالقياس إلى البريطانيين؟ إن نسبة صادراتهم كانت أكثر من ٤٠٪، ربما كانت هذه نسبة غير عادية بل خطرة. على أن أعظم مشكلة ستواجه الشعب الأمريكي بعد هذه الحرب هي تفادي البطالة درءًا لأزمة أخرى من أزمات الكساد.

ليعرف كل منا صاحبه!

وقلت: هذا حق يا ماريشال ستالين، يجب أن نخلق أعمالًا جديدة بالتوسع في إنتاجنا وقت السلم، وإن فترة طويلة من السلام لأكبر أثرًا من أي شيء آخر في تنمية الإنتاج وضمان العمل الثابت، وإن التفاهم المتبادل بين بلدينا لخليق أن يساعد على ضمان السلم العالمي مساعدة تفوق كل حد، صحيح أن كلينا يعمل في ظل نظام اجتماعي واقتصادي شديد التباين والاختلاف، ولكن ليس بيننا من وجوه الخلاف ما يستعصي حله، نحن نحب نظامنا وأنتم تحبون نظامكم، فعلى كلا البلدين أن يعقد العزم على ألا يتعرض لشئون الآخر الداخلية، يجب أن تعرفوا عنا أكثر مما تعرفون، ويجب أن نعرف عنكم أكثر مما نعرف...

فأجاب: هذا صحيح، ويجب على أمثالك من الرجال أن ينقلوا معلوماتهم إلى الشعب الأمريكي...

وقلت: ولكنني فرد واحد، أما الصحفيون الأمريكيون هنا في موسكو فيمثلون مئات من الصحف لها ملايين من القراء، وفي استطاعتهم أن يزيدوا الشعب الأمريكي اطلاعًا على الحقائق إذا قُدّم لهم العون اللازم،

وأبيح لهم نصيب أوفر من حرية التنقل، ومثال ذلك أن الشعب الأمريكي يتوق إلى معرفة شيء عن إمبراطوريتكم الصناعية الجديدة في جبال الأورال، ولكن لم يسمح للصحفيين بالذهاب إلى هناك، ولهذا السبب أجد في نفسي رغبة في أن ألتمس الإذن باصطحاب أربعة من مراسلي الصحف عند زيارتي للأورال.

فقال ستالين: ولم لا؟

فسألته: هل معنى ذلك أنني أستطيع اصطحابهم؟!

فقال: طبعًا!

قلت: حسنًا! أشكرك يا ماريشال ستالين، ولكنى لا أعرف هل يوافق مستر مولوتوف أم لا؟ ذلك لأن وزارته لم توافق على طلبي بعد...

وهنا تحول مولوتوف ببصره إلى ستالين، بعد أن كان دائم النظر إليَّ، وقال في سرعة وحزم: إنني أوافق دائمًا على أوامر الماريشال ستالين.

فاتجه ستالين برأسه إليه، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ثم قال: يا مستر جونستون، أكنت تتوقع حقًا أن يخالفني مولوتوف في ذلك؟

فأجابت: لا! ولكني رأيت أن أحتاط بالسؤال على أي حال!

وألقى ستالين برأسه إلى الخلف، ثم عبر عن رضائه وسروره، وقال وهو يتجه إلي بالسؤال: والآن أود أن أوجه إليك بضعة أسئلة، فهل لك أن تحدثني عن الانتخابات القادمة في أمريكا؟

فقلت مازحًا: لعلي أستطيع أن أنبئك عنها خيرًا من مستر هاريمان؛ ذلك لأنني من حزب المعارضة، إنني جمهوري؟

فقال ستالين مرددًا: أنت جمهوري!

وفتل شاربه وهو يبدي دهشته، ثم رفع أحد حاجبيه متعجبًا، وانحنى إلى الأمام ليحملق في وجهي، ثم التفت إلى مولوتوف وقال له شيئًا لم ينقله المترجم إليَّ... وبعد ذلك اتجه إلي ستالين وأخذ يحدثني في

صوت خافت وهو ينظر إليّ: إذًا أنت جمهوري! إننا لا نرى منهم كثيرين، بل ربما كنت أول من قابلت منهم...

فقلت: إنك تعرف على الأقل واحدًا آخر من الجمهوريين وهو ويندل ويلكى.[1]

فأجاب ستالين مستدركًا: هذا صحيح؛ وبهذه المناسبة كيف حال مستر ويلكى؟

فقلت: إنه بخير، وقد رأيته قبيل مغادرتي لنيويورك، وأبدى لي رغبة خاصة في أن أذكره عندك...

فأجاب: أبلغه تحياتي، إنه رجل عظيم...

وعندئذ سرح بصره، وقد ظهرت في عينيه ابتسامة هادئة ثم قال: أظنه حانقًا علينا بسبب ما نشرته عنه جريدتنا برافدا؛ لقد كان مقالها سخيفًا جدًا...

فقلت: إنني لم أتحدث إلى مستر ويلكي في هذا الشأن، ولكنه قد تعرّض لنقد صحف كثيرة، وأنا على يقين من أنه أعظم من أن يضيق صدره بمقال واحد في صحيفة روسية.

ومال ستالين مرة أخرى برأسه إلى الوراء، وأرسل تلك الضحكة الموقرة الخافتة، وقد وجدته في حديثي عليمًا بشئون أمريكا، ودهشت عندما عرفت أنه يقرأ ترجمة الصحف الأمريكية، ولكنه كان في شك من أمر سياستنا بعد الحرب؛ فقد سألني مشيرًا إلى ما حدث بعد الحرب العظمى (١٩١٤-١٩١٨) قائلًا: هل يرفض الكونجرس إبرام المعاهدات بعد الحرب؟ "

(١) ..... ويندل ويلكي سياسي أمريكي اشتهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية بجولاته وآرائه في عالم ما بعد الحرب. وقد زار روسيا وقابل ستالين.

فقلت: لا أعتقد أن أي رئيس للولايات المتحدة سيعيد ارتكاب الخطأ الذي وقع فيه الرئيس ويلسون في أعقاب الحرب العظمى، فلا يتشاور مع الكونجرس في شأن مفاوضات السلم، بل الواقع أن وزير الخارجية، هل، قد استشار الكونجرس بالفعل في أهداف ما بعد الحرب.

فقال ستالين: هذه معلومة هامة!

ثم استطرد قائلًا: إن الروس يعتقدون بالطبع أن للصناعة والتجارة شأنا حيويًا في علاقاتنا بعد الحرب، على أن للعلاقات السياسية شأنًا يعادله. إن القروض والاتفاقات الاقتصادية لا يمكن عدها مستقلة تمام الاستقلال عن الحكومة، ولهذا كان من الأهمية بمكان عند إعداد المشروعات أن تلاحظ فيها صفة الاستمرار، ويجب أثناء الحرب أن تقرر السياسة الخارجية كل شيء، وأن تخضع السياسة الداخلية لمقتضيات الحرب ما دامت مستمرة.

ونظرت إلى الساعة فإذا بها قد بلغت الحادية عشرة والربع مساء، وكان قد مضى على بدء الحديث أكثر من ساعتين كاملتين.

*

وقلت له: يا ماريشال ستالين! إن لي رجاء قد لا يتفق مع قواعد «البروتوكول»، ولكنك تعرف أنني رجل أعمال لا رجل سياسة، وقد يبرر هذا إجابتي إلى طلبي؛ إنني أرجو أن تسمح لي بصورة عليها توقيعك...

فأجاب ستالين: ولم لا؟ أتريدها صورة لي وحدي أو لنا نحن الاثنين؟

قلت: إنني سأغادر موسكو في الساعة الخامسة صباحًا، وقد لا يتسع الوقت لاستدعاء أحد المصورين.

ولكنه تجاهل ملاحظتي ونهض، ثم أدار زرًا كهربائيًا في الحائط غمر القاعة بالضوء الساطع، ثم ضغط على زر خلف مقعده ففتح الباب وظهر ضابط ألقى إليه الماريشال ستالين بكلمات موجزة لم يكد ينتهي

منها حتى دخل الغرفة في الحال ضباط آخرون يحملون أنوارًا كشافة وآلات التصوير...

ووقف ستالين أمام مكتبه وأشار إليَّ أن أقف بجانبه، فاقترحت أن يظهر مستر هاريمان كذلك في الصورة، فدعاه الماريشال، وعندما وقف هاريمان إلى يسار ستالين وأنا إلى يمينه، قال هاريمان مداعبًا: لعلها أول صورة لك وأنت بين جمهوري وديمقراطي!

فقهقه ستالين وهو يضحك ثم قال: نعم! وما كنت أتصور أن ذلك سيحدث يومًا ما! تصور شيوعيًا يوفق بين الجمهوريين والديمقراطيين!

وقلت: يجب أن يظهر مستر مولوتوف معنا أيضًا في هذه الصورة.

فقال الماريشال ستالين بصوت منخفض وهو يغمز بعينه غمزة خفيفة: من الغريب أن مولوتوف لا يحرص قط على الظهور معي في صورة واحدة.

ولكنه مع ذلك دعاه إلى الظهور معنا في هذه الصورة.

وما لبث ستالين أن انتقل من المزاح إلى الجد.

في سبيل السلام

قال ستالين: إن هتلر الأحمق قد صنع خيرًا واحدًا؛ وهو أنه جمع بين الشعب الأمريكي والشعب الروسي، فعلينا ألا نسمح لشيء ما أن يفرق بيننا، بل يجب أن نعمل معًا بعد الحرب...

ثم استطرد قائلًا وقد خفف قليلًا من نغمة الجد الصارم التي اتخذها قبلًا: إنني أحب أن أتعامل مع رجال الأعمال الأمريكيين؛ فأنتم قوم تعرفون ماذا تريدون، وأنتم تحفظون وعودكم، وخير من ذلك أنكم تبقون في مراكزكم طويلًا، كما هي الحال عندنا. أما رجل السياسة فهو اليوم حاضر وغدًا غائب، ولا بد حينئذ من إعادة الإجراءات مع قادم جديد...

وأخيرًا شكرت له دعاباته فقد كان شديد الظرف، وقلت له: إنني

أرجو أن أعود لمقابلته بعد انتهاء الحرب كلية.

فقال الماريشال ستالين مداعبًا: ربما وجدتني عندئذ في عداد الأموات، فاحضر قبل ذلك!

فأجبته مازحًا: لا، أنت من جورجيا،[1] وربما عشت إلى الأبد.

فقال: حسنًا، إذن فلتحضر لزيارتي بعد الحرب، وسنطلعك يومئذ على تقدم جديد في تطورنا الصناعي... وإلي هنا انتهي أطول حوار أجراه ستالين مع مواطن أمريكي وتم نشر هذا الحوار بالكامل في وسائل الإعلام الأمريكية فقط بينما لم تشير إليه أي وسيلة إعلام روسية في ذلك الحين..

(١) ..... اشتهر أهل جورجيا بطول العمر، ومن العادي أن يبلغ سن الرجل هناك المائة وأن يتعداها.

الفصل السادس

شخصية ستالين

اختلف الكثيرون في وصف ستالين، وكان الشعور الشخصي له أكبر الأثر في هذا الاختلاف؛ فإن بعض الذين قابلوه من كُتاب الغرب وصفوه بالدمامة، وبأن آثار الجدري قد شوهت وجهه. وأنه غير جذاب علي الاطلاق وكذلك سفير أمريكا الأسبق المستر والتر بيدل سميث الذي قابل ستالين عدة مرات قال: إنه ليس بأية حال شخصية غير جذابة كما وصفه البعض، بل أكد أنه ذو سحر طبيعي عندما يريد أن يظهر هذا السحر. وقال: إنه ليس بالطويل وإنما هو ربع، منتصب القامة، يوحي لمن يراه بأنه يتمتع بصحة جيدة على الرغم مما أشيع عدة مرات من أنه يشكو من مرض القلب. ويقول بيدل سميث: إنه لاحظ بصعوبة وجود آثار الجدري على وجه ستالين.

وكانت أعظم قسمات وجهه جاذبية... عيناه الحادتان السوداوان، اللتان تضيئان عندما يكون ثمة أمر يهمه، وفيهما يقظة وتعبير وذكاء، وهو هادئ وبطيء وواثق من نفسه. وعندما يحتد في المناقشة، وهو لا يحتد إلا عندما يريد ذلك، يبدو في قوة، وإذا زادت حدته صار فظًا. وقد وصف نفسه مرة فقال: إنه رجل عجوز فظ!

وكانت تبدو عليه في السنوات العشر الأخيرة علامات تقدم السن، ولم يكن غريبًا بعد أن تحمل من الأعباء ما لم يتحمله حاكم آخر في العالم، وقد فرض عليه الأطباء في السنوات العشر الأخيرة من سنه نظامًا صارمًا للغذاء والتنقلات حتى حرموا عليه السفر الطويل سواء

بالبحر أو الجو، وقد أطاع أوامرهم.

وكان ستالين رجلًا دقيقًا جدًا، شديد الاهتمام، يبحث التفاصيل، وفحص أصغر العوامل شأنًا في الحياة العامة، وفي هذا كان يختلف عن كثير من الحكام الطغاة... وكان ستالين يقرأ جميع رسائل الإعجاب التي تصل إليه من أفراد الشعب، وكان إذا بدأ برسالة قرأها حتى آخر كلمة فيها...

ولم يكن خطيبًا يعرف كيف يؤثر في الجماهير، بل كانت خطبه أشبه بخطب رجال الأعمال لولا أنها طويلة، ملأى بالتعاليم والوصايا.

وكان بطيء الذكاء، ولكنه كان شديد الجرأة، اعتنق المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الواسطة: ولذلك فإن عمليات القتل الفردي أم الجماعي كانت عادية بالنسبة له؛ حتى ليقال: إن زوجته الثانية راعها ما تراه من بساطة قضاء ستالين على أعدائه وأصدقائه على حد سواء، وكان ذلك من أسباب انتهاء حياتها هي الأخرى بسرعة مريبة.

وفي عام ١٩٢٢ أصبح سكرتيرًا عامًا للحزب، وهو المنصب الذي ساعده على توجيه الجهاز الحزبي ضد أعدائه، وفي عام ١٩٢٣ بدأ لينين يشعر بالقلق من ناحيته فكتب يقول:

إن الرفيق ستالين يقبض على سلطة ضخمة... ولست واثقًا إذا كان يعرف دائمًا كيف يستعمل هذه السلطة...

ومات لينين، وبقي ستالين لكي يصفى حسابه مع الملايين الذين قضى عليهم، ومن بينهم عدد من ضباط الجيش الأحمر وأسطوله لا يقل عددهم عن ٣٠٠٠٠.

وقد تميزت حياة ستالين بمقدرته الفائقة على استعمال «الموت»، وهو أنجح الأسلحة التي يمكن لإنسان أن يستعملها ضد خصمه، ومن

وقت لآخر كان الموت الطبيعي يزيل من طريقه بعض الخصوم، ولكنه في معظم الأحيان كان يتسنم درجات السلطة فوق جثث الأصدقاء بعد أن يقضي عليهم بنفسه، وكان يستعمل سلاحه علنا؛ ففي عام ١٩١٨ وعد «بنشر الذعر الجماعي ضد البورجوازية «الطبقة الوسطى»).

ولم يكف ستالين عن القتل طوال حياته، وكان يصدر أوامره الخاصة بذلك في هدوء كأنه لم يكن ثمة مناص من ذلك، وكأن تلك الأوامر التي تصدر كانت منزهة عن الأهواء الشخصية.

وقد كتب عنه تروتسكي مرة يقول: إنه انتهازي... يمسك قنبلة في يده!

وقد التمس له كثيرون من الكُتَّاب والنقاد في خارج روسيا العذر على ما أصدر من أوامر بالإعدام، وقالوا: إن القتل كان خطوة ضرورية لإقامة فردوس الشيوعية على الأرض!

وقد حدث في عام ١٩٣٤ لما استبد القلق بين البلشفيك أن قُتل كيروف زعيم الحزب في لينتجراد وأحد أنصار ستالين وأعوانه في المكتب السياسي، وانتقل ستالين عندئذ بنفسه إلى مسرح الحادث وتولى الاتهام، وأمر بإطلاق النار على ١١٧ من المشتبه في أمرهم دون محاكمة، كما أمر بنفي آلاف من أعضاء الحزب في لينتجراد إلى سيبيريا.

وكانت هذه هي بداية المذابح الكبرى والمحاكمات التي استمرت من عام ١٩٣٥ إلى ١٩٣٨، وراح ضحيتها عدد من زعماء البولشفيك ممن كانوا يخالفون ستالين في سياسته. ووصلت المذابح إلى الذروة في عام ١٩٣٧ عندما كانت المحاكمات تجري في الخفاء.

ويُروى أن لادي أستور سألت ستالين في يوم من الأيام: إلى متى

تستمر في إعدام الناس؟

فأجابها بكل بساطة: طالما كان هذا ضروريًا! وحدث بعد أحد عشر عامًا في سنة حالكة من سنوات الحرب، وهى سنة ١٩٤٢، أن كان تشرشل يقضي ليلته الأخيرة في روسيا ودعاه ستالين في تلك الليلة لكي يتناول معه كأسًا من الشراب.

وبعد أن تناول الاثنان كئوس الشراب وطعامًا دسمًا متقن الطهى تخللته كئوس الأنبذة المعتقة، وبعد أن زالت الكلفة بينهما... أخذ تشرشل يتحدث عن «تصفية» الكولاك والقضاء عليهم.

وقال له ستالين وهو يشير إليه بأصابعه العشرة: لقد كانوا عشرة ملايين... لقد كان الأمر مرعبًا... استغرق أربع سنوات!

ويُقدّر عدد الذين قضى عليهم ستالين، بخلاف الكولاك، بنحو ٧ مليون شخص ما بين قتيل ومنفي في سيبيريا، ولا شك أنه كان بين هذا العدد كثير من الأبرياء، كما كان بينهم قدامى زعماء الحزب البولشفيكي ممن كان يتمثل فيهم الخطر على زعامته وسلطته.

واستطاع هو نفسه بعد ذلك أن ينام نومًا هادئا، فقد كان الجيل الجديد من أعضاء الحزب من طبقة الموظفين الضعاف الذين يتحكم فيهم الخوف، كان يميل إلى اختيار «الفعالين» المنفذين ويكره المفكرين والمتطلعين للمثل العليا والآراء النظرية.

أما ستالين نفسه فكان عبقريًا في فن الإدارة، كما أنه كان ذا مقدرة عجيبة على تدارك أخطائه أو دفنها، ولا شك أن الأمر كان يتطلب مهارة خاصة في اختيار المخلصين،

والبحث عن نواحي نبوغهم، ثم التغلب بعد ذلك على أطماعهم: إما بالمكافأة أو الإهمال، وإما بالمديح أو الإغراء، وإما ببث الأمل أو

التهديد، وكان ستالين ماكرًا يزن الأمور والتيارات المختلفة ويرقى دائمًا فوق الأحداث في غير تسرع.

ولم يفته، أو قل: إنه لم ينس زعيم اليساريين الذي كان يعيش بعيدًا عنه في عالم آخر، فأرسل إليه شيوعيًا إسبانيًا اسمه ميركادير، وساعده أحد أعضاء الحزب الشيوعي في نيويورك، واشترك الاثنان في مقتل تروتسكي في مكسيكو سيتي، بعد أن ذرعا نصف الكرة الأرضية في سبيل الوصول إليه.

وكان من أظرف ما رواه خروشيشيف في خطابه المشهور الذي ندد فيه بستالين وكشف الستار فيه عن أساليبه، تلك القصة التي ذكر فيها أنه في إحدى المناسبات أثناء سفره مع بولجانين بالسيارة، قال له بولجانين هذه العبارة:

لقد كان يحدث أحيانًا أن يذهب المرء إلى منزل ستالين بدعوة منه كصديق، ولكنه بعد أن يجلس مع ستالين لا يعرف إلى أين سيرسل به في نهاية الدعوة... فهل يعود إلى منزله أم إلى السجن؟

ولم يكن للعاطفة تأثير على تصرفاته، بل لقد قال البعض: إنه إذا كان للصخر عاطفة فلستالين عاطفة... وإذا كانت له أعصاب فإنها تجري في جلمود!

ومع ذلك فقد كان يبدو إنسانًا حساسًا في بعض الأوقات، ولما ماتت زوجته الثانية في عام ١٩٣٢ لم يقم بإحراق جثتها، بل دفنها في قبر فاخر في دير «العذارى الجدد» الذي كان مقبرة للأرستقراطية القديمة. وأعد له مدخلًا سريًا خاصًا وكان يزوره بالليل، وقد برر البعض تصرف ستالين هذا بأن ضميره كان يؤنبه دائمًا على موت هذه الزوجة الثانية التي كان يحبها...

وكان من العيوب التي نسبها خروشيشيف إلى ستالين «القحة»، فقد قال السكرتير العام للحزب الشيوعي في خطابه الذي هاجم فيه ستالين وأساليبه:

لقد استطاع لينين أن يكتشف في شخصية ستالين في الوقت المناسب تلك العيوب والخصائص السلبية التي أدت فيما بعد إلى نتائج خطيرة، وإذا كان لينين يخشى ما عسى أن يصيب الحزب والنظام السوفييتي بعد وفاته فقد حلل شخصية ستالين تحليلًا دقيقًا، وأشار إلى أنه من الضروري بحث مسألة إبعاده عن سكرتيرية اللجنة المركزية بسبب وقاحته البالغة، وافتقاره إلى حسن التصرف حيال رفاقه، وإساءته البالغة لاستخدام سلطته.

ففي ديسمبر من عام ١٩٢٢ قال لينين في خطاب بعث به إلى مؤتمر الحزب: بعد أن احتل الرفيق ستالين مركز السكرتير العام للحزب أصبحت في يده سلطة غير محدودة، ولست متأكدًا إذا كان يمكنه دائمًا أن يستخدم هذه السلطة بالدقة والعناية اللتين ينبغي أن تتوافر له...

ولقد قال لينين أيضًا في ذلك الخطاب: إن ستالين وقح جدًا، ولئن كان هذا العيب أمرًا يمكن التسامح فيه بين صفوفنا نحن أعضاء الحزب الشيوعي، فإنه عيب لا يمكن أن يكون موضعا للتسامح بالنسبة لرجل يشغل منصب السكرتير العام للحزب؛ ولهذا فإنني أقترح على جميع الرفاق أن يبحثوا مسألة إبعاد ستالين عن هذا المنصب وإحلال شخص آخر مكانه، على أن يكون هذا الشخص أولًا وقبل كل شيء مختلفًا عن ستالين بميزة واحدة وهي أن يكون أكثر تسامحًا، وأكثر إخلاصًا، وأكثر عطفًا مع الرفاق، وأقل حدة في الطباع...

وكان ستالين قوي الجسم، شديد الاحتمال للمتاعب رغم ما تردد

عن مرض قلبي أصيب له، وكان يعرف كيف يتحكم في أعصابه، ويلازم هدوءه، وقد كان هذا الهدوء والتحكم في الأعصاب من أكبر الأسباب التي ساعدته على الانتصار على أول خصومه: تروتسكي عندما قرر التخلص منه في سبيل الاستئثار بالسلطة.

وكان ستالين يحب الموسيقى ويهتم بها، وقد روى أحد الذين عرفوه في روسيا[١] أنه دُعي في مساء يوم ٦ أكتوبر من عام ١٩٤٧ إلى العشاء مع ستالين، وكان هناك أربعة عشر مدعوًا، فلما انتهى العشاء أخذ الحاضرون يستمعون للراديو الذي كان يذيع برنامجًا خاصًا بمناسبة عيد الثورة...

كان ستالين مبتهجًا في ذلك المساء، وعندما سمع الخطاب الذي ألقاه مولوتوف بهذه المناسبة، قال لنا ضاحكًا: لقد أوصيت مولوتوف ألا يتلعثم في خطابه أو يتلكأ في نطق الكلمات كما يفعل ملك الإنجليز، «[٢] فعندنا في مقاطعة جورجيا يقولون: «إن الذين يتلعثمون نهايتهم سيئة».

ثم ابتسم ستالين واستطرد قائلًا: ولكن ليس لمولوتوف ما يخشاه على أي حال... ما دمت أنا هنا!

وبدأ المحتفلون يستمعون بعد ذلك إلى أوبرا مشهورة من تأليف «بيجوف»، وكان اسمها: «الحياة من أجل قيصر»، وعندما مال ستالين على الراوي وقال له همسًا في أذنه: إن هذا المغفل بيجوف كان يريد إعادة كتابة هذه الأوبرا من جديد على أن يطلق عليها اسم «الحياة من أجل ستالين»، ولكن المبالغة مذمومة في كل شيء!

ويقول الراوي: إنه حدث بعد ذلك بمدة قصيرة أن فصل الموسيقي

(١) ..... جوزايف سفانيدزر من أقارب ستالين، وقد هرب من روسيا في عام ١٩٤٩.

(٢) ..... كان ملك إنجلترا جورج السادس معروفًا بالتلعثم والتلكؤ في النطق.

بيجوف من عمله، وعُزل في إحدى المصحات، وفي ذات يوم وُجد معلقًا في شجرة وقد فارق الحياة.

ووضع ستالين يده بعد ذلك على محرك المحطات في جهاز الراديو، فاستمعنا إلى موسيقى خفيفة من محطة فرنسية. وهنا هز ستالين رأسه وقال: إننا لم ننجح بعد في خلق أوبريت روسية، والواقع أننا في حاجة إلى ممثلات؛ إذ ما تكاد تظهر كوكب في عالم الغناء حتى يختطفها أحد رجالنا اختطافًا! وفي بادئ الأمر كان كالينين هو الأخصائي الأول في اختطاف الكواكب والممثلات الجميلات، أما اليوم فقد خلفه مولوتوف في ذلك...

وكان ستالين يُلمِّح إلى العلاقة التي كانت قد بدأت وقتئذ بين مولوتوف وبين مغنية الأوبرا إيرينا تشيرنوفا، حتى إنه منعها بعد ذلك من الغناء.

واستطرد ستالين بعد ذلك ضاحكًا: يبدو أنه بات ضروريًا أن نصدر قانونًا نحرم فيه على زعماء الاتحاد السوفييتي اختطاف الكواكب!

وكان ستالين يهتم أيضًا بالرقص، ولم تمنعه مشاغل الدولة ولا حرب الأعصاب، بل ولا أي حرب أخرى عن مشاهدة الرقص، وكان يحب بنوع خاص مشاهدة النجمة المشهورة «أولانوفا»، وكان إذا ذهب لمشاهدتها جلس في مقصورة خاصة لا يمكن لأحد النظارة أن يرى الجالس فيها، وهكذا كان يستمتع بمشاهدة الرقص دون أن يراه أحد.

وكثيرًا ما كان يذهب وحده لمشاهدة الرقص، فيجلس بمفرده في المقصورة ويبقى إلى نهاية الحفلة، وكان يحب أن يبدي رأيه لمدير المسرح، فيستدعيه في نهاية الحفلة ليقول له جملة قصير قد تتضمن إعجابًا أو نقدًا.

والويل لمدير المسرح إذا أبدى ستالين رأيًا يدل على عدم الإعجاب، فإن هذا كان معناه سقوط الرواية نهائيًا وفصل مدير المسرح من وظيفته.

وقد حدث مرة أن استمع ستالين إلى موسيقى جديدة من تأليف موسيقيين اثنين كانا قد نالا بعض الشهرة؛ وهما شوستا كوفيتش وبروكفيف، وبعد انتهاء الحفلة استدعاهما ستالين إليه وقال لهما: في موسيقاكما «دربكة» كثيرة... إلا أنها خالية من النغم!

ولم تقم للموسيقيين قائمة بعد هذه الحفلة!

وكان ستالين يبدو زاهدًا في أي نوع من المتع البشرية التي كان يميل إليها غيره من قادة الدول الأخرى أو حكامها، كان زاهدًا في الحياة، زاهدًا في النساء، زاهدًا في الهوايات أو جمع التحف أو طوابع البريد!

ويقول إميل لودفيج في ذلك: إنه يجد لذته الكبرى في الانتقام الصامت الذي ينزله بالدول الرأسمالية حين يدعو إلى مؤتمر يجمع فيه نفس أولئك الرجال الذين ظلوا زمنًا طويلًا وهم يحتقرونه، وبعد أن يستبقيهم على مائدته لتناول الطعام ويتبادل معهم شراب الأنخاب حتى الساعة الخامسة صباحًا ينصرف إلى فراشه وهو يقهقه ضاحكًا ساخرًا. إن أذكى خصومه يفضلون لقاءه ومقابلته وهو يقوم بدور المضيف.

وقد أعجب روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة بستالين، وعبَّر عن ذلك الإعجاب أكثر من مرة.

ولكن على حد قول لودفيج: إن أصحاب هذه الشخصيات المتثاقلة البطيئة الحركة التي تميل للعزلة لا يمكن أن ينسوا أي إساءة تلحق بهم؛ إنهم يحملون ذلك الحقد الدفين الذي لا يموت، وهو ما يتميز به الفيل!

ولم يشعر ستالين في أي يوم من الأيام بأن أحدًا من الناس قد أسدى إليه جميلًا من أي نوع كان، ولذلك كان من الطبيعي أن يذكر كل من أساء إليه وأن يحاول الانتقام.

وحصل ستالين على أعظم مجد في حياته بعد الحرب العالمية

الثانية؛ إذ وضعت ألمانيا الشرقية كما وضع جزء من برلين تحت حكمه، كما تحول عدد من الدول الأوروبية إلى الشيوعية دون ثورة، تمامًا كما تحول ستالين نفسه من الثائر إلى الوطني، وهكذا وجد الثمر يسقط في يده ناضجًا شهيًا... ذلك الثمر الذي حاول في شبابه المجهول أن ينتزعه من مكانه بالقوة...

لقد بدأ حياته بمهاجمة مصرف... وانتهى به الأمر بعد ذلك إلى أن أصبح من أصحاب المصارف!

وروى إميل لودفيج أنه عندما قابل ستالين خطر له أن يُلقي عليه هذا السؤال: هل تؤمن بالقدر؟

وبدا على وجه ستالين عندما سمع هذا السؤال شيء من الجد، ثم فكر قليلًا وقال: كلا، أنا لا أؤمن بالقدر، إن القدر مظلوم دائمًا، وإن هو إلا فكرة سخيفة!

وضحك على طريقته الصماء، ثم كرر كلمة «القدر» باللغة الألمانية عدة مرات: شيكسال! شيكسال!

واستطرد يقول باللغة الروسية: لقد كان القدر شيئًا يتفق مع حياة الإغريق؛ إذ كانت لهم آلهتهم التي تنظم لهم أمورهم من فوق!

وقال له إميل لودفيج: ولكنك اجتزت مئات من المواقف الحرجة؛ إذ دخلت السجن، وأرسلت إلى المنفى، ونظمت الثورات، واشتركت في حروب... فهل تعتبر من قبيل الصدفة المحضة أنك نجوت من جميع هذه المواقف الحرجة، وأن أحدًا غيرك لم يخلفك على مقعدك هذا حتى الآن؟

فأجاب ستالين بصوت واضح له طابعه: كلا، إنها ليست الصدفة المحضة، ولكن هناك أسبابًا داخلية وخارجية هي التي حالت دون موتي،

ومع ذلك فإن حادثًا واحدًا لو وقع لي لكان كفيلًا بأن يجيء بغيري إلى مكاني: فالقدر ضد القانون، وفيه شيء من الغموض والسحر لا أؤمن به، ومن المسلم به طبعًا أن هناك أسبابًا ساعدتني على اجتياز المخاطر... وهذا ما لا يمكن أن يحدث بمحض الصدفة.

ويستطرد إميل لودفيج فيقول: «وكان صدى كلمة «القدر» القوية لا يزال يدوي في أذني عندما صعدت إلى العربة التي كانت تنظرني لأغادر بها المكان، وفكرت وأنا أترك ورائي تلك القلعة التي عاش فيها القياصرة وحكموا منها»[1] بلادهم في ابن الفلاح، الذي قدم من ولاية جورجيا وبات الآن يضحك ساخرًا متحديًا عندما يذكر أحد كلمة «القدر» أمامه!»

وفي الساحة الخارجية للكرملين وجدت صفًا من المدافع القديمة التي كان ضوء الغروب الخافت قد بدأ يلقي عليها ظلالًا شاحبة، ورأيت على فوهة كل مدفع منها حرف «ن» بارزًا مطليًا بالذهب اللامع[2].

تلك كانت شارة الضابط الفرنسي الصغير على معدات الموت التي أحضرها معه من بلاده لكي يغزو بها روسيا، وتذكرت عندئذ أن نابليون كان قد قال لجيته: «لماذا نتحدث عن القدر ونعلق عليه أهمية؟! إن السياسة في عصرنا هذا هي التي تُسيِّر القدر!»

ستالين والنساء!

تزوج ستالين لأول مرة في عام ١٩١٣، وتوفيت زوجته الأولى في عام ١٩١٧ بعد أن تركت له ابنًا واحدًا...

والمعلومات قليلة عن زوجته الأولى «كاترين»؛ وذلك لأنه عندما تزوج

---

(١) ..... يقصد الكرملين.

(٢) ..... مدافع فرنسية من مخلفات حملة نابليون الفاشلة على روسيا.

لأول مرة كان لا يزال مجاهدًا مغمورًا لا يهتم أحد بتقصي أحواله أو تاريخه أو علاقاته، ولكن المعروف أنها كانت فتاة شابة قليلة التعليم، لكن حياتهما كانت تعسة للغاية؛ فقد كان ستالين مطاردًا بصفة دائمة من البوليس، فلم يكن يستقر في بيته أيامًا حتى يغادره هاربًا من جديد تحت جنح الظلام، فلم تنقض على زواجهما أربع سنوات حتى ماتت كاترين بداء الصدر.

أما عن زوجته الثانية فقد رُوي أن ستالين اجتمع في يوم من الأيام ببعض مستشاريه وشهدت زوجته طرفًا من هذا الاجتماع، وسمعت بعض المناقشات التي جرت في الاجتماع، وأبدت في المناقشة بعض الانتقادات لسياسة ستالين...

وغضب ستالين لتدخل زوجته وانتقادها إياه، ووقف غاضبًا ثم أمسك بيد زوجته وجذبها بقسوة حتى أخرجها من حجرة الاجتماع على مرأى من زملائه...

وعاد إليهم بعد ذلك ليستأنف المناقشة.

وبعد أيام من هذا الحادث وجدت الزوجة ميتة في حجرتها، ولم يسأل أحد كيف ماتت.

وكان ستالين قد تزوج من زوجته الثانية هذه «نادزدا» بعد عامين من وفاة زوجته الأولى «كاترين».

وكان والد «نادزدا» من زملاء ستالين الذين اشتركوا في الثورة الاشتراكية الأولى في عام ١٩١٧، وكانت «نادزدا» تعتز دائمًا بذكرى والدها، وتستشهد بأقواله، ويبدو أنها صرحت أكثر من مرة باستيائها من الأعمال التي يقوم بها البوليس السري السوفييتي «الأوجبيو»، وانتشرت تعليقاتها اللاذعة عن هذا البوليس في بعض الأوساط.

وفي ٨ نوفمبر من عام ١٩٣٢ أُعلن خبر وفاتها فى ظروف الحادث الذي ذكرناه، مع أنها شوهدت قبل ذلك بيومين في أحد المسارح. وقيل للناس في تعليل وفاتها الفجائية: إنها أصيبت بالتهاب حاد للزائدة الدودية، ولم يتمكن المحيطون بها من إسعافها فماتت قبل أن يحضر الأطباء أو يجروا لها الجراحة...

ولما ماتت نادزدا انتشرت الإشاعات المختلفة في روسيا وتسربت إلى الخارج، فقالت بعضها: إن نادزدا قد ماتت بالسم بعد أن تناولت طعامًا كان قد أُعدّ لزوجها، وقالت إشاعات أخرى وإن لم تقدم دليلًا على ما تقول: إن نادزدا قد «ماتت» تنفيذا لأمر زوجها!

وتوفيت زوجة ستالين الشابة نادزدا وهى في الحادية والثلاثين من عمرها خلال أزمة الكولاك، وقد كتب ستالين على رخامة وضعها على قبرها: لقد ماتت ومعها ماتت آخر مشاعري الحارة

ودفنت نادزدا بجميع مظاهر التكريم في دير نوفود فيتشي بموسكو.

وعلى الرغم من عداء ستالين الشديد للدين فإنه أصدر أمره بالصلاة على جثمان «نادزدا» في الكنيسة، كما أمر بدفنها في دير يحمل اسم العذراء.

ولكن ذلك كله لم يخرس الألسنة، فإن الموت الفجائي إذا أصاب شخصًا له مكانته، وفي بلد يحكم بالطريقة التي كانت تحكم بها روسيا في عهد ستالين... يصبح موضوع تعليقات كثيرة لاذعة...

وفي عام ١٩٤٨؛ أي: بعد وفاة نادزدا بستة عشر عامًا كاملة، لوحظ أن ستالين شديد الهم والتفكير، وقال بعض المتصلين به عامئذ: إن شبح نادزدا قد بدأ يطارده ويقض عليه مضجعه، وأن هذا هو السر الغامض الذي كان يكتنف حياته في ذلك الوقت، ويدفعه إلى أحضان «روزا» الزوجة الثالثة...

متظاهرًا بالهدوء رغم ما كان يعتمل في نفسه من عواطف متضاربة لعل مصدرها الشعور بالندم أو الأسف.

وحدث فى عام ١٩٢٤ أن زار مهندس أمريكي كبير روسيا وطلب مقابلة ستالين، فاستقبله ودعاه إلى البقاء في ضيافته عدة أيام ليستشيره في بعض المسائل الفنية، وقبل المهندس الأمريكي الدعوة، وفي ذات يوم كان ستالين وضيفه يتناولان الطعام وحدهما، ولما جلسا إلى المائدة ظهرت خادمة شابة أحضرت أطباق الطعام ووضعتها على طرف المائدة ثم انصرفت دون أن تتولى تقديم الطعام كما جرت العادة.

وقام ستالين بنفسه وأخذ يقدم الطعام بنفسه لضيفه مما أثار دهشة الضيف، ولكنه لم يحاول معرفة حقيقة الأمر. وفي المساء تكرر نفس الأمر؛ إذ أحضرت الفتاة الطعام وتركته عند طرف المائدة ثم خرجت، وقام ستالين مرة أخرى وبدأ يقدم الطعام لضيفه.

ولما بدأ الاثنان يشربان القهوة بعد انتهاء العشاء التفت سيد روسيا إلى ضيفه الأمريكي وقال له: هل رأيت هذه الفتاة التي أحضرت الطعام ثم أبت أن تقوم على خدمتنا؟

فأجاب الضيف: نعم!

وقال ستالين وهو يبتسم: لقد انقضى عليها ثلاث سنوات وهى لا تغير هذه العادة! إنهم يقولون: إنني السيد المطلق الذي يحكم ٢٠٠ مليون نسمة، وها أنت ترى بنفسك أنني عاجز عن إصدار أمر صغير لهذه الفتاة... إنها طالبة في الجامعة تشتغل في أوقات الفراغ بالخدمة، وهي تكتفي بإحضار أطباق الطعام ثم تتركها عند طرف المائدة بدعوى أنه مما لا يتناسب مع كرامة أي فتاة مثقفة أن تقوم على خدمة أي رجل كان... مهما سما مركزه!

وقد اقتنعت بصواب رأيها...

وعلى الرغم من الستار الكثيف الذي أسدل على حياة ستالين الخاصة فقد عرف بعد ذلك أن حزنه وأسفه على «موت» زوجته الثانية لم يمنعه من أن يتخير لنفسه زوجة ثالثة كان اسمها «روزا كاجانوفيتش»، وكانت شقيقة لأحد وزراء المواصلات الذين اشتركوا معه في الحكم في إحدى الوزارات.

وقد عُرف عن «روزا» أو روزالي أنها تحب المرح، وأنها ذات صوت جميل، ولون وردي، وأن ستالين ينسى إلى جانبها شواغل الدولة كلها، ولم تكن تتدخل في الشئون السياسية؛ إذ يبدو أنها كانت قد تعلمت درسًا قاسيًا مما حدث للزوجة الثانية من قبلها بسبب السياسة! ولذلك فإنه لم يكن لديها أي تأثير على ستالين من هذه الناحية...

ولم ير الناس في موسكو هذه السيدة إلا مرة واحدة، وكان ذلك في حفلة إفتتاح«مترو» موسكو، وقد وجهت إليها الدعوة لهذه الحفلة بوصفها« روزا كاجانوفيتش» شقيقة وزير المواصلات، ولم يذكر قط أنها زوجة ستالين!

وقد كان هذا مما أثار تساؤل الناس مدة طويلة: هل تزوج ستالين حقًا من روزا كاجانوفيتش أم أن العلاقة بينهما كانت مجرد علاقة حب وصداقة عززها ماكان ستالين يشعر به من راحة نفسية عند هذه المرأة المرحة الطروب؟

وقد أشار إلى هذه الحقيقة ولتر بيدل سميث سفير أمريكا السابق في موسكو؛ إذ قال في معرض حديثه عن مدى جهل الناس بحقيقة ستالين: «والروس أنفسهم لا يعرفون إذا كان ستالين قد تزوج مرة أخري بعد وفاة زوجته الثانية في عام ١٩٣٢ أم لا».

وعلى أي حال فقد كانت روزا ــ أو روزالــي كاجانوفيتش وثيقة الصلة بجميع المتصلين بستالين وأفراد أسرته، حتى أبنه«فاسيلي» وإبنته«سفيتلانا» التي رزق بها من زوجته الثانية، وقد تمكنت روزا من إكتساب «فاسيلي» بنوع خاص؛إذ ساعدته على حل مشاكل شخصية كان قد سببها بإسرافه في شرب الخمر«الفودكا» وحب النساء، وإسراعه وهو يقود السيارات سرعة تزيد على الحد القانوني.

وكان أهم ما ساعد على إنتشار الشائعات فيما يتعلق بحقيقة علاقة ستالين بروزا كاجانوفيتش، وهل هي علاقة زواج أم علاقة حب فقط، أنه كان لايقيم معها؛ إذ إنه كان يفضل أثناء إقامته في موسكو أن يعيش وحده، ولذلك وضعها هي في «فيلا» كان يملكها بضواحي«أوسوفا» القريبة من موسكو، وكان يتردد عليها في تلك«الفيلا» كلما أراد، وخاصة بعد أن يشهد حفلة موسيقية أو مسرحية فقد كان يحب أن يتجه إليها بعد إنتهاء الرقص أو التمثيل ليقضى معها بقية السهرة ويتناول معها وجبة الليل، وهي غير وجبة العشاء التي كان يتناولها قبل الذهاب إلي المسرح.

وكانت روزا تستعد لزياراته المفاجئة فتعد له السجائر التي يدخنها، وخمر القوقاز الذي كان يفضله علي غيره، فقد كان ستالين يفضل السجائر، وإن كان يدخن الغليون أحيانا أمام الجماهير.

وكان عدد كبير من الخدم والحشم يقوم على خدمة روزا في منزلها بخلاف عدد آخر من رجال البوليس السري كان يتولى حراستها، وكان عدد البوليس السرى يتضاعف طبعا كلما حضر ستالين لزيارتها.

وكانت روزا من الأشخاص القلائل الذين سمح لهم ستالين أن يخاطبوه بإسم من أسماءه الخاصة التي كان يفضلها على غيره وهو«كوبا»، كما نال

شقيق روزا وزير المواصلات نفس الإمتياز، وقد كان كوبا من الأسماء المستعارة التي إستعملها ستالين وهو يهرب من وجه البوليس القيصري الروسي عندما كان يمهد للثورة؛ ولذلك فأنه كان يعتز كثيرا بهذا الإسم ويحبه ولايسمح إلا لأوثق الأصدقاء إتصالاً به بإستعماله.

وفي عام ١٩٤٩هرب من روسيا رجل من أقارب ستالين كان إسمه «جوزيف سفانيدز»، ولجأ إلى السويد، وفي إستكهلم أطلق الرجل لسانه بالحديث عن ستالين وحياته الخاصة، وكان من بين ما قاله الرجل أن روزا كاجانوفيتش كانت زوجة غير شرعية لستالين، وأن ستالين كان يحب تغيير النساء من آن لآخر...

وقال سفانيدز: إن ستالين الجيورجياني يؤمن كسائر أهالي القوقاز بمثل ما يؤمنون به، وهو أن المرأة يجب أن تكون بالنسبة للرجل كالقمر بالنسبة إلى الشمس، ويتبعها في حركتها، ويتأثر بها في كل شيء... وفي عبارة أخري: إن الرجل يجب أن يكون كل شيء للمرأة!

وقد أشار سفانيدز إلى أن صلة ستالين«بالزوجة» الثالثة روزاكاجانوفيتش لم تدم إلى أبعد من عام ١٩٣٦؛ لأن قلب ستالين كان علق بحب إمرأة أخري صغيرة بالسن، كما أنه قد سئم روزا.

وفي هذه المرة قد أشار ستالين بالإكتفاء«بتسريح» روزاكاجانوفيتش، وكان من أهم الشروط التي تؤخذ عليها في مثل هذه الحالة الصمت التام.

كان ستالين إذ ذاك قد بلغ السابعة والخمسين من عمره، وكانت المحبوبة الجديدة سيدة صغيرة في الخامسة والعشرين من عمرها إسمها«مارينا راسكوفا»، وكان ستالين قد رآها لأول مرة في عام ١٩٣٣ عندما قدمت إليه على رأس فريق من الطيارين الروس كانوا قد إعتزموا

القيام بمحاولة للوصول إلى القطب، وكانت مارينا راسكوفا قد نشأت في منطقة بحر أزوف، وهي قريبة من مسقط رأس ستالين، ولعل ذلك من الأسباب التي قربتها إلي قلبه...

وإشتد إعجاب ستالين بجسم مارينا القوي، وقوامها الفارع، فصحبها إلى قصر«سوتشي» وهو المصيف الذى كان يفضله على غيره، وأمضى معها وقتا طيبا لم ينشغل فيه ستالين بغير النزهة في البحر والتودد إلى مارينا، وكثيرا ما رآهما سكان هذه المنطقة معاً وهما يستقلان قارب ستالين الخاص الذى كان إسمه«النسر» وقد إرتسمت على وجه كل منهما أمارات السعاده...

ولما عاد بعد ذلك إلى موسكو نمت الصداقة بين مارينا وابنة ستالين التي كان يؤثرها على غيره من أبنائه واسمها«سفيتلانا»...

وفي أوخر شهر أبريل من عام ١٩٣٧ إستدعي ستالين الماريشال فوروشيلوف، وكان موضع سره في ذلك الوقت، وصارحه بأنه قرر الزواج من مارينا، كما أخبره أن هذا الزواج لا يهم أحداً غيره ـ أى: غير ستالين ولذلك فإنه لايريد أن يسمع به أحد...

وذكر سفانيدز قريب ستالين الهارب أنه كان أحد القلائل الذين شهدوا حفل زواج ستالين الجديد، وأنه كان من بين الذين شهدوه كذلك بولجانين وفوروشيلوف ومولوتوف، وقام بالإجراءات الإدارية الخاصة بالزواج من تسجيل العقد ومايتصل به موظفان إنتدبا لهذا الغرض.

وفي المساء أقيمت حفلة صغيرة شهدها خاصة أصدقاء ستالين، وكان ستالين رائق المزاج في تلك الحفلة وبدت عليه أمارات السعادة، حتي أنه طلب من«ميكويان» أن يروي بعض النكت والقصص الفكاهية...

وضحك ستالين عندما أحضر المحتفلون«فوتوغرافاً»

وأداروا«الإسطوانات» وأخذوا يرقصون على نغماتها، وطلب بعضهم مراقصة مارينا فلم يعترض ستالين على طلباتهم، وكان الجو مرحاً.

ولما أراد فوروشيلوف أن يلقي كلمة تناسب المقام إعترض ستالين وقال له: إن الوقت ليس وقت إلقاء خطب!

وإحترم الجميع رغبة ستالين فلم يتحدث أحدهم عن زواجه وتكتموا الخبر، وكذلك لم تسير إليه الصحف إطلاقاً، وكانت مارينا نفسها قد إستفادت بدروس الماضي، وبما حدث لغيرها، فعاشت في عزلة ولم تظهر قط إلى جانب ستالين.

عندما تقابل ستالين بماذا ستشعر؟!

وصف المستر ولتر بيدل سميث، الذي تولى سفارة أمريكا في موسكو فترة من الزمن مقابلته الخاصة لستالين فقال: كان الليل صافياً وبارداً، وكانت السماء مليئة بالنجوم عندما غادرت دار السفارة إثر الساعة الثامنة والنصف مساءاً، وإنطلقت سيارة السفارة تحمل العلم الأمريكي مسرعةً فوق الجليد إلى«الأربات» الذي يمكنني أن أقول: إنه أكثر شوارع العالم إكتظاظا برجال البوليس؛ وذلك لأنه الطريق الذي يسلكه ستالين وأعضاء المكتب السياسي من مكاتبهم في الكرملين إلى منازلهم في الريف، ويقال: إن المحلات التجارية والمنازل التي تقوم على جانبي هذا الشارع يفتشها البوليس السري بمنتهي العناية والتدقيق، وكل ضيف أو زائر لا بد من التأكد من شخصيته ووضعه تحت المراقبة، ويوجد رجل بوليس على الأقل عند كل مائة ياردة، وإثنان إلى أربعة عند كل تقاطع.

وإذا ما إقتربت سيارة رسمية تتمتع بما يسمونه«إمتيازات الكرملين» فإن جميع أضواء المرور تنقلب خضراء وتعطي السيارة حق السير في الطريق الذي تريد، وعندما وصلنا إلى بوابة الدخول عند الحائط الغربي

للكرملين أوقف السيارة ضابط البوليس السري وأعوانه؛ إذ عليهم أن يتأكدوا من شخصية المارين، وأن يلقو نظرة سريعة داخل السيارة.

وقادة سيارة السفارة سيارة إرشاد وجدناها واقفة في إنتظارنا خارج البوابة الرئيسية، بينما أخذ جرس التنبيه يدق بإستمرار حتى وصلنا إلى فناء الكرملين الداخلي، ولم يستوقفنا أحد عند البوابة نفسها للتأكد من شخصيتنا، فمررنا وسط تحية الحراس وضباط البوليس السري المنوط بهم الحراسة.

ومرت السيارة وهي تنطلق من البوابة عبر الشارع الداخلي الواسع الذى زرعت على جانبيه الأشجار بالمبني الذى يضم مكاتب الماريشال ستالين وأعضاء المكتب السياسي، كما مرت بمتحف الكرملين وصالة المجلس السوفيتي الأعلى، وبكنائس الإغريق الأرثوذكس القديمة البديعة، وببرج الجرس الذي يوجد في أسفله الجرس الكبير المكسور المعروف.

ولما إقترينا من مدخل الكرملين المضيء شاهدت حاجباً في الذي الرسمي للكرملين ولونه رمادي داكن، وعلى الياقة والأكمام أشرطة مزركشة حمراء، وكان يقف معه ضابط طويل يحمل فوق أكتافه العلامات الذهبية التي تميز رتبته العسكرية، وكانت تبدو عليه مظاهر الجندية بمعطفه ذي اللون الزيتوني الداكن، وبنطلونه القصير الأزرق القاتم ذي الخطوط الحمراء، وحذائه الجلدي الطويل الأسود، وكان يضع في حزامه مثل جميع العسكريين في الكرملين مسدساً.

وعندما فتح الحاجب باب السيارة حياني هذا الضابط بإبتسامة ودية وذكر بعض كلمات بالروسية، وأشار إليَّ أن أتبعه.

وحملنا مصعد إلى الدور الثالث، وسرنا في ردهة طويلة ضيقة ذات

سقف عالٍ، وكان يقف حارس من البوليس السري في زيه الرسمي عند كل منعطف فيها، ويقتضي الدخول إلى جناح الماريشال ستالين المرور من باب مزدوج عالٍ ومبطن بجلد أخضر قاتم، ويفتح على حجرات إستقبال متتالية، وفي الثانية منها كان يوقف عدة ضباط من البوليس السري قريباً من مكتب كان يجلس عليه رجل كامل الصلع في زيه الرسمي، وعلى كتفيه شارة الجنرال، وعرفت فيما بعد أنه سكرتير ستالين في مجلس الوزراء.

وتوقفنا في هذه الحجرة حتى أبلغ نبأ وصولنا، ثم أدخل بي إلى حجرة إجتماع كان يقف في طرفها الأخر ستالين ومعه مولوتوف وبافلوف الموظف الشاب المحبوب بوزارة الخارجية والذي إشتغل مترجماً للثلاثة الكبار[1] في طهران ويالتا وبوتسدام.

وحياني ستالين رسمياً وصافحت بلوتوف وبافلوف، ثم أشار لنا ستالين إلي المائدة لنجلس عليها. وجلس عليها مواجهاً لي وظهره إلى الحائط المعلق عليها صور مارشالي روسيا العظميين سفروف وكتزوف، وجلس مولوتوف إلي يمين ستالين، ولكنه لم يشترك في المناقشة إلا في مناسبة أو إثنتين عندما أسرَّ إلى المارشال يذكره ببعض النقاط، وجلس بافلوف بين ستالين وبيني، وقام بالترجمة لكلينا بأن كان يدون في إختزال عبارات كل متحدث ثم يقوم بترجمة ما دوَّن بعد إنتهاء كل متحدث، وكانت إنجليزيته ممتازه.

وبدأ ستالين المحادثة بالتحية شبه الرسمية المعتادة، وبالإستفسار عن رحلتي من الولايات المتحدة، والسؤال عن صحة الرئيس ترومان[2]

(١) ..... الثلاثة الكبار:ستالين، وروزفلت«أو ترومان»، وتشرشل.

(٢) ..... تمت هذه المقابلة في عام ١٩٤٦.

معبرا عن أمله في أن يكون متمتعا بصحة جيدة، ثم أشار إلى إتحادنا في الحرب وذكر أني معروف جيدا للجيش والشعب في روسيا.

فناولته بعد ذلك على الفور رسالة الرئيس ترومان، فسلمها إلي بافلوف الذي قرأها له بالروسية، وأنصت إليها ستالين رأسه ولم يعلق عليها بكلمة واحدة مما أثار عجبي.

وبعد ساعتين عندما إنتهي حديثنا، عاد ستالين فأشار إلى دعوة الرئيس تورمان له وقال:«لقد كنت أود كثيراً أن أزورالولايات المتحدة، ولكن السن يقتضي مني ضريبته، فأطبائي يحرمون عليَّ السفر لمسافات طويلة، كما أني ألتزم نظاماً دقيقاً في الطعام،سأكتب إلى الرئيس تورمان وأخبره أنني لا أستطيع تلبية دعوته؛ إذ يجب على الواحد منا أن يحافظ على صحته، لقد كان الرئيس روزفلت ذا تقدير عظيم لواجباته وإحساس عظيم بمسؤلياته، ولكنه لم يصن صحته، ولوفعل ذلك لكان من المحتمل أن يكون حياً إلى اليوم».

ولقد روت مدام شيروتي زوجة سفير إيطاليا الأسبق في موسكو أنها بقيت مع زوجها في موسكو أكثر من خمس سنوات، ومع ذلك لم تتح لا فرصة رؤية ستالين إلا مرة واحدة! وكانت هذه المرة الواحدة غريبة في ظروفها وملابستها.

وقد روت مدام شيروتي في كتابها الذي أصدرته في باريس بعنوان«لقد عرفتهم» قصة هذه المقابلة فقالت:

لقد كنت أتحرك شوقاً لكى أرى ستالين، ولقد كان كل الناس يتحدثون عنه، وموسكو كلها تعلق صوره، وتمنيت وقد قضيت أربع سنوات في موسكو لوتتاح لي الفرصة قبل أن أغادرها لكى أرى ستالين... وذات يوم كنت أنا وزوجي نتنزه في إحدى الغابات القريبة من موسكو، وفجأة إذا

بسائق سيارتنا يقف ويقول وهو يرتجف: ستالين وراءنا!

وكنت في دهشة من أمر السائق؛ فقد بلغ من إرتباكه أن إحتقن وجهه، ولم أستطيع أن أنظر إلى الوراء فكتفيت بالتطلع إلى المرآة العاكسة، وبعد قليل كانت سيارات ستالين السوداء الكبيرة قد لحقت بنا، وخيِّل لي أنها خففت سرعتها إنها تسير بحذائنا، والتفت وإذا وجه ستالين المعروف ينحني لينظر من نافذة السيارة نحو سيارتنا...

وبدا لي ستالين كما يبدو في الصورة.

وهكذا... ببساطة رأيت ستالين مرة واحدة خلال أربع سنوات في الإتحاد السوفيتي.

وكتب كارنيجي عن ستالين في حياته الخاصة يقول:

ويقطن ستالين بصفته الحاكم الأعلي لروسيا- بقرب القصر الإمبراطوري الذي عاش فيه القياصرة تسعة وتسعين عاماً.

وقد كان في وسعه لو أراد أن يقيم في حجرات ضخمة تزينها اللوحات الزيتية الخالدة والسجاد الثمين، وينام في الفراش الذي نام فيه القياصرة، لكن جوزيف ستالين إختار لسكنه شقة صغيرة من أربع غرف كان يقطنها يوماً أحد خدم القصر!

أما طعامه فيأتيه من مطبخ قصر«الكرملين»، ويقدمه إليه على المائدة جندي، وهونفس الطعام الذي يقدمه للمئات من موظفي القصر الحكومي!... وستالين يمقت الظهور، ويرتبك في حضرة الغرباء، وقد قضى بعد سفراء الدول العظمى أعواماً طويلة في موسكو بغير أن يقع بصرهم عليه مرة !

لكنه مولع بالتأنق في ملبسه،وله زوق خاص في إختيار نسيج ستراته وألوانها، وقد قابله المبعوث الأمريكي المرحوم ويندل ويلكي أربع أو

خمس مرات، فلم يره بنفس الثياب أكثر من مرة!... وفي إحدى المرات كانت سترته زرقاء فاتحة، وبنطلونه قرنفلي اللون، وحذاءاه أسودين لامعين...

وحين يهنئه الزائرون على المعجزات التي حققها، يكتفي بالجواب: «إنها لا شيء بالقياس إلى ما نعتزم القيام به»... وهو برغم جبروته من الفطنة بحيث يدرك أنه ليس معصوماً من الخطأ، وقد كتب مرة: «إن فضيلة الإنسان الرئيسية هي أن تكون له الشجاعة ليعترف بأخطائه، والقوة على أن يصلح هذه الأخطاء في أقصر وقت»!

وستالين يصل إلى تحقيق أغراضه، لكن أساليبه تكون أحياناً فظة قاسية... حتي لقد قال فيه لينين أبو الثورة الروسية: «هذا الطاهي سوف يترك الطعام يسخن حتي درجة الغليان؟»... ولكن لولم يعد هذا الطاهي الروسي وجبة في درجة الغليان لهتلر وأتباعه النازيين، فهل في وسعنا أن نتصور كم ألفاً آخرين من جنود الحلفاء كان لابد من التضحية بأرواحهم قبل أن تنهار قلعة هتلر؟!

ذلك أن جوزيف ستالين الطاغية ـ لكي ينقذ روسيا ساهم بنصيب كبير في إنقاذ الديموقراطية، وأنه ليفزع المرء أن يفكر فيما كان عساه أن يحدث لنا ـ لك ولي لولا بطولة جيش ستالين الأحمر وتضحياته...

عشاء مع ستالين

كان كل مَنْ يُدْعَى إلى مائدة ستالين يتلقي بطاقة دعوة إذا كانت الدعوة للعشاء، وفي الغالب كان ستالين لا يدعو ضيوفه إلا لتناول العشاء:

المارشال ستالين:

يرجو من السيد: ...

التفضيل بالإشتراك في عشاء الكرملين

مساء يوم ...

ولم يكن يحظي بهذا الشرف غير عدد محدود جدًا من الأجانب، وفي أغلب الأحوال كان ستالين إذا وجه دعوة عشاء إلى أجنبي، يهدف التحدث معه في شئون هامة تتصل بالسياسة أو غيرها.

ولم يكن من حق الضيف الأجنبي الذي يُدْعَى إلى مائدة ستالين أن يستعمل عند ذهابه إلي الكرملين سيارته الخاصة، فيما عدا السفراء، وكان هذا من باب الإحتياط على حياة ستالين.

وقبيل الميعاد المحدد للحفلة كانت إحدى سيارات الكرملين الفاخرة تتجه إلي مقر الضيف وتنقله رأساً إلى الساحة الداخلية للقصر، وعند مدخل هذه الساحة يظهر حارسان بكامل سلاحهما ويستوقفان السيارة، ويضغط أحدهما بحذائه على جرس أرضي فيسرع في الحال أربعة ضباط ممَنْ ينتظرون في حجرة الحراس لكي يتولوا فحص الأوراق الخاصة بالضيف والتحقق من سلامتها.

وتسير السيارة بعد ذلك إلى ساحة داخلية أخري، وفي تلك الساحة يستوقفها ستة ضباط آخرون لكي يعيدون فحص الأوراق وتفتيش السيارة تفتيشا دقيقاً...

وإذا إنتهت هذه المرحلة تحركت السيارة في طريقها واجتازت عدة ساحات داخلية أخرى في ظل عدد من الأعمدة التي تتميز بها قلعة الكرملين، ويرافق السيارة في تنقلها من ساحة إلى أخرى ضابط يقف على سلمها.

وأخيراً تقف السيارة أمام بيت متواضع يقف عنده حاجب يرتدي الملابس الزرقاء، وهو مخصص لإستقبال ضيوف ستالين من الأجانب، ويصعد الضيف يتقدمه الحاجب إلى الدور الثاني بواسطة المصعد، ويسير الإثنان في رواق طويل يصطف الحُجاب على جانبيه حتي يصلا إلى قاعة كسيت جدرانها بالخشب، وعلقت بها صورة زيتية تمثل جميع أبطال روسيا الوطنيين... ومن بينهم أمراء موسكو.

ويقف ستالين مرتدياً كسوة«الماريشال» وراء مائدة مصنوعة من الخشب الزان السميك وقد غطيت بالمرايا، وإعتاد ستالين أن يحي ضيفه الأجنبي بعبارة تقليدية عي: راد فيديت داس جوسبودين!

ومعناها بالروسية: إنني سعيد جداً بلقائك... ياسيدي!

وبعد أن تنتهي مراسيم التحية والترحاب يجلس الجميع طبقا لمراسيم وبروتوكول لا يقل دقة عن المراسيم التي تتبع في أي قصر ملكي عريق التقاليد!

وإلى جانب ستالين إعتاد أن يقف رجل صغير الحجم، تبدو عليه هيئة الجد، ويضع منظاراً على عينيه، وهو لا يفارق ستالين عندما يقابل ضيفا أجنبيًا.

وكان هذا الرجل و «بافلوف» مترجم ستالين الخاص، ويقول المترجم للضيف في لغة إنجليزية صحيحة:إن مستر ستالين سعيد جدًا برؤياك؟

وكان المعروف عن ستالين أنه إذا إشترك في مؤتمر من المؤتمرات جلس ليستمع أكثر مما يتكلم؛بحيث لا يتقدم إلا بملاحظات قليلة جدًا... أما في المآدب فإن ستالين كان يسرف في الحديث إلى درجة لا تتيح الفرصة لبافلوف حتى يترجم له كل كلامه.

وكان بافلوف يغادر أحيانا مكانه الملاصق لمكان ستالين ويتمشى في

الحجرة، ولكنه مايلبث أن يعود إلى الضيف في الوقت المناسب لينقل إليه ملاحظات ستالين وكلماته بعد أن يكون ستالين قد إنتهى منها!

وقبل تناول الطعام كان ستالين يرفع كأسه ليشرب النخب، وكان ستالين إذا أراد المبالغة في إكرام ضيفه أزاح من أمامه جميع المشروبات المألوفة وأمر بأن يقدم له كأس من مشروبه الخاص.

وحتي اليوم لم يعرف أحد حقيقة الشراب الذي كان يقدمه ستالين لضيوفه، وحدث مرة أن سياسيًا بريطانيًا مَمنْ كانوا يفاخرون بمعرفتهم لجميع أنواع المشروبات بمجرد تذوقها، حدث أن هذا السياسي سئل بعد تناوله العشاء مع ستالين عما إذا كان قد تذوق شراب ستالين السري، فلما رد بالإيجاب سئل عما يكون هذا الشراب، فقال: إنه ليس إلا نبيذ«البورتو» المشهور مُزج به بعض«الجين»!

ولكن السياسي المشهور إعترف مع ذلك أنه عجز عن إنتاج شراب ستالين!

وكانت مائدة ستالين من الموائد الحافلة بأشهى الأطعمة حتى في سنوات الحرب، وكانت لاتخلو يومياً من «الكفيار»، كما أن أطباق الخضر كانت قليلة بعكس أطباق اللحوم والبيض...

وبين كل طبق وآخر كان ضيوف ستالين يتناولون كؤوس الشمبانيا بدل من الماء! وكان تشرشل ممن يحبون أنواع الطعام الجيد، ومَمنْ يعرفون أسرار الطبق اللذيذ الطعم، وفي ذات مرة كان يتناول العشاء على مائدة ستالين، فسأله: ترى ماذا ستقدم لي الليلة؟

وإبتسم ستالين وقال: إنه أعد لضيفه مفاجأة!

وأكل تشرشل وإعترف بأن الطبق لذيذ، ولكنه إعترف أنه لم يعرف أي لحم يأكل؟ وإبتسم ستالين مرة أخرى وقال: أنه قدم له طبقا من لحم الأرنب!

وأثناء تناول الطعام كان يقف وراء كل ضيف من ضيوف ستالين خادم خاص يتولى تلبية كل طلب يصدر منه، وكان ستالين يتولى الذين يتولون الخدمة على مائدته من بين قدامى الجنود الذين إشتركوا في المعارك وأبلو فيها بلاءً حسناً... ولكنهم كانوا يتقنون عملهم إلى أبعد حد، ولا يختلفون عن الخدم الذين يعملون في أكبر الفنادق وأشهرها.

وبعد تناول القهوة تبدأ مرحلة الحديث الهامة، وكان يقدم لضيوفه مع القهوة أنواع الفطائر الصغيرة المصنوعة بالملح، وبعد القهوة يقبل الخدم وهم يحملون كئوس الفودكا التي لا مفر من شربها بوصفها الشراب القومي الروسي!

وإذا إنتهت القهوة والفودكا بقى الضيوف فى إنتظار إشارة تصدر إليهم من رئيس التشريفات لكى يدعوهم إلى القيام ومغادرة المائدة،وقد يستبقى ستالين أحدهم أو بعضهم لكى يوجه إليه حديثًا خاصًا.

ولم يحدث أن باح أحد قط بأسرار هذه المحادثات الليلية الخاصة التي كانت تبدأ عادة بعد العشاء، وقد تستمر حتى ساعات الصباح الأولي...

إن ستالين كان يفضل هذا الوقت من الليل لمعالجة المشاكل السياسية، وإجراء ما يريد من مباحثات خاصة، ولقد عرف على وجه التأكيدأن أخطر القرارات التى إتخذها في حياته جاءت وليدة المباحثات والمداولات الخاصة التي تمت بين منتصف الليل وفجر اليوم التالي.

كان ستالين قد تعلم شيًّا هاماً من المذابح وعمليات التطهير الواسعة التي قام بها... لقد تعلَّم وأدرك مدي تأثير قوة الرأى على عقول الناس؛ ولذلك فقد رأى أن يستغل أسطورة خلود مبدأ«اللينينية- الستالينية»، وطلب من كل كاتب وشاعر وموسيقي ورسام في الإتحاد السوفييتي أن يخصص جهوده كلها لنشر هذه الأسطورة وتأكيدها وتثبيتها في عقول

الناس عن طريق التكرار المستمر.

وهكذا أطلق إسمه على أعلى قمة في روسيا، كما أطلق إسمه أيضاً على ١٥ مدينة روسية على الأقل، وعلى عدد لايُحصى من المصانع والشوارع، وطبعت ملايين النسخ من كتبه ومؤلفاته، وأطلق على معدن جديد أكتشف في روسيا إسم«الستالينايت»، كما تعلَّم الأطفال في مدارسهم أن يقولوا كل صباح قبل أن يبدءوا دروسهم (شكرا لستالين على هذه الحياة السعيدة»!)

وإستمرت هذه الأسطورة في إعمال أثرها حتى عام ١٩٣٩ عندما نشبت الحرب العالمية الثانية، وعقد هتلر إتفاقيته مع روسيا، ولكن هذه الأسطورة لم تمنع الجيش الألماني من إكتساح الحدود الغربية لروسيا قبل أن ينقضي عامان على التحالف الألماني الروسي، وفي أربعة شهور كان الألمان قد وصلو إلى ضواحي موسكو ولييننجراد.

وقد كان من أسباب نجاح الألمان في هذا الغزو إندحار مئات من قواد روسيا، الذين كانوا يكرهون ستالين وتسليم ٤ملايين روسي من الجنود الفلاحين، ولكن في ذلك العام أيضا تدخل الحظ وجاء الشتاء حليفًا صادقًا لستالين ولروسيا، كما فعل قبل ذلك بمائة وثلاثين عاماً عندما غزا نابليون موسكو فرده الشتاء القارس مدحوراً.

وتغيرت الدعاية الشيوعية خلال الحرب العالمية، وأهملت المبادئ الماركسية، وبدأ المسئولون ينشرون الدعاية للوطنية القومية وينادون بها ويدعون الناس إلى التمسك بها.

وقال ستالين في ذلك:«فلتستلهموا الوحي من صور أسلافنا العظام:ألكسندر نفسكي، وديمتري بوزارسكي، وألكسندر سيرفوف، وميخائيل كوتوزوف».

وبدأت مصانع الأورال في إمداد الجيوش بالطائرات والأسلحة خلال شتاء ١٩٤١-١٩٤٢، وفي ذلك الشتاء خلق ستالين جيشا لروسيا جنَّد فيه كل قادر على حمل السلاح من الرجال والنساء، وكان يقود المعركه من الكرملين.

ولما حاصر الألمان ستالينجراد وأخذ قواد حاميتها من الروس يطلبون الإمـدادات، قال ستالين لرئيس هيئة أركان الحرب فاسيليفسكي: مهما صاحوا ومهما إشتكوا فلا تعدهم بإرسال أي جنود من الإحتياطي، ولا تبعث إليهم بفصيلة واحدة من حامية موسكو.

وكان تيتو فى زيـارة خاصة للكرملين قبل أن تنتهى الحرب بفترة وجيزة، فسمع ستالين يوبخ الماريشال مالينوفسكي قائلا: إنك نائم هناك! بل إنك تغط في نومك وتقول: إنه ليس عند فرق دبابات، لوكانت جدتي في مكانك لعرفت كيف تقاتل الدبابات، لقد حان الوقت لأن تتقدم، هل تفهم ماأقول؟!

وشقت جيوش ستالين طريقها نحو برلين، ولكن الثمن كان غالياً... فقد كلفه ذلك نحو٨ مليون قتيل!

وفي عام ١٩٤٣، وفي وقت كان الألمان فيه يحتلون جزءاً من روسيا أبدى ستالين إستعدادًا للتفاهم مع الحلفاء؛ أمريكا وبريطانيا، وكتب روزفلت لتشرشل يقول: أظن أن في وسعي التفاهم مع ستالين!

وفي إجتماع الأقطاب الثلاثة بطهران ألح ستالين على روزفلت أن ينزل في دار السفارة الروسية، وأثار تشرشل في ذلك الإجتماع موضوع فرض رقابة دولية على الإنتخابات البولندية، فقال تشرشل: ليس في الإمكان تنفيذ ذلك؛ لأن البولنديين شعب مستقل وهم لا يقبلون أن يراقب إنتخاباتهم أحد بالمرة!

وجاء ذكر الفاتيكان على لسان تشرشل، فتسائل ستالين: كم عدد الفرق العسكرية التي لدي البابا؟

وكتب تشرشل فيما بعد يقول: إن ستالين والروس لا يطمعون في شيء لا يخصهم، ولو أنهم قد يستولون على جزء من ألمانيا...

ولم يمر عام واحد على هذا حتى أخذ ستالين يطالب ببورت آرثر ودارين وجزر كوريل، وذلك مقابل وعد كان قد تلقاه بالحصول على هذه الجزر لو دخل حرب ضد اليابان. وقال ستالين وهو يطالب بكل هذا: إن كل ما أريد أن أعيد لروسيا ماأخذه اليابنيون من بلادي!

وقال روزفلت معلقاً على هذا: يبدو أن هذا الكلام معقول جدًّا!

أعظم قياصرة الكرملين

كانت الفكرة السائدة هي أن«المكتب السياسي» الذي يشرف على السياسة العليا في إتحاد الجمهوريات السوفييتية جسم متناسق الأعضاء، صلب العود... ولكنه في الواقع جسم مملوء بالإنقسامات الداخلية والمنافسات...

هكذا يقول الكولونيل الروسي جريجوري توكايف، وهو من كبار ضباط الجيش الروسي الذين فروا من روسيا.

ويستطرد الضابط الروسي الكبير فيقول: أنه منذ أنشيء هذا المكتب السياسي في عام ١٩١٧، لم يحدث مطلقاً أن إستكمل مدته القانونية المحددة بسنوات خمس دون أن يبتر عضو من أعضائه أو أكثر من عضو، بل لقد حدث هذا مدة الحرب نفسها، علي حين كانت الظروف تقتضي وقتئذ تركه كما هو.

وقد كان هذا المكتب أول مكتب سياسي يتكون من أفراد«الحرس القديم» أو« حرس لينين» كما كان يطلق عليه... ولم يبق من أفراد هذا

الحرس في النهاية إلا ستالين.

أما باقي الأعضاء وهم: زينوفييف وتروتسكي وكامنيف وبوخارين وكرستينسكي وغيرهم فقد بتروا من المكتب بترا ـ كل بدوره لسبب واحد هو خلافهم مع الزعيم!

وقد عيَّن ستالين مكانهم أنصاره وزملاءه في الجهاد، وكلهم من مسقط رأسه في القوقاز، وكان هذا التغيير يقتضي في كل مرة مذابح ومجازر دموية يروح ضحيتها آلاف الأشخاص.

وهكذا جمع ستالين من حوله في الكرملين حفنة من الرجال يعاونونه ويقفون وراءه، ويشتركون معه في تكييف الأحداث.

وكان أبرز رجال الكرملين هم أعضاء المكتب السياسي...

وكان أبرز أعضاء المكتب السياسي هو«ياستيلاف ميخايلوفيتش مولوتوف» الذي شغل مقعد وزير الخارجية والنائب الأول لرئيس مجلس وزراء الإتحاد السوفييتي.

وقد بدأ مولوتوف حياته السياسية سنة ١٩٠٦ بالإنضمام للحزب الشيوعي، وإنتهى به الأمر إلى أن أصبح عضواً في مجلس السوفييت الأعلى، ثم عُيِّن عضواً في المكتب السياسي سنة ١٩٢٦.

ويبدو مولوتوف أبعد مايكون في منظره عن رجال السياسة، وربما كان لينين نفسه نبي الشيوعية أصدق من رسم صورة لمولوتوف.

فقد حدث أن جاء ستالين مرة يقترح على لينين في حياته يُعيِّن مولوتوف عضواً في مجلس السوفييت الأعلى.

وسأل لينين بإستنكار: مولوتوف؟!

وقال ستالين: نعم مولوتوف، لقد كان من أوائل الذين إنضموا إلى الحزب، ثم هو من مؤسسي جريدة برافدا...

وقاطعه لينين: نعم... نعم... أعرف كل هذا، ولكن يخيل إليَّ أن مولوتوف يصلح بهيئته أن يكون موظف أرشيف!

ولقد أصبح موظف الأرشيف في رأى لينين... وزيراً لخارجية روسيا سنة ١٩٣٩.

وقد كان مولوتوف هو الذي وقَّع مع ألمانيا ميثاق عدم الإعتداء في أغسطس سنة ١٩٣٩، وكان هو الذي سافر إلى ألمانيا سنة ١٩٤١ ليُحسن العلاقات، وكانت النتيجة وقد رواها الماريشال جورنج على لسانه: بعد أن إنتهت زيارة مولوتوف ومقابلته لهتلر، إلتفت إلى الفوهرر ـ أى:هتلر ـ وقال:« يظهر أننا يجب أن نسرع بغزو روسيا»!

وقد تولي مولوتوف خلال الحرب الأخيرة علاوة على عمله كوزير للخارجية ـ مهمة الإشراف على برنامج إنتاج الدبابات.

ولقد شوهد مولوتوف يضحك مرة واحده من أعماقه، وقد روي الجنرال«ولتر بيدل سميث» سفير الولايات المتحدة السابق في موسكو قصة هذه المرة، فذكر أنه حدث أثناء إجتماع وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى في موسكو أن أقيمت حفلة عشاء تكريما لهم في السفارة الأمريكية، وفي ركن من الصالون بعد العشاء جلس مولوتوف وبيفن يتبادلان النكت الساخرة...

وفجأة سمع السفير الجنرال بيدل سميث صوت قهقهة عالية غريبة، فالتفت وإذا مصدرها مولوتوف، وأسرع السفير يتقصى السبب، وظهر أن بيفن روى نكتة عن لينين ورفض المترجم«الرفيق تريانوفسكي» الذي كان ينقل الأحاديث بين الوزيرين أن يترجمها إلى الروسية. وقال للمستر بيفن بالإنجليزية وصوته ينتفض غضباً: سيدي... نحن هنا في روسيا نروي نكتاً عن لنين!

وأحرج بيفن وتلعثم... وأحس مولوتوف أن هناك شيئاً فطلب من المترجم أن يروي القصة، ولما سمعها كانت هذه القهقهة المرتفعة... الوحيدة التي سمعها العالم علناً من مولوتوف.

وكان الرجل الثالث في الكرملين هو الرفيق«جيورجي ما كسيجليانوفتش مالنكوف».

وكان يشغل أيضاـ كمعظم أعضاء المكتب السياسي منصب نائب رئيس الوزراء.

وعُيِّن مالنكوف عضوا في المكتب السياسي من سنة ١٩٤٦، وتولى سكرتارية الحزب الشيوعي، وهو نفس المنصب الذي كان يشغله الماريشال ستالين.

وقد كان مالنكوف سكرتيراً خاصا لستالين، وكان ستالين هو الذي دربه على العمل بنفسه، وشجعه، ووضعه في أخطر المناصب.

وثمة أوجه شبه كبيرة في حياته وتاريخ حياة ستالين...

فقد كان كلاهما من جورجيا، وكلاهما شغل تقريبا نفس المناصب.

وكان الرجل الرابع في الكرملين هو«لافرنتي بافلوفيتش بيريا»، وكان إسم«بيريا» يلقي الذعر في كل مكان؛ لأن«بيريا» كان مدير البوليس السري، وكان أيضا وزير الداخلية، وعضو المكتب السياسي المسئول عن الأمن في كل أنحاء الإتحاد السوفييتي.

وكان «بيريا» من أقرب رجال الكرملين إلى ستالين الذي أيد تعيينه عضواً في المكتب السياسي سنة ١٩٤٦، وجعله عضواً في مجلس السوفييت الأعلى، ومنحه رتبة«ماريشال الإتحاد السوفييتي».

وكان«بيريا» هو الرجل المسئول عن الذرة في روسيا، فرأس شبكة الجاسوسية المخصصة لمعرفة أسرار الذرة في العالم الخارجي،

والهيئة المشرفة على موارد الذرة.

وكان كل الناس في موسكو يقولون: إن«بيريا»يجلس على نفس القمة الخطرة التي جلس عليها قبل ذلك«ياجودا» و«يزهوف»، وقد إختفى كل منهم في ظروف مثيرة، وتحقق يقيناًما تنبأ به الناس.

وكان الرجل الخامس في الكرملين هو«نيكولا ألكسندروفيتش بولجانين».

وقد كان«بولجانين» وزيرا للقوات المسلحة أيام الحرب.

ودخل المكتب السياسي عضواً إحتياطياً سنة ١٩٤٦، وفي سنة ١٩٤٨ أصبح عضواً أصيلاً في المكتب.

وكان«بولجانين» هو الوحيد تقريبا من أعضاء المكتب السياسي الذي يظهر في الحفلات الدبلوماسية في موسكو.

وكان الرجل السادس في الكرملين هو«لازار موسييفيتش كاجونوفيتش»، وكانوا يطلقون عليه في الإتحاد السوفييتي«القوميسير الحديدي»؛ ذلك لأن«كاجونوفيتش» برع في التنظيم براعة ليس لها نظيرا في العالم، حتى أصبح كل إصلاح يحتاج إلي حزم أمراً يعالجه ستالين بإرسال«كاجونوفيتش» الذي كان قبل الثورة صانع أحذية!

أما الإسم الثاني الذي كانوا يطلقونه على«كاجونوفيتش» فهو إسم:«اليهودي»؛ ذلك لأن«كاجونوفيتش» كان اليهودي الوحيد من بين أعضاء المكتب السياسي.

وكان الرجل السابع في الكلرملين هو«أندريه أندريفيتش أندرييف»، وكان يتولى الإشراف على المزارع الجماعية التي تعتبر العمود الفقري في الإقتصاد الروسي.

وكان رجل الكرملين الثامن هو«نيكيتا خروشيشف».

وكان الرجل التاسع في الكرملين هو«أليكس نيكولاييفيتش كوزيجين»، وكان يشغل في نفس الوقت منصب وزير مالية الإتحاد السوفييتي.

وكان الرجل العاشر هو«أناستاس إيفانوفيتش ميكويان»، وميكويان من مواليد أرمينيا، وكان يشغل منصب وزير التجارة الخارجية.

والرجل الحادي عشر هو الماريشال «كليمنتي أفريموفيتش فورشيلوف».

وكان آخر رجال الكرملين والرجل الثاني عشر في المكتب السياسي كان «نيكولاي ميخايلوفيتش شفرنيك»، وكان رئيس الدولة في روسيا بوصفه رئيس مجلس السوفييت الأعلى.

وكان لكل عضو من هؤلاء كامل السلطة في إتخاذ الإجراءات ضد أى فرد أو جماع داخل الإتحاد السوفييتي... وينطبق هذا القول بصفة خاصة علي ستالين وبيريا.

وكان بيريا يرأس هيئة«م. ف. د» التي تدير حركة حكم الإرهاب في روسيا كلها، ولم يكن نائب ستالين فقط،بل كان أخلص أصدقائه؛إذ كان يدين بمركزه لعلاقته بستالين بوصفه حارسه الخاص داخل المكتب السياسي، فيما كان عضو من الأعضاء يعارض ستالين حتى يجد نفسه وجهاً لوجه أمام بيريا.

وكان أقرب الأعضاء إتصالاً بمحور ستالين بيريا هو ميكويان بوصفه من أصدقاء ستالين أيضا ومن أبناء وطنه الأصلي...

ومن هؤلاء الثلاثة: ستالين وبيريا وميكويان كانت السلطة العليا في المكتب السياسي، وكان أكبر خطر يهدد هذه السلطة الثلاثية هو خطر زدانوف، فلما تخلصوا منه تنفسوا الصعداء!

وكان أكبر مَنْ يؤيد سياسة الأقطاب الثلاثة في المكتب فورشيلوف

وخرشوف... وكانا من طراز الأعضاء الذين يبدءون بقراءة التوقعات التي تزيل مايقدم إليهم من وثائق، فإذا وجدوا توقيع ستالين وقّعوا دون أن يقرءوا أو يناقشوا.

أما قوة مولوتوف فكانت ترجع إلى أنه ظل من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٣٠ يشغل منصب سكرتير اللجنة المركزية، كما أنه كان يشغل من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٤٠ منصب مجلس وزراء مجلس الشعب.

وهكذا تبوأ أكبر منصب في الإتحاد السوفييتي بعد منصب ستالين نفسه... والمعروف أن ستالين هو الذي رفعه إلى هذه المناصب العليا...

ستالين وقضية الأطباء

يبدو أن ستالين في عامه الأخير كان يفكر في مجزرة دموية كبيرة من نوع تلك المجازر التي وقعت بين عامي ١٩٣٥ و١٩٣٩.

ففي مستهل عام ١٩٥٣ وجه الإتهام إلى بعض أطباء الكرملين، وقيل: إن المسئولين قد«إكتشفوا» أن هؤلاء الإطباء دسوا السم لأندريا زادنوف ولإكسندر شيرياكوف، وكان الإعتقاد سائداً قبل ذلك بأنما قد ماتا موتاً طبيعيًا.

ومالبث الإطباء الذين وجهت إليهم هذه التهمة أن«إعترفوا» بأنهم كانوا يدبرون جرائم أخرى بدس السم البطيء المفعول لبعض ماريشالات الجيش وقواده.

وكانت إزاحة الستار عن مؤامرة الإطباء مصحوبة بالنداء المعتاد في مثل هذه الظروف؛ وهو ضرورة إتخاذ الحيطة والحذر الشديد من الجواسيس والمخربين والمدمرين، كما وجه الإهتمام إلى القوات المسئولة عن المحافظة على الأمن الداخلي بقيادة لافيرنتي بيريا بأنها

قد فشلت في حماية حياة الذين راحوا ضحية لتآمر هؤلاء الأطباء، كما فشلت في إكتشاف مؤامراتهم.

وكثر الحديث وقتئذ عن«مرض الإهمال والتساهل والغباوة والخطأ».

وقيل: إن المؤامرة أوسع نطاقا مما يتصور الناس، وإن لها إتصالات بهيئات معادية خارج الإتحاد السوفييتي، وإن عدد من الدول الإستعمارية كان يعمل على تشجيع هذه المؤامرة ويمولها، كما جاء في البلاغ الرسمي الذي نقلته وكالة تاس السوفييتية ونشرته جريدة برافدا في يو ١٣ يناير سنة ١٩٥٣ أن الهيئات التي شجعت المؤمرات في الخارج كانت تعمل علي نشر التجسس الواسع المدي والأرهاب وأعمال التخريب الأخرى في بلاد كثيرة من بينها الإتحاد السوفييتي».

وذكر البلاغ كذلك أن ثلاثة من الأطباء الذين إشتركوا في المؤامرة ثبت أنهم عملاء للمخابرات البريطانية.

وكانت الإستعدادات تجري لمحاكمة هؤلاء الأطباء والقضاء عليهم، إلا أن المنية عاجلت ستالين؛ ففي أقل من شهرين من إذاعة نبأ إكتشافها(١٣يناير١٩٥٣) سقط ستالين على فراشه مصاباً بنزيف في المخ(ليلة ٢،١ مارس ١٩٥٣)، ومع ذلك فقد عرف أن إثنين من الأطباء الذين وجهت إليهم التهمة ولم يكن عددهم يقل عن إثني عشر طبيباً، عرف أن إثنين منهم توفيا في السجن بسبب مالقياه من تعذيب.

وخير مَنْ يقص عليناَ قصة«قضية الأطباء» هو الرفيق خرشوف في خطابه المشهور الذي فضح به زعيمه السابق... فهو يقول:

والآن دعونا نتذكر قضية الأطباء المتآمرين المزعومة.

الواقع أنه لم تكن هناك قضية ما... فكل ما أقيمت عليه القضية من أسانيد هو تصريح الدكتورة تيماسول التي كان من المحتمل أنها تأثرت

أو تلقت أمرا من شخص ما«ومن المحتمل أنها كانت تتعاون بصفة غير رسمية مع إدارة البوليس السري» بأن تكتب رسالة لستالين تزعم فيها أن الأطباء كانوا يطبقون وسائل غير صحيحة في علاجه.

وهكذا كان هذا الخطاب وحده هو الدليل الذي جعل ستالين يستنتج وجود أطباء متآمرين في الإتحاد السوفييتي، ومن ثم أصدر أوامره بالقبض على جماعة من أطباء الإتحاد السوفييتي الأخصائيين البارزين، وأصدر بنفسه التوجيهات اللازمة لتحقيق الموضوع وطريقة إستجواب الأشخاص المقبوض عليهم.

وكذلك قال ستالين نفسه: إن الأكاديمي فينوجرادوف يجب أن يكبل بالأغلال، وإن شخصاً آخر يجب أن يضرب. ومن بين الحاضرين في هذا المؤتمر وزير أمن الدولة السابق الرفيق إيجناتييف الذي قال ستالين له بقسوة: إذا لم تحصل على إعترافات الأطباء فستفصل رأسك عن عنقك!

كذلك إستدعي ستالين شخصياً القاضي المحقق وأصدر إلي تعليماته، وشرح له الوسائل التي يجب أن تتبع في التحقيق.

وكانت هذه الوسائل بسيطة: إضرب وإضرب ثم إضرب مرة أخري... وبعد القبض على الأطباء بفترة قصيرة تلقينا نحن أعضاء المكتب السياسي عدة محاضر تشتمل على«إعترافات» الأطباء بجرائمهم، وبعد توزيع هذه المحاضر علينا قال لنا ستالين: إنكم عميان كالقطط الصغيرة! ماذا كان عساه يحدث لولاى؟ سوف تضيع البلاد لإنكم لا تعرفون كيف تميزون الأعداء؟!

ولقد عرضت القضية بشكل يعجز معه أى شخص عن معرفة الحقائق التي يبنى عليها التحقيق، كما كمان من المستحيل الإتصال بأولئك الذين«إعترفوا» بجرائمهم لمعرفة الحقائق منهم، ولكننا كنا

نشعر أن تلك القضية تكتنفها الشكوك؛ذلك أننا نعرف بعض هؤلاء الرجال شخصياً، فهم قد تولوا علاجنا في بعض الأحيان.

وعندما درسنا هذه« القضية» الشائنة كانت من تلفيق ستالين. ومن حسن حظ الأطباء أن ستالين لم يتسع له الوقت الذي يمكنه من إنهاء«القضية» على النحو الذي كان يرتئيه، ولهذا السبب مازال هؤلاء الأطباء على قيد الحياة.

وقد رد إليهم جميعاً إعتبارهم وهم يعملون في نفس الأماكن التي كانوا يعملون فيها من قبل، ويعالجون كبار الأفراد بما فيهم رجال الحكومة، كما أنهم يتمتعون بثقتنا الكاملة، ويؤدون واجبهم بأمانة مثلما كلنوا يفعلون من قبل.

وفاة ستالين

لم يحدث في التاريخ أن أجمع حاكم في يده مثل هذه السلطة المطلقة التي كانت لستالين، سواء كان«خان» أو«قيصر».

لقد كان أعظم من بطرس الأكبر فمد إمبراطورية روسيا حتى شملت ربع الأرض، كما إمتد ظلها إلى باقي الكرة الأرضية...

كانت كلمته«إنجيلاً»...

وكانت رغبته قانوناً!

كان الكثيرون يعتبرونه:«مَنْ لا يُقهر» و«العم» و«الأخ الكبير» و«الأب العظيم» و«القائد» و«المعلم».

وقال فيه أحد الشعراء السوفييت:

زعيم جميع الناس...

والذي يدعو المخلوقات إلى الحياة

ويوقظ الأرض!

ولكنه مع ذلك كان لا يعدو أن يكون مخلوقاً آخر بين المخلوقات وقع له مايقع لسائر المخلوقات العادية، فقبيل الساعة العاشرة من مساء يوم الخميس ٥ مارس من عام ١٩٥٣ توفي جوزيف فيساريو نوفيتش، المشهور بإسم كوبا«الذي لايقهر»، أو ستالين«رجل الصلب».

وكانت وفاته مثل حياته، يكتنفها الظلام والسر والغموض، ولم يعرف العالم الخارجي حتى في هذه المناسبة التاريخية الهامة إلا ما أراد أن يقدمه له المحيطون بستالين من معلومات.

عرف العالم أنه حدث في مساء يوم الأحد السابق للوفاة أن أصيب ستالين بإغماء نتيجة إنفجار شريان من شرايينه، وقد أعقب الإنفجار نزيف شديد في الجهة اليسرى من المخ، وكان من نتيجة ذلك أن شلت حركة يده اليمنى وساقه اليمنى كما أنه فقد النطق...

ودُعي أكبر الأطباء في الإتحاد السوفييتي، وعلى راسهم وزير الصحة ومعه تسعة من الإخصائيين لعلاج المريض، وقد فرضت عليهم جميعا رقابة شديدة، وأحصيت كل همسة من همساتهم أثناء تشاورهم.

كان هناك تسع أطباء يراقب كل واحد منهم الآخر، كما أن وزير الصحة كان يراقب الأطباء، كما أن اللجنة المركزية والحكومة كانتا تراقبان الوزير، وكان كل ذلك يعلن للعالم.

وكتم السر العظيم مدة ٤٨ ساعة فلم يعلم به إلا المقربين والأطباء... وفي صبيحة يوم الأربعاء، عند الساعة الثامنة تماماً أذيعت الأخبار على العالم كله بعد أن ردد راديو موسكو صوت أجراس الكرملين التي تلتها موسيقى حزينة هادئة، ثم تكلم الموذيع بصوت بطيء فقال:

إن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بالإتحاد السوفييتي ومجلس

وزراء إتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفييتية يعلنان ماحل من مصاب أليم بالحزب والشعب؛وهو خبر المرض الخطير الذي ألم بالرفيق ج. ف. ستالين، إذ حدث خلال ١-٢مارس أن أصيب بنزيف أثّر على أجزاء حيوية من مخه.

إن اللجنة المركزية ومجلس الوزراء ليعبران عن ثقتهما في أن الحزب وجميع أفراد الشعب السوفييتي سيظهرون في هذه الظروف أعظم الإتحاد والإئتلاف وسمو الروح المعنوية والحذر.

وتبع ذلك بلاغ ثانٍ أصدره أطباء جوزيف ستالين العشرة، وجاء به:

أتخذت في يومي ٢و٣ مارس الإجراءات الضرورية للعلاج مستهدفة تحسين التنفس المضطرب والدورة الدموية...

وفي الساعة الثانية من صباح يوم٤ مارس كانت حالة ج. ف. ستالين الصحية لاتزال خطيرة... فالتنفس ٣٦٠ في الدقيقة... والنبض ٢١٠ وهو غير منتظم بالمرة.

وتعطل صدور صحف الصباح في روسيا عدة ساعات حتي ساورت أهل موسكو وهم في طريقهم إلى العمل الشكوك والمخاوف، وأخذوا يجتمعون ويقفون أمام أكشاك بيع الصحف وهم يتساءلون ويستفسرون، وبعد الساعة الثامنة بقليل وصلت الصحف وكلها ملأى بالتفاصيل التافهة، وبدأ الروس يعلمون مثل باقي الناس فى أنحاء العالم كله تفاصيل خاصة عن ستالين وهو على فراش موته أكثر مما علموا خلال الأعوام التسعة والعشرين التي حكم فيها.

وفي داخل الكرملين كان الطب يبذل أقصى جهوده مع المريض الذي يبلغ الثالثة والسبعين من عمره، وإستعمل الأطباء البنسلين، وقناع الأكسجين، وحقن«الجلوكوز» للتغذية، و«الكافيين» للتقوية، بل لقد

إستعملوا وسائل قديمة في العلاج ومنها طريقة الدود الذي وضعوه لكي يمتص الدم من بعض أوردته!

وصدر بلاغ آخر:

في خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية ظللت حالة ستالين خطيرة، وإستمر النزيف في المخ فأثَّر على الأعصاب، وعلى التنفس، وعلى الدورة الدموية، والمريض في حالة غيبوبة... وفقدان تام للوعي.

وتغير الجو فجأة فانقلب من سماء مارس الصافية إلى سحب داكنة وثلوج متساقطة، وأخذ الناس يجتمعون في كل أنحاء روسيا حول مكبرات الصوت وحول الأمكنة التي كانت تعلق فيها النشرات، وفي موسكو تجمع عدد كبير من الناس أمام بوبات الكرملين، وكانوا يرتجفون من شدة البرد وهم يقفون تحت وابل من الثلوج المتساقطة وقد إرتدوا جميعاً الملابس الثقيلة...

كان الحزن الشديد بادياً على وجوههم...

وكانوا يتبادلون الهمسات إذا أرادوا أن يتحدثوا...

وإنسابت الدموع في عيون كثيرين...

وكان بعضهم يتشنج من البكاء...

وبعد أربع عشر ساعة صدرت النشرة الطبية الثالثة، وقد جاء بها:

خلال ليلة الأربعاء والجزء الأول من النهار ساءت حالة جوزيف ستالين، وعند الساعة الثامنة ذا الصباح بدت بعض علامات تشير إلى إنهيار... وفي الساعة الحادية عشر والنصف حدث إنهيار ثانٍ خطير...

ودعا رؤساء رجال الدين من مختلف الأديان والملل جميع أتباعهم إلى إقامة الصلوات حتى يمن الله بالشفاء على رجل كان ينكر وجود الله!

وإستمر الأطباء داخل الكرملين في القيام بجهودهم... وكانت

حركاتهم تحصى عليهم وتراقب بكل دقة، فقد كان«القتل بمساعدة الطب» فنًا معروفاً في ذلك العالم الذي بناه ستالين، وكان خلفاؤه يسعون إلى تسجيل لحظات زعيمهم الأخيرة وما يطرأ في كل ثانية منها بكل عناية...

ودُعي«أفراد الأسرة» للحضور، وكان بينهم إبنه فاسيلي،وكان سنه إذ سنه إذ ذاك ٣٢ عاماً، وكان يشغل وظيفة قائد القوات الجوية، وجاءت كذلك إبنته«سفتلانا» وكان سنها ٣٠ عاماً، ولم يذكر أحد زوجة ستالين الثالثة روزا شقيقة زميله القديم لازار كاجونوفيتش.

ولكن الرجل المحتضر لم يستيقظ مطلقاً لكي يودع أهله وأقاربه وأصدقاءه وأبناءه...

وفي الساعة التاسعة والقيقة ٥٠ من تلك الليلة صعدت روحه إلى بارئها...

وبعد ست ساعات صدر البلاغ الرسمي التالي:

توقف عن الدق قلب الرفيق الموهوب حامل رسالة لينين، الزعيم الحكيم، معلم الحزب الشيوعي والشعب السوفييتي... جوزيف فيساريو نوفيتش ستالين.

أيها الرفقاء الأعزاء والأصدقاء.

إن الوحدة الشبيهة بالصلب والإئتلاف الوطيد بين صفوف الحزب هما الشرط الأساسي لقوته وصلابته.

إن مهمتنا هي أن نقوم على حراسة وحدة الحزب الصلبة المتكتلة كما تحرس حبات عيوننا... اليقظة السياسية العالية... عدم المهادنة ولا التردد في الصراع ضد الأعداء سواء في الداخل أو الخارج... إن أعظم واجب للحزب والحكومة هو ضمان الزعامة المستمرة الصحيحة...

وأعظم وحدة للقيادة ومنع وقوع أى نوع من الفوضى أو الذعر...

فلتحى تعاليم ماركس وأنجلز ولينين وستالين العظيمة المنتصرة.

فليحي وطننا القوي الاشتراكي!

فليحي شعبنا السوفييتي البطل!

وأعقبت ذلك حوادث غريبة: فإن وزير الصحة ترتياكوف، الذي تولي بنفسه مباشرة علاج ستالين في مرضه الأخير، إختفي دون أن يترك أثراً. وفي نفس الليلة التي مات فيها ستالين إختفي كذلك الجنرال بوسكريبيشيف رئيس سكرتارية ستالين الخاص، وهو الذي كان يعهد إليه بعمليات التطهير.

وتخلف إبن ستالين، فاسيلي، وكان قائد القوة الجوية في دائرة موسكو العسكرية عن الاشتراك فى جنازة والده، ولم يسمع عنه شئ بعد ذلك.

وإلى جانب هؤلاء إختفى أيضاً قائد حامية الكرملين في موسكو وهو الجنرال سبيرودوتوف، وكذلك قائد حامية مدينة موسكو نفسها: الجنرال سينيلوف، وقائد منطقة موسكو العسكرية: الجنرال أرتميف.

وكان قد مضى على موت ستالين ست ساعات وعشر دقائق قبل أن يعلن رجال الكرملين والمسئولون فيه هذا النبأ للعالم، ولا شك أن هذا الموت الذي أعلن عنه إما أنه قد يثير التساؤل والشكوك... بل لقد قال البعض: إن هذا الموت الذي أعلن عنه إما أنه قد جاء في أوانه، وإما أن الوقت الذي حُدِّد له كان مضبوطاً! فإن كل من كان يطلع على البلاغات المتتابعة عن المرض وتطوره كان يستنتج أن قوانين الحياة والموت تسير وراء أسوار الكرملين بشكل مختلف عن سيرها في أي مكان آخر...

يوم وفاة ستالين

وصف هارسون سالسبوري الذي كان يقوم بوظيفة مراسل جريدة النيويورك تايمز الأمريكية في روسيا، وصف موسكو يوم وفاة ستالين وأثر وفاته وصفاً دقيقاً قال فيه: حتى الساعة الخامسة صباحاً من ذلك اليوم لم يكن ثمة أى شيء غير عادي في قلب مدينة موسكو؛ فالحركة في الشوارع عادية،والبوليس العادي ساهر عند إشارات المرور وحول أركان الكرملين، وكانت الليلة التي إنقضت من ليالي مارس الباردة ولكنها لم تكن أكثر برودة من المعتاد في موسكو، وعند الفجر كان الثلج كله قد أزيل من الشوارع كما جرت العادة.

ولكن عندما أعلنت العقارب الذهبية الفخمة في الساحة الموجودة في برج سباسكي السادسة، بدأ التغيير يظهر، لقد بأت تتدفق على المدينة من كل مكان أسراب من سيارات اللوري... من شارع جوركي العريض، ومن تلال لوبيانكا، وعبر كوبري الحجري الضخم فوق نهر الموسكوفا، من جميع الأطراف كانت أسراب سيارات اللوري تتدفق على المايدين الرئيسية في المدينة.

وعلى مقاعد هذه اللوريات الخضراء كان جنود البوليس السري في ملابسهم ذات اللونين الأزرق والأحمر يجلسون كل ٢٢ في سيارة، إنها القوات الخاصة بوزارة الأمن الداخلي آتية من معسكراتها التي تقع قريباً من ضواحي موسكو، وظلت السيارات تتدفق بكثرة وتخترق شوارع المدينة حتي خيل إليَّ أول الأمر أنني إزاء«إنقلاب»، فلما بدأت هذه القوات تأخذ مراكزها إتضحت الحقيقة لي.

إن ما أراه هو حركة من أزكى الحركات العسكرية التي رأيتها في حياتي، ومن أخطرها أيضاً؛ ففي دقة عقارب الساعة بدأت قوات الأمن الداخلي تأخذ أماكنها في جميع الشوارع الرئيسية المؤدية إلى قلب المدينة، أما السيارات التابعة لها فقد كانت تقف بحيث تسد مداخل كل الشوارع الجانبية، وفي حلقات متتابعة كأنها متاريس تحكم إغلاق منافذ هذه الشوارع الجانبية تماماً.

وعندما عدت في الساعة التاسعة صباحاً إلى شارع جوركي بعد أن أرسلنا برقياتنا إلي الخارج بنبأ وفاة ستالين وجدت تغيراً آخر؛ فإلى جانب قوات الأمن المعسكرة عند النواصي بحيث تسيطر على الطرقات كلها ظهرت طوابير من الدبابات، وكنت أسمع صوت دبابات أخري تزحف في الشوارع القريبة متجهة إلى قلب المدينة أيضاً، كانت كل القوات والسيارات والدبابات تابعة لوازارة الأمن الداخلي.

لم تكن هناك كتيبة واحدة تابعة لقوات الجيش النظامي.

وأعترف بأن هذا كله لم يلفت نظري أول الأمر، ربما لأنني كثيراً ما رأيت قوات الأمن الداخلي تملأ الشوارع في خلال أيام الأحتفال؛ كيوم أول مايو ويوم ٧ نوفمير، وربما لأنني كثيراً ما رأيت المعسكرات الضخمة التي تقيم فيها هذه القوات علي طول الطرق الزراعية المحيطة بموسكو، ولم أجد غرابة في أن تظهر قوات الأمن الداخلي في هذه المناسبة الخاصة؛ فمهمتها علي أية حال هي المحافظة علي الأمن والنظام خلال الساعات التي سوف يتم فيها نقل جثمان ستالين.

وبالرغم من أن قلة عدد السيارات والأوتوبيسات جعلتني أدرك أن بعض الطرق قد أغلقت بالفعل، إلا أنه كان لا يزال ممكناً أن أدخل الميدان الأحمر، وأن أسير فيه لأرى ما هناك.

كان هناك حوالي ألفين من الناس قد تجمهروا عند بوابة سباسكي، في إنتظار خروج جثمان ستالين، كانت هذه أول مرة أري فيها تجمهراً ما في موسكو.

وبعد قليل دخلت بعض قوات الأمن الداخلي الميدان الأحمر، أغلقت الميدان أول الأمر حتي لا يدخل مزيداً من الناس، ثم بدأت تجلي الناس المتجمهرين تدريجياً وتدفعهم من حول بوابة سباسكي إلى مدخل الميدان من ناحية متحف الثورة.

كان واضحاً أن قوات الأمن لا تريد أن تخلي الميدان الأحمر وحده، بل والميادين المتصلة به أيضاً؛ ميدان مانزيتي، وميدان الأوبرا أى: تخلي قلب موسكو بأكمله، وقد أكتشفت بعد ذلك أن قوات الأمن الداخلي قد عزلت مدينة موسكو كلها أيضاً.

فبواسطة صفوف اللوريات والدبابات، وحلقات الجنود الذين يقفون كتفاً إلى كتف أغلقت هذه القوات مداخل موسكو كلها، وامتنع أى دخول أو خروج منها أو إليها...

وفي الساعة العاشرة من صباح ٦ مارس ١٩٥٣ لم يكن أى مخلوق يستطيع أن يدخل أو يخرج من موسكو إلا بأذن من وزارة الأمن الداخلي.

وفي هذه الأثناء كنت قد خرجت مع الناس عند الميدان الأحمر ولم أجد ما أستطيع أن أفعله في الشارع، فعدت إلي فندق مترو بول وأتخذت مركزاً للمراقبة في حجرة القائم بأعمال مفوضية المكسيك، وهي فى الدور الثالث، ولها نافذه كبيرة تطل علي الميدان، ومن النافذة راقبت عملية إجلاء الناس من قلب موسكو.

وعندما خلت هذه الميادين من الحركة، خيم على المدينة صمت غريب، كان النشاط الوحيد ينحصر أمام بهو الأعمده الذي كان فيما مضى نادياً

للنبلاء، وكنت أراه من الميدان، وعند ناصية شارع بوشكين كان العمال عند مبنى بهو الأعمدة ينصبون الرايات والأزهار، ويعلقون صورة ضخمة جداً لستالين تغطي طابقين من المبني.

وظهرت في الميدان سيارة نقل عادية زرقاء اللون خلفها ثلاث سيارات سوداء، جاءت من الميدان الأحمر، ووقفت سيارة النقل أمام الباب وتقدم عدد من الجنود وأخرجوا منها تابوتاً لا شك يضم جثة جوسيف ستالين، ودخلوا به إلي المبنى، لكي يرقد في نفس المكان الذي رقد فيه لينين من قبل... لكي يمر الناس من أمامه محيين.

وبدأت سيارات الليموزين تتدفق علي مبنى بهو الأعمدة، كان واضحاً أن كبار رجال الدولة قد جاءوا لتحية ستالين.

وسمعت إشاعة تقول: إن قطارات محملة بمئات الألاف من الناس وصلت إلى موسكو، وأن الناس يتدفقون من كل مكان لرؤية ستالين بعد موته، ونزلت إلى الطريق لأتأكد من ذلك، وحاولت الوصول إلى محطات السكة الحديد...

إن الحصار المضروب علي المدينة أكثف مما أحسب؛ قوات الأمن في حلقات متتالية من قلب المدينة حتى أطرافها، تعزل المدينة تماما من الداخل ومن الخارج...

وعندما عدت إلى الميدان الأحمر في صمته المخييم، وبعد أن رأيت هذه القوات الضخمة بدأت الفكرة تدق رأسي لأول مرة: أى قوات هذه التي تسيطر على المدينة؟ قوات الأمن. هل هناك قوات أخرى في المدينة؟ كلا. هل تستطيع أى قوات أخرى أن تدخل المدينة؟ كلا، إلا بإذن خاص من قوات الأمن، أو بأن تقاتل هذه القوات شارعاً شارعاً ومتراساً وراء متراس. والقوات الجوية؟لن تنفع؛ إنها ستدمر المدينة كلها، وتبقي قوات الأمن مسيطرة على كل طريق وكل نقطة إستراتيجية فيها.

وماذا عن الكرملين؟ الذين يجلسون فيه الأن جاءوا بإذن من قوات الأمن، وهم لايستطيعون الخروج إلا بإذن منها، إنهم في الواقع أسرى هذه القوات سواء كانوا يعرفون ذلك الآن أم لا يعرفونه، ورجال مثل رجال الكرملين بخبرتعم في الثورات والإنقلابات والحرب الأهلية لا يمكن أن يكونوا غير ملمين بعناصر الموقف وحقيقته، لقد كانت الحقيقة واضحة، قوية، تفرض نفسها فرضاً.

إن قوات الأمن ليست فرعاً من الحكومة؛ إنها لرجل قوي قاس ذو قدرة خارقة إسمه لافرنتي بافلوفتس بيريا، ولقد كانت قوات بيريا وسيارات بيريا ودبابات بيريا هى التى قامت بهذه المناورات العسكرية العجيبة، واستولت علي مدينة موسكو في نفس الوقت الذي كان فيه راديو موسكو يعلن نبأ وفاة ستالين علي المواطنين المذهولين...

لقد وضع بيريا يده علي موسكو في دقة الساعة ونعومتها، وإذا إستولى بيريا علي موسكو فقد إستولى في واقع الأمر على روسيا كلها.

فمنذ فجر ٦ مارس حتي عصر ٩ مارس كان بيريا هو سيد روسيا وحاكمها، كان هو الأعلى، لم يكن هناك أي فرد آخر يجسر علي تحديه،لامالينكوف ولا خرشوف ولا مولوتوف، ولا الجيش نفسه!

كان بيريا يستطيع في خلال الـ «خمسة وسبعين ساعه» التي حكم فيها أن يعلن نفسه دكتاتورًا وخليفة لستالين، ولكنه لم يوجه ضربته في هذه اللحظة بالذات، وبتأجيلها حدد مصيره.

إن الحياة التى انتهت بالإعدام ليلة عيد الميلاد ١٩٥٣ في لوبيكا قد تقرر مصيرها منذ تلك الأيام في مارس عندما فشل بيريا في استخدام سلطته.

لقد كان «استعراض القوة» الذي نفذه بيريا ناعماً بارعاً، كاملاً إلي

درجة أن أي شخص لمح ذلك لا يمكن أن يلتقط أنفاسه في هدوء إلا إذا وثق في بيريا تماماً، أو خضع لسلطته المطلقة.

وفي اليوم التالي عندما رقد ستالين بجوار لنين وقف بيريا في الميدان الأحمر جنبا إلى جنب مع مالينكوف ومولوتوف .

وعندما وقفت تحت شمس مارس الشاحبة أستمع إلى بيريا خُيِّل اليَّ أن ثمة تياراً خفياً في خطبته ينبع من ثقته المطلقة في قوته.

وفي تلك الليلة أرسلت في برقيتي إلى النيويورك تايمزأقول: «كانت نبرات مستر بيريا بالذات تنم عن ثقة ملحوظة».

ثم يضيف سالسبوري موضحاً أهمية بيريا- فيقول: إن البوليس كان أقوى جهاز فردي بالدولة كلها، كانت جذوره تمتد في جميع فروع الدولة والحزب والجيش على السواء، والأهم من ذلك أن بيريا هو المسئول عن الأبحاث الذرية والإنتاج الذري في روسيا.

كان هو الرجل الذي أشرف على إدارة القنبلة الذرية، وهو الذي أدار الجهود التي أدت بعد القبض عليه إلى تفجير القنبلة الهيدروجينية...

ولكن بيريا وغيره من الزعماء رأوا في الفترة التي أعقبت وفاة ستالين أن يتظاهروا بحرصهم التام على الوحدة أو الإتحاد، وأن يحترموا إرادة ستالين بتسليم مقاليد الأمور لمالنكوف، وهو الرجل الذي وقع عليه إختيار ستالين نفسه ليكون خليفته منذ عقد المؤتمر التاسع عشر، فقد أنتخب مالنكوف في ذلك المؤتمر لوضع التقرير السياسي العام.

كان مولوتوف قد تنحى حتى قبل وفاة ستالين عن رئاسة اللجان معتذراً بأسباب تتصل بينه وصحته، كما أنه إعتذر عن الرئاسة في حالة إختفاء ستالين.

أما خرشوف فقد كان له مالنكوف نفسه الذي عينه سكرتيراً عامًّا

للحزب دون أن يلقى إعتراضاً على ذلك.

وأما بيريا فقد كانت له أطماعه الخاصة، ولذلك فقد وقف وحده يحارب هذا الإتجاه الجماعي كما سبق له أن حارب كل ميل كان يبدو لدى أحد أعضاء مجلس الرئاسة.

وعندما أختير مالنكوف ليخلف ستالين قوبل هذا الأختيار بشيء من الدهشة؛ وذلك لأن الناس كانوا ينظرون إليه على أنه فرد عادي من أفراد الحزب، ولم يكن له ماض في الثورة الإشتراكية، وكانت تنقصه الكثير من صفات القائد...

ولكن لماذا وقع إختيار ستالين على مالنكوف ليخلفه؟ ولماذا لم يوص بإختيار مولوتوف... الذي كان المرشح الطبيعي لخلافته؟ لقد تضاربت الأقوال في ذلك وذهب البعض إلى أن مولوتوف هو الذي إعتذر عن خلافة ستالين بسبب صحته وتقدم سنه، وقال البعض الآخر: بل إن ستالين هو الذي آثر أن يختص مولوتوف برعاية إبنه وإبنته.

وقد تقدم خلفاء ستالين بعد وفاته، وعلى رأسهم مالنكوف، وجميع المظاهر تدل على وحدتهم التامة، ونشرت الصحف تأبين مالنكوف وبيريا ومولوتوف للزعيم الراحل وقد خلدوا إسمه بين أنبياء الشيوعية: ماركس وأنجلز ولينين، ولوحظ أن مولوتوف في خطبته لم يشر بالمرة إلى مالنكوف، أما بيريا فقد نعته بـ«تلميذ لينين الموهوب وزميل ستالين في السلاح».

ولكن الواقع الذي يعرفه الجميع هو أن مالنكوف لم يشترك قط في ثورة لينين التي نشبت في عام ١٩١٧، أو في الحرب الأهلية التي تلتها.

وبدأ مالنكوف يتحدث عن السلام وإمكان توطيده في أنحاء العالم.

وحدث فجأة بعد أربعة أيام من موت ستالين أن أعلن إنتهاء الحداد

عليه، وقد أعلن إنتهاء الحداد بعد سبع دقائق فقط من إغلاق ضريحه، وطلب من الناس أن ينظروا منذ الأن إلى الأمام لا إلى الخلف...

تابوت ستالين العجيب

لكي تري عزيزي القارئ تابوت ستالين العجيب ليسِ عليك إلا أن تنزل بضع درجات فتجد نفسك فوراً أمام خزانة كبيرة مصنوعة من الرخام الأخضر، وتري الخالدين، وتنظر إلى لينين النائم في تابوته البللوري، فتراه وقد أغلق عينيه، ووضع يده اليسرى على صدره، وترك يده اليمنى في إسترخاء إلى جسمه، ويستريح رأسه الكبير على وسادة من المخمل الأحمر، وقد بدت على وجهه أبتسامة، إنه ينام هناك منذ عام ١٩٢٤.

وعلى بعد خطوتين منه وفي تابوت آخر يماثل الأول تماما، وفي ظلال نفس الضوء ينام ستالين وهو مرتدي زيه العسكري، وقد حلي صدره بجميع الأوسمة التي أنعم بها عليه، ولايزال على وجهه لون الحياة، ويدرك الناظر إليه في الحال أنه لم ينقضِ على نومه المدة التي إنقضت على نوم الأول، وأنه ليس مستغرقاً في نومه إستغراق زميله وزعيمه... لينين!

ويمر الزائرون بهما، كل إثنين معا في صمت وسكون ودهشة بعد أن إنقضت عليهم الساعات وهم وقوف في الميدان الأحمر، في جو موسكو المثلج، إنتظاراً لدخول هذا الضريح،وهو البقعة الوحيدة المقدسة في العالم الشيوعي؛ إن الزائرين كانوا أشد حاجة منهم في أى يوم آخر لمشاهدة المعبودين: لينين وستالين، ووراء الأسوار العالية التي تضم الكرملين،وفي صالة العرش القديمة التي كانت تتجلى فيها عظمة وقوة القياصرة في الماضي، يجتمع المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الإتحاد السوفييتي،ولأول مرة في التاريخ ينبذ هذا المؤتمر وأعضاؤه

ذلك الزعيم الذي طالما أطلقوا عليه في الماضي إسم: صقر السلام، ووالد الشعوب، والحكيم، والذي لايقهر، ويعكس المؤتمر وأعضاؤه الدور الذي قام به كل من الإثنين اللذين رأينا مومياء كل منهما في كل تابوت من الأثنين.

إن شبح لينين ينمو ويكبر، ولأول مرة منذ ٥مارس من عام ١٩٥٣، وهو يوم أعلن لأول مرة خبر وفاة ستالين بدأ خلفاؤه وورثته ينكرون جهوده وفضله؛ لقد بدءوا يستنكرون دكتاتوريته، ويفضحون أخطاؤه، ويعترفون أن الناس قد عاشو خلال ثلاثين عاما في خضم من الأكاذيب، وأعلنوا أن الوقت قد حان لإنكار تقديس الفرد.

وهكذا تمكن هؤلاء الذين طالما أشادوا بفضائل الستالينية في الماضي من إصدار الحكم ضد أخطائها وزيفها بنفس القوة، يساعدهم في ذلك تلك المقدره العجيبة على النسيان.

والواقع انه سيكون للمؤتمر الشيوعي العشرين نفس الأهمية التاريخية التي كانت للمؤتمرات الدينية الكبرى في تاريخ المسيحية عندما كان يجتمع أقطابها لإتخاذ قرار ما يمس العقائد الدينية، إلا أن الذين إشتركوا في المؤتمر الشيوعي ممَنْ لايؤمنون بالدين، ولم يسمح بالدخول إلى المؤتمر إلا لأعضائه الذين بلغ عددهم ١٦٤٥ عضواً، ولبعض«المراقبين» الشيوعين المخلصين الذين وفدوا من دول أخري مثل: توريز الفرنسي، وشوتين الصيني، وراكوزي المجري، وبيروت البولندي.

وهؤلاء الأعضاء ال١٦٤٥ يمثلون سبعة ملايين روسي، أى: نحو٥٪ من مجموع سكان الإتحاد السوفييتي، ممن يحملون بطاقة عضوية الحزب الشيوعي؛ إنهم خلاصة الشعب الروسي، وهم يواجهون القرارات

الحاسمة في المؤتمرات، وعليهم أن يصدروا تأييدهم للرئاسة وهي تدلي إليهم بهذه القرارات.

لقد وفد ال ١٦٤٥عضواً من جميع جمهوريات الاتحاد السوفيتيى إلى موسكو، وكان من بينهم بعض المتقدمين فى السن ممكن يذكرون البطولة فى عهد لينين، عندما كان المؤتمر يعقد تلو المؤتمر، وكانت هذه المؤتمرات مسرحاً للنضال بين أقطاب المذهب الشيوعي وعلمائه وفلاسفته من أمثال: تروتسكى وبوخارين وزينوفييف، وكانت تتخلل النضال السخرية والخطب المختلف وسط الدخان المتكاثف المتصاعد من«البيب» ولفائف التبغ.

إلا أن العدد الأكبر من الأعضاء ممن يقل سنهم عن الثلاثين لم يشهدوا إلا المؤتمرات التي عقدت بين عامي ١٩٣٩و١٩٥٢، وهي المؤتمرات التي كان يرأسها «بوذا» الشيوعية، فيتربع بين كنته على منصة الرئاسة وسط مظاهر العظمة والأبهة والقوة والتمجيد، وإنهم ليذكرون آخر اجتماع لهم فى نفس النظام، وفي ظلال نفس الأنوار الساطعه المنبعثة من نفس «النجف» وفى نفس قاعه العرش... فلقد كان ذلك فى يوم ٥ أكتوبر من عام ١٩٥٢ عندما شهدوا الزعماء يدخلون بنفس النظام الدقيق واحداً تلو الآخر، فرأوا ستالين يتبعه مولوتوف ثم مالنكوف، ثم فورشيلوف، ثم بولجانين، ثم بيريا، ثم كاجانوفيتش، ثم خرشوف، ثم أندرييف، ثم ميكويان، ثم كوسجين، هؤلاء هم الآلهة الذين يعتلون منصة الرئاسة، وقام الأعضاء عندما دخل الآلهه، ثم صفقوا لهم، ثم عادوا فجلسوا.

ولكن أعضاء المؤتمر العشرين إل ١٦٤٥ دخلوا القاعة في عام ١٩٥٦، ثم استقروا في أماكنهم، وروت «برافدا» أنه ما كاد يظهر خرشوف

بصلعته اللامعة، وقامته المديدة، وما كادت أيديهم تتحرك بالتصفيق، وما كاد التصفيق الذي لا نهاية له يصل إلى أذنه حتى صاح خرشوف: لماذا تقفون. ماذا تظنون؟ هنا.. كلنا سواء! وأنتم مثلنا تماما!

بعد هذا المؤتمر كان في وسع الأعضاء بعد انصرافهم من القاعة وقبل اجتياز أسوار الكرملين العالية أن ينظروا إلى نافذة قاعة مكتب ستالين المغلقة نظرة عادية، وقد وضع من يشاء منهم يده في جيبه، في حين أنه في الاجتماعات الماضية لم يكن الواحد منهم يجرؤ على أن يتطلع بنظره إلى هذه النافذة؛ سواء كانت مغلقة أم مفتوحة.

واستغرق خطاب خرشوف التاريخي سبع ساعات، استعرض فيها مخازي العهد «الستاليني» ببلاغة أبناء الفولجا. ومحا خرشوف أو حاول أن يمحو صورة ستالين، كما رسم مكانها أو حاول أن يرسم صورة من شبح لينين نبي الشيوعية وأستاذها الأول، وإلى جانب «رفيقه» حياته ناديجدا كروبسكايا وهي تعيش إلى جانبه في الغرف الصغيرة في لندن وميونيخ وزيوريخ وجنيف.

وأخيرا عندما خرج الأعضاء من المؤتمر في مساء الثلاثاء ١٤ فبراير ١٩٥٦، خيل إليهم أنهم قلبوا صفحات من تاريخ كانوا يجهلونه، وكانت هناك عواطف مختلفة متضاربة في صدورهم؛ فإن خروشيشيف كان قد زجرهم في عدة مواضع من الخطاب؛ إذ قال مرة: إنني لا أريد أن أراكم من أجل كلمة نعم أو لا، تتنقلون في السيارات الرسمية، وكفاكم استغلالا للسائقين، اعملوا مثلي وتعلموا القيادة!

ثم نزع منظاره ذي الإطار الحديدي عن عينيه، وألقى عليهم نظرة مرحة وقال: ما لي لا أراكم تصفقون لي هذه المرة؟!

إن روسيا التي خنقها ستالين أخذت تتنفس بعد المؤتمر أحسن مما

كانت تتنفس في الماضي!

ولكن كان واضحا منذ ذلك الوقت أن خرشوف إنما يسعى إلى تسليم السلطة، وأنه يسير بخطى حثيثة حتى يصل إلى عرش ستالين، وإذا كان ستالين قد احتاج إلى عشرين عاما حتى يوطد حكمه ويقضي على منافسيه، فإن نيكيتا خرشوف لم يحتاج إلى أكثر من أربع سنوات!

وكان على خرشوف لكي يحقق غرضه أن يمحوا من الأذهان صورة ستالين، وأن يحطم تمثاله، ويكشف عن حقيقته، ويبدد الأسطورة التي انتشرت حول اسمه، ويمحو تلك الهالة التي كان هو نفسه أحد الذين طوقوا بها رأس ستالين!

ماذا بعد ستالين؟!

في النصف الأول من شهر يوليو ١٩٦٧ لم يكن في الجو السياسي مطلقا ما يوحي بوجود أزمة داخلية في روسيا، ولكن فوجئ الناس بتأجيل رحلة خرشوف رئيس الحزب وبولجانين رئيس الوزراء لتشيكوسلوفاكيا، كما فوجئوا أيضا بإلغاء الاستعراض الجوي الكبير الذي كانت حكومة موسكو قد دعت كثيرا من الدول الأخرى لمشاهدته، وأخذ زعماء الشيوعية يفدون تباعا وفي هدوء من جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي إلى موسكو.

وعرف بعد ذلك أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي قد دعيت لاجتماع غير عادي، وظهرت بعد ذلك الحلقة المفقودة لما نشرت جريدة (برافدا) في مقالها الافتتاحي مديحا للبرنامج الذي وضعه خرشوف ووافقه عليه المؤتمر العشرين للحزب في فبراير من عام ١٩٥٦.

ثم قالت صحيفة الحزب محذرة: إن الحزب ليس ناديا للمناقشات، والنظام المتناسق للحزب نظام يتقيد به جميع الأعضاء، لا مجرد الأنفار... ولكن هؤلاء الذين في القمة أيضا...

وكان خرشوف في المؤتمر العشرين للحزب قد نبذ السياسة التي سار عليها الاتحاد السوفيتي مدة ٣٥ عاما متوالية، فاستنكر سياسة «تقديس الفرد» وتأليه ستالين، كما كشف عن سياسة الإرهاب التي كان ينشرها البوليس، كما أعلن فساد تلك النظريات التي كانت تنادي بوجود (طرق مختلفة) تؤدي كلها إلى الاشتراكية، ونادى بضرورة اتباع سياسة خارجية جديدة تقوم على أساس القوة في سبيل السلام والتعايش السلمي.

وقد فهم مما نشرته برافدا أن بعض زعماء الحزب المتمسكين بسياسة ستالين قد تحدوا زعامة خرشوف، وأنه لابد من إقالتهم من مناصبهم.

كان الفصل الأخير من الصراع بين خلفاء ستالين قد بدأ رغم يمين الإخلاص للزعامة المشتركة الذي أقسموه أمام نعشه عام ١٩٥٣.

ولكن ماذا كان وراء هذه الأزمة الفجائية في الزعامة السوفييتية؟ وكيف أمكن لخرشوف الذي كان يتولى برنامج المزارع الجماعية عند وفاة ستالين أن يتقدم إلى هذا المدى... وبهذه السرعة؟

لقد كان أول من خلف ستالين كرئيس للوزراء وسكرتير أول للحزب الشيوعي هو جيورجي مالنكوف الذي كان ستالين يشمله برعايته، ويعتبره يده اليمنى، ولكن لم يمض أسبوع واحد حتى سلم مالنكوف سكرتيرية الحزب لخرشوف، وعرف أن هذا الأوكراني قد بدأ يصعد السلم، ولقد سار تماما على سياسة ستالين، فاتخذ الحزب وسيلة

للقبض على زمام السلطة، وحتى في لجنة الرئاسة التي حلفت المكتب السياسي كان يتحكم دائما في ستة أصوات من الأحد عشر صوتا التي تتكون منها اللجنة.

ولعب خرشوف الدور الأول بالاشتراك مع الجيش الأحمر في القضاء على لافرنتي بيريا رئيس البوليس السري في عهد ستالين، وكانت هذه هي المحاولة الأولى في سبيل الاستيلاء على السلطة.

وفي عام ١٩٥٥ أجبر مالنكوف على الخروج من الحكم؛ وذلك بسبب اقتراحه التحول من الصناعات الكبرى إلى بضائع الاستهلاك.

وبعد عام آخر طرد الزغيم القديم (فياشسلاف مولوتوف) من منصب وزير الخارجية؛ وذلك بسبب اقتراحه سياسة التهدئة مع يوغوسلافيا.

إلا أن لجنة الرئاسة ما لبثت بعد ذلك أن عارضت خروشيشيف ووقفت في وجهه واتهمته بأن سياسته هي التي أدت إلى نشوب الثورة في بولندا والمجر، ومرت أحرج الساعات في حياة خروشيشيف السياسية عندما اجتمعت اللجنة المركزية للحزب في ديسمبر من عام ١٩٥٦، ووافقت على اقتراح تقدم به (الجناح) الستاليني في اللجنة وهو يقضي بفرض سياسة مركزية للصناعة السوفيتية تحت قيادة دكتاتور اقتصادي جديد هو نائب الرئيس ميخائيل بيرنوكين.

ولو انتهز الستالينيون الفرصة وقتئذ وأجمعوا رأيهم لتمكنوا من طرد خروشيشيف ولكنهم ترددوا في ذلك مما ترك الباب مفتوحا لتدخل الماريشال جيورجي زوكوف وماو تسي تونج، وتمكنا بذلك من إنقاذ خروشيشيف والإبقاء عليه في منصبه... بل ربما كان تدخلهما هو الذي أنقذ حياته.

وعرف خرشوف كيف يتقهقر تقهقرا منتظما فأعلن على الملأ: «إننا

جميعا ستالينيون!»

ولكن في شهر فبراير من عام ١٩٥٧ كان خرشوف قد بدأ يستعيد سلطاته، فاجتمعت اللجنة المركزية من جديد ووافقت على مشروع تقدم به خرشوف نفسه وهو يقضي باتباع سياسة اللامركزية في الصناعة للقضاء على ما كان يعتبره بيروقراطية عقيمة.

وعارض مالنكوف في ذلك القرار، وانضم إليه مولوتوف وقطب الصناعة السوفييتية كاجانوفيتش؛ فقد تبين مالنكوف أن اتباع سياسة اللامركزية في الصناعة سوف يشتت مديري الصناعة في الاتحاد السوفييتي، وهم الذين خلق منهم مالنكوف طبقة من أقوى الطبقات في الاتحاد، كما أنه سيؤثر على قوام الصناعة الذي بناه كاجانوفيتش خلال ٢٢ عاما.

وتمكن الرجلان: مالنكوف، وكاجانوفيتش من ضم مولوتف إليهما، وقرر الثلاثة معارضة برنامج خرشوف في اجتماع دعيت إليه اللجنة المركزية في شهر يوليو ١٩٥٧.

وكان خرشوف وبولجانين يقومان بزيارة رسمية لفنلندا في شهر يونيو من عام ١٩٥٧، ولما عادا من هذه الزيارة بدأ الصراع بين الفريقين في الأسبوع الأخير من شهر يونيو ١٩٥٧، وفي لحظة من اللحظات خلال هذا الصراع تمكن الستالينيون من التحكم في الأغلبية؛ إذ انضم إليهم شبيلوف؛ وزير الخارجية السابق[١].

ووقف خرشوف يخطب، ودامت خطبته ثلاث ساعات، واتهم فيها مولوتوف ومالنكوف وكاجانوفيتش وشبيلوف بأنهم كونوا جبهة مناهضة

(١) ..... كان شبيلوف قد لقى نجاحا كبيرا كوزير لخارجية الاتحاد السوفيتي؛ إذ نجح في التقريب بين الاتحاد السوفيتي ودول الشرق الأوسط.

للحزب في موسكو، وأن أذنابهم منتشرون في روسيا .

واعترف مولوتوف ومالنكوف وكاجونوفيتش بانهم اتفقوا فعلا على معارضة خرشوف وبرنامجه، وحسم الجيش الأحمر هذا الموقف عندما أعلن الماريشال زوكوف تأييد الجيش لخرشوف.

وذكرت بلاغات الحكومة والحزب بقية القصة؛ فقد قررت اللجنة المركزية بإجماع الآراء (وقد تغيب مولوتوف عن حضورها) فصل مولوتوف ومالنكوف وكاجانوفيتش من عضوية لجنة الرئاسة وعضوية اللجنة المركزية، ومن وظائفهم التي كانوا يشغلونها في الحكومة بوصفهم النواب الأول لرئيس الـوزراء، كما فصل مولوتوف أيضا من وظيفته كوزير للرقابة (المحاسب العام)، وفصل مالنكوف أيضا من وظيفته كوزير لمحطات القوى الكهربائية، وأقيل شبيلوف من وظيفته كسكرتير للحزب، كما أغلي قرار تعيينه كعضو احتياطي في لجنة الرئاسة وعضو في اللجنة المركزية، وسمح للأربعة بالاحتفاظ بعضوية الحزب فقط.

وعرف أيضا من البلاغات الرسمية أن خرشوف لم ينجح فقط في الحصول على تأييد اللجنة المركزية في استبدال الأعضاء المطرودين بغيرهم ممن يثق بهم هو، ولكنه نجح أيضا في الحصول على موافقتها على زيادة عدد أعضاء لجنة الرئاسة وجعلها تتكون من ١٥ عضوا، وذلك حتى يتمكن من ضم عدد آخر من مؤيديه للجنة، وكان أبرز الأعضاء الجدد هو الماريشال زوكوف.

وهكذا لم تقنع الطبقة الجديدة من حكام الاتحاد السوفيتي بمحاربة ذكرى ستالين، وبتشويه سمعته وبتنحية تلميذه المختار مالنكوف، وبإعدام رئيس بوليسه بيريا، لم تقنع بكل ذلك فقررت التنكيل بأربعة من الزعماء بينهم ثلاثة من الرعيل الأول.

وأذاعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بيانا تضمن أسباب فصل

هؤلاء الأقطاب الثلاثة، وكلهم ممن عملوا إلى جانب ستالين وعاونوه طوال مدة حكمه، وتتلخص التهم التي وجهت إليهم في:

* العمل على إيجاد الفرقة في صفوف الحزب الشيوعي وقيامهم بأعمال لا تتفق مع مبادئ لينين.
* معارضة سياسة الحزب الداخلية والخارجية، والوقوف في طريق جهوده الصناعية.
* محاولة تعديل نظام الحزب وهيئاته التمثيلية المنتخبة بمعرفة لجنته المركزية.
* مقاومة سياسة لينين القائمة على التعايش السلمي بين الدول، وإحباط الجهود المبذولة لتخفيف حدة التوتر الدولي، والمعارضة في توسيع حريات وحقوق الجمهوريات التي يتألف منها الاتحاد السوفيتي.
* مقاومة الخطط والمشروعات الاقتصادية والصناعية وبخاصة ما يتصل منها بالصناعات الثقيلة.
* القصور عن فهم وإدراك التطور الزراعي، والمعارضة في إلغاء النظم البيروقراطية المركزية القديمة.
* التمسك بمبدأ حكم الفرد وسيطرته، وهو المبدأ الذي أصبح معروفا باسم «مبدأ ستالين».

وقد كان إبعاد هؤلاء الزعماء من الحزب محاولة للقضاء على زعامة عهد ستالين ورجاله في القيادة الشيوعية، وقد اتهمت جريدة (النجم الأحمر)- التي تنطق بلسان الجيش- المطرودين بالخيانة، والعمل على تعريض وسائل الدفاع السوفيتية لأخطار شديدة، بل وتقويض أركانها، وإثارة الشقاق بين الأمة والجيش، كما شن راديو موسكو حملة شعواء على المطرودين، وذكر أن الغرض من فصلهم هو المحافظة على وحدة الأمة والجيش.

كما خطب بعد ذلك خرشوف فهاجم المعزولين هجوما عنيفا وقال: إنهم كانوا يريدون الحرب ويعملون لإشعالها، ويقفون في وجه الإنتاج الروسي حتى لا يلحق بالإنتاج الأمريكي. وقال: إن الثلاثة تآمروا للسيطرة على قيادة الحزب الشيوعي.

واتهم مالنكوف بأنه ملفق مؤامرات، كما اتهم مولوتوف بأنه كان يعارض سياسة التعايش السلمي.

ويبدو وإن لم تعرف بعد جميع الحقائق، أن الجيش الروسي لعب دورا هاما في هذه الحركة التي قصد بها إقصاء آخر من بقوا من الحكام الروس ممن كانوا يؤمنون بستالين وسياسته، ولا شك أن تأييد الجيش الأحمر لحكومة خرشوف معناه أن مولوتوف وأنصاره قد انتهوا ولن تقوم لهم قائمة.

وهكذا أصبح خرشوف دكتاتورا يخلف ستالين، ولكن يبدو أن الدكتاتورية في هذه المرة دكتاتورية تحت رقابة الجيش الأحمر ووصايته، وقد فرض الجيش أول شرط له بترقية الماريشال زوكوف أعظم قواد روسيا إلى عضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي.

ويلاحظ أن ستالين كان قد نجح في تحقيق سلطاته الدكتاتورية عن طريق إنشاء البوليس السري وتعميمه،وكان البوليس السري بمثابة جيش خاص يستعمله ستالين في التجسس على الجيش الوطني نفسه، وعلى كل سلطة أخرى في البلاد.

وما كاد ستالين يختفي عن الميدان في ١٩٥٣ حتى أعلن الجيش تأييده لمالنكوف، وكان من أول الشروط التي اشترطها الجيش ثمنا لهذا التأييد هو القضاء على البوليس السري الذي كان يرأسه لابرنتي «بيريا» الرجل الذي كان اسمه يثير الذعر في روسيا.

كما طلب الجيش إعادة الماريشال زوكوف إلى موسكو وإسناد منصب حكومي له.

ونفذت شروط الجيش، واعتقل بيريا، بل ونفذ فيه حكم الإعدام، ووقف خرشوف يتهم بيريا في خطابه المشهور الذي استنكر فيه سياسة ستالين وأساليبه ويقول:

لقد لعب بيريا عدو حزبنا اللدود، وعميل المخابرات الأجنبية الذي استحوذ على ثقة ستالين دورا سافلا دنيئا في تلفيق مختلف القضايا القذرة الشائنة. فما هي الطريقة التي كان هذا الرجل يستطيع بواسطتها أن يفوز بمنصب في الحزب والدولة حتى أصبح النائب الأول لرئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي وعضوا باللجنة المركزية للمكتب السياسي لقد تأييد هذا الأفاق وارتقى السلم الحكومي على أشلاء عدد لا يحصى من الضحايا.

بل لقد اتهمه خرشوف علاوة على هذا بأنه كان عدوا للحزب.

وبينما كان الناس في العالم كله يراقبون تطورات الموقف في روسيا فوجئوا في النصف الثاني مكن شهر أكتوبر من عام ١٩٥٧ بتطهير جديد قام به خرشوف؛ فقد أقيل الماريشال زوكوف من وظيفته في الوقت الذي كان الناس فيه يظنون أن الجيش الأحمر فد بدأ يسيطر على الموقف في روسيا لأول مرة في التاريخ منذ بدأ حكم ستالين.

وأخذ العالم كله يسأل عن سر إقالة زوكوف، وعن سر هذه الإقالة عقب عودته توا من رحلة كان يقوم بها في يوغوسلافيا، وأخذ الناس يتكهنون ويعللون: فقال البعض: إن زوكوف مرشح لتولي منصب آخر كبير قد يكون منصب رئيس الدولة أو رئيس الوزراء.

وقال البعض: بل إن زوكوف خرج من منصبه نهائيا وأن مصيره هو

نفس مصير مولوتوف ومالنكوف وجاكانوفيتش وشبيلوف.

والواقع أن قرار إقالة الماريشال زوكوف من منصبه قد اتخذ أثناء غيابه في زيارته ليوغوسلافيا وألبانيا، وقد لوحظ أن القرار لم يذع إلا بعد وصوله إلى موسكو.

ولوحظ أيضا أنه عندما أذاع راديو موسكو نبأ قيام زوكوف بالطائرة من ألبانيا قال المذيع: «إن المارشال زوكوف وزير الدفاع الروسي في طريق عودته إلى الاتحاد السوفيتي!»

وبعد أربع ساعات بالضبط، وبعد هبوط طائرة زوكوف في موسكو قال الذيع: «وصل المارشال زوكوف!» دون ذكر منصبه، وبعد ذلك بقليل أذيع القرار بإعفائه.

ولا شك أن البيان الذي صدر بإعفاء زوكوف دل على وجود صراع خفي في الكرملين بين الجيش والسياسيين بعد أن كان الاعتقاد السائد و أن الحزب يعتمد اعتمادا كليا على الجيش.

والواقع أن خرشوف مدين بحياته السياسية للمارشال زوكوف؛ فقد كان للقائد الروسي الكبير وضباطه الفضل في إنقاذ خرشوف في أكثر من مناسبة؛ فليس هناك شك في أن الجيش قام بدور فعال في الأحداث التي أدت إلى اعتقال لابرنتي بيريا رئيس البوليس السري في عام ١٩٥٣ وإعدامه!

ولو أن بيريا نجح في تولي السلطة بعد موت ستالين لما عاش خرشوف!

وهناك من الأسباب أيضا ما يحمل على الاعتقاد بأن المارشال زوكوف قد لعب دورا هاما في المعركة التي قامت في صيف ١٩٥٧ عندما تخلص خرشوف من مالنكوف ومولوتوف وكاجانوفيتش.

فهل كان معنى إقالة زوكوف أن الجيش الأحمر الذي ذاق الأمرين تحت

حكم ستالين سيقبل حكم «ستالين الجديد» بنفس السهولة؟!

وبينما كان الناس يتساءلون عن أسرار إقالة زوكوف أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بيانا تندد فيه بزوكوف. وبأنه كان هو الآخر من أنصار «تقديس الفرد». وقد جاء بالبيان:

في أواخر شهر أكتوبر من هذا العام (١٩٥٧) اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي بكامل هيئتها، وبحثت للجنة الوسائل المؤدية إلى تحسين جهود الحزب السياسية في الجيش والأسطول.

وقد حققت القوات المسلحة الروسية نصرا تاريخيا في الحرب العالمية الثانية من أجل روسيا، ولهذا استحقت عن جدارة حب الشعب الروسي وثقته.

وفي سنوات ما بعد الحرب اهتم الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية بالعمل على تنمية الصناعات الثقيلة والعلوم الفنية. وأثناء هذا التطور ارتفعت القوات الروسية المسلحة إلى مركز أعلى بعد أن سلحت بجميع أنواع الأسلحة الحديثة ومن بينها الأسلحة الذرية، والهيدروجينية، والصواريخ، وأصبحت الحالة المعنوية والسياسية للقوات في مستوى عال، كما كان جميع الضباط والقواد السياسيين للجيش والبحرية مخلصين لوطنهم وللحزب الشيوعي.

ودعت الحالة الدولية المعقدة، وسباق التسلح في الدول الرأسمالية، وكذلك دواعي الدفاع عن الوطن الروسي إلى بذل الجهد المتواصل من جانب القادة. والمنظمات السياسية، ومنظمات الحزب الشيوعي في سبيل إعداد القوات إعدادا تاما، وتقوية روح النظام في صفوفها وتمرينها على الإخلاص النفسي للوطن والحزب الشيوعي، والعمل على تحقيق الراحة المعنوية والمادية للجنود.

وتنادي تعاليم لينين بأنه يجب دائما أن توجه الإدارات الحربية وجميع الإدارات الأخرى حسب الأسس التي أصدرها الحزب بواسطة اللجنة المركزية له، وتحت إشرافه.

وقد لاحظت اللجنة المركزية بكامل هيئتها أخيرا أن وزير الدفاع الروسي السابق الرفيق زوكوف خرق مبادئ لينين أثناء توليه قيادة القوات الروسية المسلحة، فقد اتبع سياسة من شأنها وقف عمل منظمات الحزب، والهيئات السياسية، والمجالس العسكرية، وتصفية نفوذ الحزب واللجنة المركزية والحكومة في الجيش والبحرية.

ووجدت اللجنة المركزية أيضا انه إلى جانب تدخل زوكوف الشخصي بدأ بعض المتزلفين والانتهازيين في الترويج لتقديس شخصيته، ومديحه وإطرائه في المحاضرات، والتقارير، والأفلام السينمائية، والنشرات التي كانت تكيل المديح لشخصه والدور الذي أداه في الحوب العالمية الأخيرة.

ولهذا، ومن أجل إرضاء الرفيق زوكوف شوهت الحقيقة عن قصة الحرب العالمية الثانية، وقلل من أهمية الجهود الجبارة التي بذلها الشعب السوفييتي أثناء الحرب، والبطولة التي أظهرتها جميع القوات المسلحة، والدور الذي لعبه القواد والسياسيون، والمقدرة التي أبداها القواد في الجبهة الأمامية في الجيش والأسطول، والدور الذي قام به الحزب الشيوعي في القيادة والتوجيه... كل ذلك قلل من شأنه في سبيل زوكوف.

وقد قدرت الحكومة والحزب خدمات الرفيق زوكوف، وأنعمت عليه بلقب مارشال الاتحاد السوفيتي، ولقب بطولة الاتحاد السوفيتي ٤ مرات، وكذلك منحته الكثير من النياشين، كما اكتسب ثقة سياسية عظيمة.

وفي الاجتماع العشرين للحزب انتخب عضوا في الحزب الشيوعي السوفيتي، واختاره الحزب عضوا بديلا في المجلس السوفيتي الأعلى،

وبعد ذلك عضوا عاملا.

ولكن الرفيق زوكوف بسبب عدم تجاوبه نفسيا مع الحزب تجاوبا تاما أساء فهم هذا التقدير له ولخدماته، وفقد التواضع في الحزب الذي علمنا إياه لينين، وبدأ يتخيل نفسه البطل الوحيد لكل الانتصارات التي حققها شعبنا والقوات المسلحة تحت قيادة الحزب الشيوعي، وخرق مبادئ الحزب الخاصة بالقوات المسلحة.

وبذلك لم يحقق زوكوف الثقة التي وضعها فيه الحزب، واتضح أنه قائد غير كفء من الناحية السياسية، كما أنه يميل إلى التهور في فهم واجبات السياسة الخارجية السوفييتية، وفهم واجباته كوزير للدفاع.

ومن أجل ما سبق ذكره وافقت اللجنة المركزية المنعقدة بكامل هيئتها على مرسوم بطرد الرفيق زوكوف من عضوية المجلس السوفيتي الأعلى واللجنة المركزية للحزب الشيوعي.

وعبرت اللجنة عن أملها وثقتها في أن يواصل الحزب توجيه جهوده في سبيل تقوية إمكانيات الدفاع عن روسيا الاشتراكية، وهو ما نص عليه القرار الصادر في الاجتماع العشرين للحزب.

انتهى بيان اللجنة المركزية

وبدلا من أن يحاول زوكوف الدفاع عن نفسه وتنفيذ التهم التي وجهتها إليه اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، فوجئ الناس مرة أخرى ب «اعترافه» بأخطائه وبصحة ما نسب إليه!

وقالت صحيفة «برافدا» إن المارشال زوكوف اعترف بأخطائه التي أدت إلى طرده من مجلس السوفييت الأعلى ومن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. وقالت الصحيفة الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الروسي: إن زوكوف تعهد بعدم تكرار هذه الأخطاء.

وقـد نشـرت الصحيفة الشيوعية اعـترافـات زوكـوف فـي مقالها الافتتاحي الذي احتل ثلاثة أعمدة جنبا إلى جنب مع البلاغ الرسمي الـذي أصدرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وأعلنت فيه طرد زوكوف من مجلس السوفييت الأعلى ومن عضوية اللجنة.

وقال زوكوف في اعترافاته أمام اللجنة التي كانت مجتمعة بكامل هيئتها: «إن هذا الاجتماع كان بمثابة مدرسة حزبية لي، إنني أشعر بأسف عميق؛ لأنني أدركت هنا أمام اللجنة فقط أهمية الأخطاء التي ارتكبتها في زعامة القوات المسلحة خلال الفترة الأخيرة بصفة خاصة، وكذلك الأخطاء السياسية التي وقعت فيها بوصفي عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وفي مجلس السوفييت الألى».

وقال زوكوف في اعترافاته: «إنني أود أن أعترف بصحة الانتقادات التي وجهت إليَّ في اجتماع اللجنة المركزية، إنني أعتبر هذه الانتقادات بمثابة مساعدة شخصية لي من جانب زملائي في الحزب، ومساعدة لبقية العسكريين على فهم مطالب وسياسة الحزب فيما يتعلق بزعامة الجيش والأسطول، وتعاليم السياسة الصحيحة للقوات المسلحة».

ومضى زوكوف الذي كان قد فصل قبل ذلك من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في عام ١٩٤٦، عندما كان ستالين لا يزال على قيد الحياة، مضى يقول: «إنني لم أستطع في ذلك الوقت أن أعترف بالأخطاء التي فصلت من أجلها من عضوية اللجنة، كما أنني لم أعترف بأن طردي من اللجنة كان إجراء صائبا، وفي الوقت نفسه رفضت الاعتراف بصحة الأخطاء المنسوبة إليَّ، أما الآن فالمسألة تختلف؛ إنني أعترف بأخطائي، وأنا مدرك لهذه الأخطاء إدراكا تاما، وأعد اللجنة المركزية للحزب بالتخلص منها تخلصا تاما».

وقد أضافت صحيفة برافدا بعض التفصيلات الأخرى إلى الأسباب التي وردت في بلاغ اللجنة المركزية للحزب الشيوعي عن طرد زوكوف، فقالت: إن زوكوف سمح لنفسه بتوجيه الإهانات إلى مرؤوسيه، وأنه لم يفهم التعاليم الخاصة بجيش دولة اشتراكية.

وقالت صحيفة الحزب الشيوعي الروسي: إن بعض الأصدقاء المقربين لزوكوف من زملائه في الحرب الأخيرة قد انقلبوا ضده أثناء اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ووصفوه «بالقصير الخطير». وقالت : إن المارشال مالينوفسكي الذي خلف زوكوف في منصبه والمارشالات كونيف وركوسنسكس وفاسيلي سكولوفسكي رئيس هيئة أركان حرب الجيش الروسي وتيموشنكو، وغيرهم من الذين عرفوا زوكوف منذ أعوام طويلة مضت قد استنكروا بالإجماع مسلكه الخاطئ الذي لا يتمشى مع سياسة الحزب عندما كان وزيرا للدفاع.

وقد لوحظ في عدة دوائر دبلوماسية أنه بالرغم من القسوة التي اقترنت بطرد زوكوف، فإنه لا يمكنه أن يدعي الجهل بأن التطهير إنما هو جزء ثابت من سياسة الحزب الشيوعي السوفييتي.

لقد عرف زوكوف وهو ضابط قديم بالجيش الأحمر وعضو مجرب في الحزب الشيوعي منذ ١٩٤٦، وهو في أوج شهرته كأكبر بطل عسكري في اتحاد الجمهوريات السوفييتية في الحرب العالمية الثانية، أن الحزب الشيوعي ودائرته الحاكمة لا تسمح لكائن أن يتدخل في سيطرته المطلقة.

وفي عام ١٩٤٦ كان ستالين- الذي أغضبه على ما يبدو نمو مكانة زوكوف وثناء على قادة الحلفاء العسكريين لما قدموه من معونة لخزيمة ألمانيا النازية- هو الذي جعل المارشال زوكوف في حكم المنفي.

فقد أسُند إلى زوكوف منصب عسكري صغير في أوديسا، وظل بعيدا عن أنظار الناس إلى أن مات ستالين في عام ١٩٥٣، فعين على الفور وزيرا للدفاع بالنيابة.

واستعانت موسكو بزوكوف في السنوات السبع التي قضاها في غربته رغم أن نشاطه ظل خافيا عن الشعب الروسي؛ إذ قيل: إنه عمل مستشارا للقوات الشيوعية الصينية التي هاجمت جمهورية كوريا في عام ١٩٥٠.

فقد ولد بمدينة ستيركوفا بالقرب من موسكو في عام ١٨٩٥، وأحرز أول امتياز عسكري أثناء خدمته بالجيش الإمبراطوري الروسي، وأنضم إلى الحزب الشيوعي في عام ١٩١٩، وسرعان ما نال شهرة واسعة، وعرف أنه من أخلص المتمسكين بالحزب.

ويبدو أن هذه الشهرة هي التي أنقذت حياته في عام ١٩٣٧ عندما قام ستالين بحركة التطهير العسكرية الدموية التي أدت إلى إعدام ٣٧٤ قائدا من قواد الجيش الأحمر و ٣٠٠٠٠ ضابط رميا بالرصاص.

وقد أرسل زوكوف في ذلك الوقت إلى الشرق الأقصى حيث نالت عمليته ضد الجيش الياباني السادس إعجاب موسكو، ورشحته للفوز بجائزة «بطل الاتحاد السوفيتي»، وشغل زوكوف المراقبين العسكريين في موسكو».

وفي عام ١٩٤١ عين زوكوف رئيسا لأركان حرب الجيش ونائبا لوزير الدفاع، ثم قامت بعد ذلك شهرته في أثناء الحرب العالمية الثانية، ولكن سرعان ما انطوى في زوايا النسيان بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٥٣.

وفي عام ١٩٥٣ بدا أن مستقبل زوكوف قد بدأ يتألق بعد فوزه برضاء الحزب، وفي فبراير عام ١٩٥٥ عين وزيرا للدفاع، وساد الاعتقاد وقتئذ بأن أقدامه قد ثبتت من جديد بين أفراد الطبقة الحاكمة.

وقد تعزز هذا الاعتقاد في صيف عام ١٩٥٧ عندما عين عضوا

في مجلس الرئاسة السوفيتي، وهي الهيئة الشيوعية المختارة التي تحكم الاتحاد السوفيتي، وفي هذه الفترة هب زوكوف إلى نجدة نيكيتا خرشوف رئيس الحزب في أثناء الكفاح على السلطة، الذي انتهى بإقصاء أربعة من الزعماء الشيوعيين القدماء وهم: مالنكوف، وملوتوف، وكاجانوفيتش، وشبيلوف.

ومما يستحق الذكر أن خرشوف قال في خطابه بالمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في فبراير ١٩٥٦ ما يلي:

لقد كان ستالين شديد الاهتمام بتقدير الرفيق زوكوف كزعيم عسكري، وقد قلت له وقتئذ: لقد عرفت زوكوف وقتا طويلا، فهو قائد كفء وزعيم عسكري قدير. وبعد الحرب بدأ ستالين نفسه قد اختلق هذه التهم بفرض الإقلال من دور المارشال زوكوف ومواهبه العسكرية.

وتضمن أمر طرد زوكوف اتهامه بما يلي:

بمساعدة المتملقين ولاعقي الأحذية بدأ إطراء «زوكوف» إلى حد رفعه إلى السموات العلا.. وهكذا شوه التاريخ الحقيقي للحزب لإرضاء زوكوف...

واتضح أنه زعيم سياسي غير رزين يميل إلى المغامرة، سواء في فهم أعم أعمال السياسة السوفييتية الخارجية، أو في قيادة وزارة الدفاع.

ولا شك أن خرشوف قد تفوق وهو يسعى إلى الانفراد بالسلطة على أساليب ستالين، وحقق أهدافه بسرعة تزيد على السرعة التي استغرقها ستالين، حتى تمكن من إقصاء جميع منافسيه وإبعادهم عن الحكم؛ فإن الفلاح الذي جاء من أوكرانيا- أي: خرشوف- لم يحتج إلى أكثر من أربع سنوات بعد أن عين في منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي حتى يتغلب على جميع المنافسين، في حين أن الثائر الجيورجياني- أي: ستالين- احتاج إلى ما لا يقل عن عشرين عاما حتى يحقق نفس الهدف.

الفصل السابع

ستالين
والمادية الديالكتيكية

كان ستالين يؤمن إيمانا عميقا بما يسمي بالمذهب المادي وكان إيمانه بالمادية الديالكتيكية مطلقا لذا قام بكتابة كتاب كامل عن المادة الديالكتيكية :- وكتب فيه يقول:- المادية الديالكتيكية هي النظرية العامة للحزب الماركسي اللينيني. وقد سميت بالمادية الديالكتيكية لأن أسلوبها في النظر إلى حوادث الطبيعة، أو طريقتها في البحث والمعرفة هي ديالكتيكية، ولأن تعليلها حوادث الطبيعة وتصورها لهذه الحوادث، أي نظريتها، هي مادية.

أما المادية التاريخية فتوسع نطاق مبادئ، المادية الديالكتيكية حتى تشمل دراسة الحياة الاجتماعية، وتطبق هذه المبادئ على حوادث الحياة الاجتماعية، أي على دراسة المجتمع، وعلى دراسة تاريخ المجتمع.

وعندما يعرف ماركس وأنجلس طريقتهما الديالكتيكية، يرجعان عادة إلى هيغل[1]، باعتباره الفيلسوف الذي أبان الخطوط الأساسية

---

(١) ..... Hegel هيجل «١٧٧٠- ١٨٣٠» اشهر وأعظم الفلاسفة المثاليين الألمان. وعنوان عظمته الطريقة الديالكتيكية التي تصورها بشكل مثالي، ولكنها كانت صحيحة من حيث الأساس، وهو يذهب إلى أن الفكرة المطلقة هي المبدأ الأول والواقع الوحيد، وهي تتخذ شكلا خارجيا في الطبيعة، ثم تعود إلى نفسها بشكل العقل، والفكرة بذاتها هي خانق الطبيعة والتاريخ وس؟؟؟. وقد قلب ماركس ديالكتيك هيغل ووضعه

للديالكتيك. غير أن ذلك لا يعني أن ديالكتيك ماركس وأنجلس هو عين ديالكتيك هيغل، لأن ماركس وأنجلس لم يقتبسا من ديالكتيك هيغل سوى «نواته العقلية» وطرحا قشرته المثالية، ثم وسعاه وأنمياه، وأعطياه طابعا علميا حديثا.

يقول ماركس عن المادية الديالكتيكية:

(إن طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيغلية من حيث الأساس فحسب، بل هي ضدها تماما، فحركة الفكر، الذي يشخصه هيغل ويطلق عليه اسم «الفكرة هي في نظره، خالق الواقع وصانعه، فما الواقع إلا الشكل الحادثي للفكرة. أما في نظري، فعلى العكس، ليست حركة الفكرة سوى انعكاس الحركة الواقعية، منقولة إلى دماغ الإنسان ومستقرة فيه»

وعندما يعرف ماركس وأنجلس ماديتهما يرجعان عادة إلى فورباخ[1]، باعتباره الفيلسوف الذي أعاد إلى المادية حقوقها. غير أن ذلك لا يعني أن مادية ماركس وأنجلس هي عين مادية فورباخ. فإن ماركس وأنجلس لم يقتبسا من مادية فورباخ سوى نواتها المركزية، ثم وسعاها وجعلا منها نظرية فلسفية علمية للمادية، وطرحا عنها ما تراكم عليها من قشور مثالية وأخلاقية دينية. ومن المعلوم أن فورباخ، رغم كونه ماديا

على قنعيه بعد أن بينت له وحدة السمات والموضوع في الطبيعة وفي المجتمع البشري.

(١) ..... لودفيغ فورباخ «١٨٠٤- ١٨٧٢» فيلسوف الماني مادي أحيا وجدد مادية القرن الثامن عشر بكل صفاتها ونقائصها: بحقدها النودي على الجمود الغيبي وبميلها الواضح إلى المثالية عندما تحاول تفسير الحوادث والأعمال الاجتماعية. وكان فورباخ يقول: «أن الفكرة خرجت من الكائن، لا الكائن من الفكرة» وأن الإنسان هو نتاج الطبيعة. وتشكل لفلسفة فورباخ حلقة الانتقال من فلسفة هيغل إلى فلسفة ماركس.

من حيث الأساس، احتج على نعته بالمادية، حتى لقد قال أنجلس مرارا أن فورباخ «رغم أساسه» (المادي) «ظل سجين الحقيقة) تظهر (حال وصولنا إلى فلسفته في الدين وإلى فلسفته في الأخلاق) (فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية[1]، الألمانية- طبع موسكو ١٩٤٦ ص ٣٠- ٣٤).

أخذت كلمة ديالكتيك من الكلمة اليونانية (دياليغو) ومعناها المحادثة والمجادلة. وكان الديالكتيك يعني، في عهد الأولين، فن الوصول إلى الحقيقة باكتشاف التناقضات التي يتضمنها استدلال الخصم، وبالتغلب عليها.

وكان بعض الفلاسفة الأولين يعتبرون أن اكتشاف تناقضات الفكر والمصادقة بين الآراء هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة. فهذا الأسلوب الديالكتيكي في التفكير، الذي طبق فيما بعد على حوادث الطبيعة، أصبح الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة. إن حوادث الطبيعة، بموجب هذه الطريقة، هي متحركة متغيرة دائما وأبداً، وتطور الطبيعة هو نتيجة تطور تناقضات الطبيعة، نتيجة الفعل المتبادل بين القوى المتضادة في الطبيعة.

إن الديالكتيك هو، من حيث جوهره، ضد الميتافيزية[2] تماما.

(١) ..... كلاسيكية: الكلاسيكي نعت جامع لأمور متفرقة. فإذا أضيف إلى اللغات مثلا، أريد به اليونانية القديمة واللاتينية اللتين أوردتا العالم الغربي «والشرقي في حد ما» نماذجه الفكرية والأدبية المثلى. وإذا أضيف إلى الأدب خاصة أريد به أدب اليونان والرومان القدماء أو ما ضرب على غراره من أداب الأمم الغربية، وذلك معارضة للأدب الجديد حينا، والرومنطيقي حينا أخر، ويراد به هنا المذاهب الفلسفية التي كانت لها الغلبة أو السيادة على الأوساط الجامعية والرسمية بالمانيا، ودلالته العامة هي القديمة والأصالة واتباع السنن المفردة.

(٢) ..... الميتافيزية: وتعني حرفيا (ما وراء الطبيعة) أو (ما وراء الموجود الفيزيائي). وقد رأينا الاحتفاظ بلفظها الأصلي لأن ترجمتها لا تؤدي معناها أداء تاما، وباقي

١- تتميز الطريقة الديالكتيكية الماركسية بالخطوط الأساسية التالية:

أ)- إن الديالكتيك، خلافاً للميتافيزية، لا يعتبر الطبيعة تراكما عرضيا للأشياء، أو حوادث بعضها منفصل عن بعض، أو أحدها منعزل مستقل عن الآخر، بل يعتبر الطبيعة كلا واحدا، وتماسكا، ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً

عضويا، ويتعلق أحدها بالآخر، ويكون بعضها شرطا لبعض بصورة متقابلة.

لذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن أي حادث من حوادث الطبيعة، لا يمكن فهمه إذا نظر إليه منفردا، بمعزل عن الحوادث المحيطة به، إذ أن أي حادث في أي ميدان من ميادين الطليعة، يمكن أن ينقلب إلى عبث فارغ لا معنى له، إذا نظر إليه بمعزل عن الشروط التي تكتنفه، وإذا فصل عن هذه الشروط. وعلى العكس، يمكن فهم أي حادث من الحوادث وتبريره إذا نظر إليه من حيث ارتباطه ارتباطا لا ينفصم بالحوادث المحيطة به، أي إذا نظر إليه كما تحدده وتكيفه الحوادث التي تحيط به.

ب)- أن الديالكتيك، خلافا للميتافيزية، لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود، حالة ركود واستقرار، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين، حالة تجدد وتطور لا ينقطعان، ففيها دائما شيء يولد ويتطور، وشيء ينحل ويضمحل.

ولهذا تريد الطريقة الديالكتيكية أن لا يكتفي بالنظر إلى الحوادث

شرحها في سياق البحث. وهي، بإيجاز، تعني طريقة في التفكير الفلسفي لتتكر الروابط بين الأشياء والحوادث، والنظر إليها مفصلا بعضها عن بعض، وتعتبر الطبيعة والمجتمع في حالة جمود واستفراد، فحركة التطور في نظرها حركة نمو بسيطة وتكرار وتراكم للحوادث نفسها.

من حيث علاقات بعضها ببعض، ومن حيث تكييف بعضها لبعض بصورة متقابلة، بل أن ينظر إليها أيضا من حيث حركتها، من حيث تغيرها وتطورها، من حيث ظهورها واختفائها.

وإن المهم الجدير بالاعتبار قبل غيره في نظر الطريقة الديالكتيكية، ليس الشيء الذي يبدو، في لحظة معينة، ثابتا مستقرا وهو في الواقع آخذ في الفناء، بل المهم الجدير بالاعتبار قبل غيره في نظرها، هو الشيء الذي يولد ويتطور، ولو كان هذا الشيء يبدو في لحظة معينة غير ثابت وغير مستقر، إذا أنه ليس في نظر الطريقة الديالكتيكية من شيء لا يقهر ولا يغلب سوى الشيء الذي يولد ويتطور.

يقول أنجلس:

«إن الطبيعة بأجمعها، من أضأل الأجزاء إلى أكبر الأجسام، من حبة الرمل إلى الشمس، من البروتيست (وهي الخلية الحية الابتدائية- ملاحظة من يوسف ستالين) إلى الإنسان، هي في حركة دائمة من النشوء والاضمحلال، هي في مد لا ينقطع، في حركة وتغير مستمرين أبديين» (كارل ماركس وفريدرك أنجلس: المؤلفات الكاملة- ضد دوهرينغ[1] - ديالكتيك الطبيعة- ص ٤٩١- موسكو- الطبيعة الألمانية ١٩٣٥).

ولذا فالديالكتيك، كما يقول أنجلس:

«ينظر بالدرجة الأولى، إلى الأشياء وإلى انعكاسها العقلي، من حيث تسلسلها، من حيث حركتها، من حيث نشوئها واضمحلالها» (المرجع ذاته- ص ٢٥).

---

(١) ..... ضد دوفرينغ: مؤلف شهير وضعه فريدريك أنجلس ردا على عالم الماني اسمه دوهرينغ أحدث في وقته ضجة كبرى في ألمانيا. وقد شرح أنجلس خلال الرد عليه النظريات الماركسية الرئيسية في الفلسفة والاشتراكية والاقتصاد السياسي.

ج)- إن الديالكتيك، خلافا للميتافيزية، لا يعتبر حركة التطور حركة نمو بسيطة، لا تؤدي التغييرات الكمية فيها إلى تغييرات كيفية، بل يعتبرها تطورا ينتقل من تغييرات كمية ضئيلة وخفية إلى تغييرات ظاهرة وأساسية، أي إلى تغييرات كيفية.

وهذه التغييرات الكيفية ليست تدريجية، بل هي سريعة، فجائية، وتحدث بقفزات من حالة إلى أخرى.

وليست هذه التغييرات جائزة الوقوع، بل هي ضرورية، وهي نتيجة تراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدريجية.

ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية إن من الواجب فهم حركة التطور لا من حيث هي حركة دائرية، أو تكرار بسيط للطريق نفسه، بل من حيث هي حركة تقدمية صاعدة، وانتقال من الحالة الكيفية القديمة إلى حالة كيفية جديدة، وتطور ينتقل من البسيط إلى المركب، من الأدنى إلى الأعلى.

وأخيرا ينتقد أنجلس دوهرينغ الذي يشتم هيغل، ويختلس منه في الوقت نفسه نظريته المشهورة القائلة بأن الانتقال من عهد العالم الفاقد الحس إلى عهد الإحساس، من عهد العالم غير العضوي إلى الحياة العضوية، هو قفزة إلى حالة جديدة:

«هذا هو تماما الخط العقدي الهيغلي لعلاقات القياس، حيث تنتج في بعض النقاط العقدية، من إضافة كمية محضة، أو من حذف كمي محض، قفزة كيفية، كما هي الحال مثلا في الماء المسخن أو المبرد. فإن نقطة الغليان ونقطة التجمد فيه هما العقدتان اللتان تم فيهما، تحت الضغط العادي» القفزة إلى حالة جديدة من التجانس أي تتحول فيهما الكمية إلى كيفية.

د)- إن نقطة الابتداء في الديالكتيك، خلافا للميتافيزية، هي وجهة النظر القائمة على أن كل أشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية، لأن لها جميعها جانبا سلبيا وجانبا إيجابيا، ماضيا وحاضرا، وفيها جميعها عناصر تضمحل أو تتطور. فنضال هذه المتضادات، أي النضال بين القديم والجديد، بين ما يموت وما يولد، بين ما يفنى وما يتطور، هو المحتوى الداخلي لحركة التطور، هو المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية.

ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية، أن حركة التطور من الأدنى إلى الأعلى، لا تجري بتطور الحوادث تطورا تدريجيا متناسقا، بل بظهور التناقضات الملازمة للأشياء والحوادث ب (نضال) الاتجاهات المتضادة، التي تعمل على أساس هذه التناقضات.

يقول لينين:

«إن الديالكتيك، بالمعنى الخاص للكلمة، هو درس التناقضات في ماهية الأشياء نفسها».

ويقول في مكان آخر:

«التطور هو (صراع) المتضادات».

تلك هي بإيجاز، الخطوط الأساسية للطريقة الديالكتيكية الماركسية.

وليس من الصعب أن ندرك ما هنالك من أهمية عظمى في إخضاع دراسة الحياة الاجتماعية ودرس تاريخ المجتمع لمبادئ الطريقة الديالكتيكية، وما هنالك من أهمية عظمى في تطبيق هذه المبادئ على تاريخ المجتمع وعلى النشاط العملي لحزب البروليتاريا.

فإذا صح أن ليس في العالم حوادث منعزلة إذا صح أن كل الحوادث مرتبطة فيما بينها ويكيف بعضها البعض الآخر بصورة متبادلة، فمن

الواضح أن كل نظام اجتماعي، وكل حركة اجتماعية في التاريخ، لا ينبغي الحكم عليهما من ناحية (العدالة الأبدية)، أو من ناحية أية فكرة أخرى مقررة سلفا، كما يفعل المؤرخون على الغالب، بل ينبغي لنا أن نبني حكمنا على أساس الظروف التي ولدت هذا النظام وهذه الحركة الاجتماعية المرتبطة بها.

إن نظام الرق[١] يكون في الظروف الحاضرة

خرقا وبدعة مضادة للطبيعة ولن نظام الرق في ظروف المشاعية البدائية[٢]، الآخذ بالانحلال، هو حادث مفهوم تماما ومنطقي، لأنه يعني خطوة إلى الأمام بالنسبة لنظام المشاعية البدائية.

إن المطالبة بإقامة الجمهورية الديموقراطية البورجوازية في ظروف القيصرية، والمجتمع البورجوازي، مثلا في روسيا عام ١٩٠٥، كانت شيئا مفهوما وصحيحا وثوريا تماما، لأن الجمهورية البورجوازية كانت تعني إذ ذاك خطوة إلى الأمام. ولكن المطالبة بإقامة الجمهورية الديموقراطية البورجوازية في ظروف الاتحاد السوفياتي الحاضرة، تكون خرقا، وشيئا رجعيا مضادا للثورة، لأن الجمهورية البورجوازية هي خطوة إلى الوراء بالنسبة إلى الجمهورية السوفياتية.

---

(١) ..... الرق: هو النظام الاجتماعي الذي كان سائدا قديما في اليونان وروما وغيرهما من أقطار الدنيا، وكان قائما على استيلاء السيد «صاحب الأرض أو الأملاك إلخ» لعدد من الرقيق «العبيد». يشتريهم لعملوا في أرضه أو مشاريعه مقابل إطعامهم فقط، وكان له عليهم حق الملكية والتصرف ككل شيء أخر يملكه، فيستطيع بيعهم أو ضربهم وتجويعهم أو قتلهم.

(٢) ..... المشاعية البدائية: هي النظام الاجتماعي الذي كان موجودا في أوائل عهود البشرية (عهود ما قبل التاريخ) وكان قائما على المشاع في الأرض وفي أدوات الإنتاج البسيطة البدائية التي كان الإنسان يستعملها في الصيد أو غيره وقد انحل النظام مع تطور أدوات الإنتاج، وخلفه الرق.

كل شيء يتعلق بالظروف، بالمكان والزمان ومن الواضح أن وجود علم تاريخي، وتطور هذا العلم، شيئان مستحيلان بدون هذا الفهم التاريخي للحوادث الاجتماعية، فمثل هذا الفهم فقط يمنع علم التاريخ من أن يصبح فوضوي احتمالات وكوم أخطاء سخيفة.

وبعد، إذا صح أن العالم يتحرك ويتطور دائما وأبدا، إذا صح أن اختفاء القديم ونشوء الجديد هما قانون للتطور، أصبح من الواضح إن ليست هناك أنظمة اجتماعية ثابتة (غير قابلة للتغيير) ولا (مبادئ أبدية) للملكية الخاصة والاستثمارية، وليست هناك «أفكار أبدية» عن خضوع الفلاحين لكبار ملاكي الأرض، والعمال للرأسماليين.

وبالتالي، يمكن أن يحل النظام الاشتراكي محل النظام الرأسمالي كما حل النظام الرأسمالي في حينه محل النظام الإقطاعي.

وبالتالي، ينبغي أن نؤسس علمنا لا على الفئات الاجتماعية التي توقفت عن التطور، وإن كانت لا تزال الآن تمثل القوة السائدة، بل على الفئات الاجتماعية التي تتطور والتي لها مستقبل وإن كانت بعد، لا تمثل القوة السائدة.

في أعوام ١٨٨٠- ١٨٩٠، عهد نضال الماركسيين ضد الشعبيين، كانت البروليتاريا في روسيا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى جماهير الفلاحين الفرديين الذين كانوا يؤلفون أكثرية السكان الكبرى. ولكن البروليتاريا كانت تتطور من حيث هي طبقة، بينما كانت جماهير الفلاحين، من حيث هي طبقة، في انحلال. ونظرا لأن البروليتاريا كانت تتطور من حيث هي طبقة، أسس الماركسيون عملهم عليها. وهم لم يخطئوا في ذلك. لأنه من المعلوم أن البروليتاريا التي لم تكن سوى قوة قليلة الأهمية، أصبحت فيما بعد، قوة تاريخية وسياسية من الدرجة الأولى.

فإذن: لأجل اجتناب الخطأ في السياسة يجب النظر إلى الأمام لا إلى الوراء.

وبعد، إذا صح أن الانتقال من التغيرات الكمية البطيئة إلى تغيرات كيفية فجائية وسريعة، هو قانون للتطور، فمن الواضح أن الثورات التي تقوم بها الطبقات المضطهدة هي حادث طبيعي تماما، ولا مناص منه.

وبالتالي، فالانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وتحرر الطبقة العاملة من النير الرأسمالي، يمكن تحقيقهما، لا بتغيرات بسيطة بطيئة ولا بإصلاحات، بل فقط بتغيير كيفي للنظام الرأسمالي فقط، أي بالثورة.

وإذن لأجل اجتناب الخطأ في السياسة يجب أن يكون الإنسان ثورياً، لا إصلاحياً.

وبعد، إذا صح أن التطور يجري بانبثاق التناقضات الداخلية، وبالنزاع بين القوى المتضادة على أساس هذه التناقضات، وأن غاية هذا النزاع هي قهر هذه التناقضات والتغلب عليها، فمن الواضح أن نضال البروليتاريا الطبقي هو حادث طبيعي تماماً، ولا مناص منه.

وبالتالي، لا ينبغي إخفاء تناقضات النظام الرأسمالي، بل ينبغي إبرازها وعرضها، ولا ينبغي خنق النضال الطبقي، بل ينبغي القيام به إلى النهاية.

وإذن، لأجل اجتناب الخطأ في السياسة ينبغي إتباع سياسة بروليتارية طبقية حازمة، لا سياسة إصلاحية تقول بالتناسق بين مصالح البروليتاريا ومصالح البورجوازية «ولا سياسة تفاهمية تقول بـ«إدماج» الرأسمالية في الاشتراكية.

هذا ما تقول به الطريقة الديالكتيكية الماركسية لدى تطبيقها على

الحياة الاجتماعية، على تاريخ المجتمع.

أما المادية الفلسفية الماركسية فهي بدورها، تعارض المثالية الفلسفية من حيث الأساس وعلى خط مستقيم.

٢- تمييز المادية الفلسفية الماركسية بالخطوط الأساسية التالية:

أ- خلافاً للمثالية التي تعتبر العالم تجسداً لـ«الفكرة المطلقة» أو لـ«العقل الكلي» أو لـ«الوعي»، تسير مادية ماركس الفلسفية من المبدأ القائل أن العالم بطبيعته مادي، وأن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة، وأن العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية، هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة، وأن العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة، وهو ليس بحاجة لأي «عقل كلي».

ولقد قال ماركس: بصدد قضية المادة والفكر:

لا يمكن فصل الفكر عن المادة ذاتها. فإن هذه المادة هي جوهر كل التغيرات التي تحدث، (فريدريك انجلس: الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية- المقدمة).

ولما عرف لينين المادية الفلسفية الماركسية أفصح عن رأيه بالعبارات التالية:

«تقبل المادية بصورة عامة أن الكائن الواقعي الموضوعي (المادة) هو مستقل عن الإدراك، عن الإحساسات، عن التجربة... فالإدراك، ليس إلا انعكاس الكائن، وهو في أحسن الحالات، انعكاس صحيح تقريباً (أي انعكاس تام، بالغ أعلى دراجات الدقة»)، (لينين: المؤلفات الكاملة- المجلد ١٣- الطبعة الروسية).

وقال فيما بعد:

«المادة هي ما ينتج الإحساسات بالتأثير في أعضاء حواسنا، المادة هي واقع موضوعي تعطينا إياه الإحساسات. المادة، والطبيعة، والكائن، والموجود الفيزيائي هي العنصر الأول» بينما العقل، والإدراك والإحساسات، والموجود النفسي، هي العنصر الثاني».

«إن لوحة العالم هي لوحة تبين كيف تتحرك المادة وكيف «تفكر المادة» «الدماغ هو عضو التفكير».

ج) خلافاً للمثالية التي تنكر إمكان معرفة العالم وقوانينه، ولا تؤمن بقيمة معارفنا ولا تعترف بالحقيقة الموضوعية. وتعتبر أن العالم مملوء بـ«أشياء قائمة بذاتها» ولن يتوصل العلم أبداً إلى معرفتها تقوم المادية الفلسفية الماركسية على المبدأ القائل أنه من الممكن تماماً معرفة العالم وقوانينه، وأن معرفتنا لقوانين الطبيعة، تلك المعرفة التي يجري تحقيقها بالعمل والتجربة، هي معرفة ذات قيمة، ولها معنى حقيقة موضوعية، وأن ليس في العالم أشياء لا يمكن معرفتها، وإنما فيه أشياء لا تزال مجهولة بعد، وهي ستكشف وتصبح معروفة بوسائل العلم والعمل.

وينتقد انجلس رأي «كانت»[1] والمثاليين الآخرين القائل أنه ليس من الممكن معرفة العالم و«الأشياء بذاتها»، ويدافع عن الرأي المادي المعروف القائل بأن معارفنا صحيحة وقد كتب انجلس في هذا الموضوع ما يلي:

«إن أعظم رد حاسم على هذه النزعة الفلسفية وعلى كل نزعة أخرى غيرها هو العمل وعلى الأخص التجربة والصناعة. فإذا استطعنا أن

(١) ..... عمانوئيل كانت Kant «١٧٤٢- ١٨٠٤» فيلسوف ألماني من كبار فلاسفة العصور الحديثة واضع المذهب المسمى بـ«المثالية النقدية» التي فتحت الطريق لتطور المثالية الديالكتيكية المطلقة التي وضعها هيغل فيما بعد (هيئة التعريب).

نبرهن عل صحة فهمنا لحادث طبيعي بخلق هذا الحادث بأنفسنا، وبأحداثه بمساعدة شروطه، وباستخدامه، فوق ذلك، في سبيل أغراضنا، ففي ذلك القضاء المبرم على (الشيء بذاته) والذي لا يمكن إدراكه، مما يذهب إليه (كانت) فإن المواد الكيماوية الناتجة من الأجسام النباتية والحيوانية، ظلت (أشياء قائمة بذاتها) إلى أن أخذت الكيمياء العضوية بتحضيرها الواحدة بعد الأخرى، وبذلك أصبح (الشيء بذاته) شيئاً كائناً من أجلنا، كالاليزارين، مثلاً، وهي المادة الصباغية في نبات الفوة والتي لم نعد نستخرجها من جذور الفوة المزروعة في الحقول. بل نسحبها بثمن أرخص وبصورة أبسط من قطران الفحم الحجري. وقد بقي نظام كوبرنيك[(١)] الشمسي خلال ثلاثماية سنة، فرضية يمكن المراهنة على صحتها بمئة، أو بألف أو بعشرة آلاف ضد واحد، إلا أنها كانت، رغم كل شيء، فرضية. ولكن لما حسب لوفيربيه[(٢)] بمساعدة أرقام حصل عليها بفضل هذا النظام، ليس فقط ضرورة وجود كوكب مجهول، بل أيضاً المكان الذي يجب أن يكون فيه هذا الكوكب في الفضاء الكوني ولما اكتشف (غال) هذا الكوكب فعلاً فيما بعد، حينئذ تم البرهان على صحة نظام «كوبرنيك».

واتهم لينين بوغدانوف وبازاروف ويوشكيفيتش وأنصار (ماخ) الآخرين بـ«الإيمانية» و«هي نظرية رجعية تضع الإيمان فوق العلم»، ودافع عن النظرة المادية المشهورة القائلة بأن معارفنا العلمية عن قوانين الطبيعة

---

(١) ..... نيقولا كوبرنيك «١٤٦٣- ١٥٤٣» عالم فلكي بولوني برهن على حركة الكواكب السيارة ودورانها حول نفسها من جهة وحول الشمس من جهة أخرى.

(٢) ..... لوفيربيه «١٨١١- ١٨٧٧» عالم فلكي فرنسي قام بحسابات فلكية برهن بموجبها على ضرورة وجود كوكب سيار عين محله بالضبط، ولقد اكتشف هذا الكوكب فيما بعد وسمى نبتون.

هي صحيحة وأن القوانين العلمية هي حقائق موضوعية، وقد قال في هذا الموضوع ما يلي:

«إن «الإيمانية» لا تنبذ العلم أبداً، بل تنبذ «مزاعمه المتطرفة»، أي زعمه الكشف عن الحقيقة الموضوعية. لأنه إذا كان هناك حقيقة موضوعية «كما يفكر الماديون»، وإذا كانت علوم الطبيعة التي تعكس العالم الخارجي في «التجربة» البشرية، هي وحدها القادرة على إعطائنا الحقيقة الموضوعية، أصبح من الواجب نبذ كل نظرية إيمانية على الإطلاق» «لينين: المؤلفات الكاملة: المجلد ١٣- ص١٠٢ الطبعة الروسية».

تلك هي بإيجاز الخطوط التي تميز المادية الفلسفية الماركسية.

ومن السهل أن ندرك الأهمية العظمى لتطبيق مبادئ المادية الفلسفية على درس الحياة الاجتماعية، على درس تاريخ المجتمع، كما أنه من السهل أن ندرك الأهمية العظمى لتطبيق هذه المبادئ على تاريخ المجتمع، على النشاط العملي لحزب البروليتاريا.

فإذا صح أن الصلة بين حوادث الطبيعة وتكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة، هما قانونان ضروريان من قوانين تطور الطبيعة، نتج من ذلك أن الصلة بين حوادث الحياة الاجتماعية وكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة، ليسا مجرد احتمالات، بل هما أيضاً قانونان ضروريان من قوانين التطور الاجتماعي.

وبالتالي، تخرج الحياة الاجتماعية، وتاريخ المجتمع عن كونهما تكدس «احتمالات» بل يصبح تاريخ المجتمع تطوراً ضرورياً للمجتمع، وتصبح دراسة التاريخ الاجتماعي علماً.

وعلى ذلك، يجب أن يكون النشاط العملي لحزب البروليتاريا مؤسساً

لا على الرغبات المحدودة «لنخبة من الأفـراد» ولا على مقتضيات «العقل» و«الأخلاق الكلية».. الخ.. بل على قوانين التطور الاجتماعي، وعلى دراسة هذه القوانين.

وبعد، إذا صح أن معرفة العالم ممكنة، وأن معرفتنا لقوانين تطور الطبيعة هي معرفة صحيحة لها دلالة حقيقة «موضوعية»، نتج من ذلك أن معرفة الحياة الاجتماعية، ومعرفة التطور الاجتماعي هي أيضاً ممكنة، وأن المعلومات التي يقدمها العلم عن قوانين التطور الاجتماعي هي معلومات مقبولة، لها دلالة حقائق موضوعية.

وبالتالي، من الممكن أن يصبح علم تاريخ المجتمع رغم تعقد حوادث الحياة الاجتماعية وتشابكها، علماً فيه من الدقة ما في البيولوجيا(١) مثلاً وقـادراً على استخدام قوانين التطور الاجتماعي في تطبيقات عملية.

وبالتالي، يجب على حـزب البروليتاريا، في نشاطه العملي، أن لا يستوحي أي سبب طـارئ أيـاً كـان، بل أن يستوحي قوانين التطور الاجتماعي والنتائج العملية التي تنتج من هذه القوانين.

وبالتالي، تصبح الاشتراكية علماً، بعد أن كانت فيما مضى حلماً بمستقبل أحسن للإنسانية.

وبالتالي، ينبغي أن يصبح الارتباط والوحدة بين العلم والنشاط العملي، بين النظريات والعمليات، الكوكب الذي يهتدي به حزب البروليتاريا.

وبعد، إذا صح أن الطبيعة، أو الكائن، أو العالم المادي هو العنصر الأول، بينما الإدراك أو الفكر، هو العنصر الثاني، المشتق، وإذا صح أن العالم المادي هو واقع موضوعي موجود بصورة مستقلة عن إدراك الناس، بينما الإدراك هو انعكاس هذا الواقع الموضوعي، نتج عن ذلك:

(١) ..... البيولوجيا: علم يدرس تركيب الأنواع الحية من حيوانية أو نباتية وتطورها.

أن حياة المجتمع المادية، أو موجود المجتمع، هو أيضاً العنصر الأول، أما حياة المجتمع العقلية فهي عنصر ثان، مشتق، وأن حياة المجتمع المادية هي واقع موضوعي موجود بصورة مستقلة عن إرادة الإنسان، أما حياة المجتمع العقلية فهي انعكاس هذا الواقع الموضوعي أو انعكاس الموجود.

وبالتالي يجب البحث عن منشأ حياة المجتمع العقلية، وعن أصل الأفكار الاجتماعية، والنظريات الاجتماعية، والآراء السياسية، والأوضاع السياسية، لا في الأفكار والنظريات، ولا في الآراء والأوضاع السياسية نفسها، بل في شروط الحياة المادية للمجتمع، في الموجود الاجتماعي الذي تكوّن هذه الأفكار والنظريات والآراء وما إليها انعكاساً له.

وبالتالي، إذا كنا نشاهد في مختلف أدوار تاريخ المجتمع، أفكاراً ونظريات اجتماعية مختلفة، وآراء وأوضاعاً سياسية متباينة، إذا كنا نجد في ظل نظام الرق هذه الأفكار والنظريات والآراء والأوضاع السياسية نفسها والأوضاع السياسية، بينما نجد غيرها في ظل الإقطاعية، وغيرها أيضاً في ظل الرأسمالية، فتفسير ذلك ليس في «طبيعة» الأفكار والنظريات والآراء والأوضاع السياسية نفسها ولا في خصائصها، بل في شروط الحياة المادية للمجتمع في مختلف أدوار التطور الاجتماعي.

فالموجود الاجتماعي وشروط الحياة المادية للمجتمع هي التي تحدد أفكار المجتمع ونظرياته وآراءه السياسية وأوضاعه السياسية.

وقد كتب ماركس في هذا الموضوع ما يلي:

«ليس إدراك الناس هو الذي يحدد معيشتهم بل على العكس من ذلك أن معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد إدراكهم» «كارل ماركس. مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي المقدمة».

وبالتالي، لأجل اجتناب الخطأ في السياسة وعدم الاستسلام لأحلام فارغة، يجب على حزب البروليتاريا أن يؤسس عمله ليس على «مبادئ العقل الإنساني» المجردة، بل على الظروف الوقعية لحياة المجتمع المادية هذه الظروف التي تؤلف القوة الحاسمة في التطور الاجتماعي، ويجب عليه أن يبني عمله ليس على «رغبات عظام الرجال» المحمودة، بل على الحاجات الواقعية الحقيقية لتطور حياة المجتمع المادية.

أن مما يفسر سقوط الطوباويين بمن فيهم الشعبيون والفوضويون، والاشتراكيون الثوريون، هو أنهم لم يكونوا يعترفون بالدور الأولي الذي تلعبه ظروف الحياة المادية للمجتمع في تطور المجتمع فقد وقعوا في المثالية، ولم يبنوا نشاطهم العملي على حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع، بل بنوه بصورة مستقلة عن هذه الحاجات وبالرغم منها، على برامج «مثالية» و«مشاريع عامة» منفصلة عن حياة المجتمع الواقعية.

إن مصدر قوة الماركسية اللينينية وحيويتها، هو أنها تستند في نشاطها العملي إلى حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع، دون أن تنفصل أبداً عن حياة المجتمع الواقعية.

غير أنه لا ينتج من أقوال ماركس أن الأفكار والنظريات الاجتماعية، والآراء والأوضاع السياسية، ليس لها شأنها أو أهميتها في الحياة الاجتماعية، أو أنها لا تؤثر تأثيراً مقابلاً في المعيشة الاجتماعية، وفي تطور الشروط المادية للحياة الاجتماعية. فنحن لم نتكلم حتى الآن إلا عن أصل الأفكار والنظريات الاجتماعية، والآراء والأوضاع السياسية، وعن نشوئها وظهورها، فقلنا أن حياة المجتمع الروحية هي انعكاس لظروف حياته المادية. أما من حيث أهمية هذه الأفكار والنظريات الاجتماعية، وهذه الآراء والأوضاع السياسية، ومن حيث دورها في

التاريخ، فالمادية التاريخية لا تنكر ذلك، بل أنها على العكس تشير إشارة خاصة إلى دورها وأهميتها العظيمين في الحياة الاجتماعية وفي تاريخ المجتمع.

أن الأفكار والنظريات الاجتماعية تختلف، فثمة أفكار ونظريات عتيقة فات أوانها، وهي تخدم مصالح القوى الآخذة بالاضمحلال والفناء في المجتمع. فخطورتها مقتصرة على أنها تكبح تطور المجتمع وتعوق رقيه. وثمة أفكار ونظريات جديدة، أفكار الطليعة ونظرياتها تخدم مصالح قوى الطليعة في المجتمع، وأهميتها قائمة على أنها تسهل تطور المجتمع ورقيه، وهي، فوق ذلك، كلما كان عكسها لحاجات تطور الحياة المادية للمجتمع أصدق، كانت الأهمية التي تكتسبها أكبر.

أن الأفكار والنظريات الاجتماعية الجديدة لا تبرز إلا عندما يضع تطور الحياة المادية للمجتمع، مهمات جديدة أمام المجتمع ولكنها إذا ما برزت أصبحت قوة ذات أهمية من الدرجة العليا، تسهل إنجاز المهمات الجديدة التي يضعها تطور الحياة المادية للمجتمع، وتسهل رقي المجتمع. وتبدو إذ ذاك أهمية الدور الذي تقوم به الأفكار والنظريات الجديدة والآراء والأوضاع السياسية الجديدة، من حيث هي قوة تنظيم وتعبئة وتحويل. وفي الحقيقة، أن الأفكار و النظريات الاجتماعية الجديدة إنما تظهر لأنها ضرورية للمجتمع، فبدون عملها المنظم والمعبئ والمحول يستحيل حل المسائل العاجلة الملحة التي يقتضيها تطور الحياة المادية للمجتمع.

فالأفكار والنظريات الاجتماعية الجديدة، التي يبعثها ما يضعه تطور حياة المجتمع المادية من مهمات جديدة، تشق لنفسها الطريق، وتتبناها الجماهير الشعبية، فتعبئ هذه الجماهير وتنظمها ضد القوى المتلاشية في المجتمع، وتسهل بذلك القضاء على هذه القوى التي تكبح تطور الحياة المادية للمجتمع.

وهكذا إذن الأفكار والنظريات الاجتماعية، والأوضـاع السياسية تتولد من المهمات العاجلة التي يضعها تطور الحياة المادية للمجتمع، ثم تؤثر هي نفسها فيما بعد في المعيشة الاجتماعية، وفي حياة المجتمع المادية، يخلفها الشروط اللازمة لحل المسائل العاجلة الملحة في حياة المجتمع المادية، وجعل تطور المجتمع إلى الأمام ممكناً.

وقد قال ماركس في هذا الموضوع:

«تصبح النظرية قوة مادية منذ سيطرتها على ألباب الجماهير».

فإذن: لأجل أن يستطيع حزب البروليتاريا التأثير في ظروف الحياة المادية للمجتمع، وتعجيل تطورها وتحسينها، يجب عليه أن يستند إلى نظرية اجتماعية تفصح بدقة عن حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع، وتكون بذلك قادرة على تحريك الجماهير الشعبية الغفيرة، وقادرة على تعبئتها وتنظيمها في جيش حزب البروليتاريا الكبير، هذا الجيش المستعد لتحطيم القوى الرجعية، وشق الطريق للقوى المتقدمة في المجتمع.

أن مما يفسر سقوط «الاقتصاديين»، أنهم كانوا لا يعترفون بالدور المعبئ والمنظم والمحول الذي تقوم به نظرية الطليعة، وفكرة الطليعة. إذ أنهم وقعوا في المادية المبتذلة فجعلوا هذا الدور في حكم العدم تقريباً، ولذلك كانوا يحملون الحزب على أن يبقى منفعلاً غير فاعل، وأن يقبع دون نضال ودون عمل.

وأن مصدر قوة الماركسية اللينينية، ومنبع حيويتها، هو أنها تستند إلى نظرية متقدمة هي نظرية الطليعة، التي تنعكس فيها بدقة حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع، وأنها تضع النظريات في المكان الرفيع اللائق بها، وتعتبر أن من واجبها الاستفادة إلى النهاية من قوتها المعبئة والمنظمة والمحولة.

على هذه الصورة تحل المادية التاريخية مسألة العلاقات بين الكائن الاجتماعي والوعي الاجتماعي، بين ظروف تطور الحياة المادية وتطور الحياة الروحية للمجتمع.

٣- المادية التاريخية: بقيت مسألة تحتاج إلى إيضاح: ماذا ينبغي أن نفهم من وجهة نظر المادية التاريخية، عندما نقول شروط حياة المجتمع المادية، التي تحدد، في النهاية، هيئة المجتمع وأفكاره وآراءه وأوضاعه السياسية وما إليها؟.

ما هي «شروط حياة المجتمع المادية»؟ ما هي الخطوط التي تميزها؟.

من المؤكد أن المفهوم «شروط حياة المجتمع المادية» يشمل، قبل كل شيء، الطبيعة التي تحيط بالمجتمع، أو الوسط الجغرافي الذي يؤلف أحد الشروط الضرورية الدائمة لحياة المجتمع المادية والذي يؤثر ولا ريب في تطور المجتمع. فما هو أثر الوسط الجغرافي في التطور الاجتماعي؟ ألا يكون الوسط الجغرافي القوة الرئيسية التي تحدد هيئة المجتمع وتعين طابع نظام الناس الاجتماعي، وتقرر الانتقال من نظام إلى آخر؟.

تجيب المادية التاريخية على هذا السؤال بالنفي. فالوسط الجغرافي هو، دون جدال، أحد الشروط الدائمة والضرورية لتطور المجتمع، ومن المؤكد أنه يؤثر في هذا التطور، فهو يعجل أو يبطئ سير التطور الاجتماعي، ولكن ليس هذا التأثير حاسماً، لأن تطور المجتمع وتغيراته تجري بصورة أسرع بكثير من تطور الوسط الجغرافي وتغيراته. فقد تتالت على أوروبا خلال ثلاثة آلاف سنة، ثلاثة أنظمة اجتماعية مختلفة هي المشاعية البدائية، والرق، والنظام الإقطاعي، بل تعاقبت في شرق أوروبا، في أراضي الاتحاد السوفياتي، أربعة أنظمة، أما شروط أوروبا

الجغرافية فلم تتغير قط خلال هذه المرحلة نفسها. وإذا كان قد طرأ عليها بعض التغير فهو طفيف جداً، حتى أن الجغرافيين يهملون التحدث عنه. وهذا مفهوم، لأن حدوث تغييرات لها شيء من الخطورة في الوسط الجغرافي يحتاج إلى ملايين السنين، بينما تكفي بضع مئات السنين أو حوالي ألفي سنة لحدوث تغييرات هامة جداً في نظام الناس الاجتماعي.

ينتج من ذلك أن الوسط الجغرافي لا يمكن أن يكون السبب الأساسي أو السبب الحاسم للتطور الاجتماعي إذ أن ما يبقى دون تغيير تقريباً، خلال عشرات الألوف من السنين، لا يمكن أن يكون السبب الأساسي لتطور شيء معرض لتغييرات أساسية خلال بضع مئات السنين.

ومن المؤكد أيضاً أن نمو السكان وكثافتهم يدخلان في مفهوم «شروط حياة المجتمع المادية»، لأن الناس هم عنصر أساسي لابد منه في شروط حياة المجتمع المادية، وبدون حد أدنى من الناس لا يمكن أن تكون هنالك أية حياة مادية للمجتمع، أفلا يكون نمو السكان وكثافتهم القوة الأساسية التي تحدد طابع نظام الناس الاجتماعي؟.

تجيب المادية التاريخية على هذا السؤال أيضاً بالنفي. لا جرم أن نمو السكان يؤثر في التطور الاجتماعي، فيسهله أو يبطئه، ولكن لا يمكن أن يكون القوة الأساسية للتطور الاجتماعي ولا يمكن أن يكون تأثيره فيه تأثيراً حاسماً، لأن نمو الناس بحد ذاته، لا يعطينا مفتاح السؤال التالي: لماذا يعقب هذا النظام الاجتماعي ذاك النظام الاجتماعي لا غيره؟ لماذا يعقب نظام الرق المشاعية البدائية؟ ولماذا يعقب النظام الإقطاعي نظام الرق؟ ولماذا يعقب النظام البورجوازي لا غيره، النظام الإقطاعي؟.

فلو كان نمو السكان هو القوة الأساسية للتطور الاجتماعي، لكان من الواجب، بالضرورة، أن ينشأ عن ازدياد كثافة السكان، نوع من نظام

اجتماعي أعلى وأرقى، وهو أمر غير واقع. فكثافة السكان هي في الصين أعلى بأربع مرات منها في الولايات المتحدة، ومع ذلك فالولايات المتحدة هي في مستوى أعلى من الصين من حيث التطور الاجتماعي، فلا يزال النظام السائد في الصين نظاماً شبه إقطاعي في حين أن الولايات المتحدة قد بلغت منذ أمد طويل المرحلة العليا للتطور الرأسمالي. وكثافة السكان في بلجيكا أعلى بتسع عشرة مرة منها في الولايات المتحدة، وبست وعشرين مرة منها في الاتحاد السوفياتي، ومع ذلك فالولايات المتحدة هي في مستوى أرقى من بلجيكا من حيث التطور الاجتماعي، أما بالنسبة للاتحاد السوفياتي، فلا تزال بلجيكا متأخرة عهداً تاريخياً كاملاً، لأن النظام الرأسمالي يسود بلجيكا، في حين أن الاتحاد السوفياتي قد انتهى من الرأسمالية وأقام النظام الاشتراكي.

ينتج من ذلك أن نمو السكان ليس ولا يمكن أن يكون القوة الأساسية لتطور المجتمع، أي القوة التي تحدد طابع النظام الاجتماعي وهيئة المجتمع.

أ- ولكن ما هي إذن، في مجموعة شروط حياة المجتمع المادية، القوة الأساسية التي تحدد هيئة المجتمع وطابع النظام الاجتماعي وتقرر تطور المجتمع من نظام إلى آخر؟

تعتبر المادية التاريخية أن هذه القوة هي أسلوب الحصول على وسائل المعيشة الضرورية لحياة الناس، أي أسلوب إنتاج الحاجات المادية كالغذاء واللباس والأحذية والمسكن والوقود وأدوات الإنتاج... الخ، التي لابد منها حتى يستطيع المجتمع أن يحيا وأن يتطور.

فلابد، لأجل الحياة، من غذاء ولباس وأحذية ومسكن ووقود الخ... ولأجل الحصول على هذه الحوائج المادية يجب إنتاجها ولأجل إنتاجها لابد من أدوات الإنتاج التي ينتج الناس بمعونتها الغذاء واللباس والأحذية

والمسكن والوقود الخ.. ولابد من معرفة إنتاج هذه الأدوات، ولابد من معرفة استخدامها.

فأدوات الإنتاج التي بمعونتها تنتج الحوائج المادية، والناس الذين يستعملون أدوات الإنتاج هذه، وينتجون الحوائج المادية بفضل ما لديهم من تجربة في الإنتاج ومن عادات للعمل، تلك هي العناصر التي تؤلف، بمجموعها، قوى المجتمع المنتجة.

ولكن القوى المنتجة لا تؤلف إلا جانباً واحداً من الإنتاج، أي جانباً واحداً من أسلوب الإنتاج، وهو الجانب الذي يعبر عن سلوك الناس نحو أشياء الطبيعة وقواها التي يستخدمونها لإنتاج الحوائج المادية. أما الجانب الآخر للإنتاج، أي الجانب الآخر لأسلوب الإنتاج، فهو علاقة الناس فيما بينهم أثناء سير الإنتاج، أو ما يسمى علاقات الإنتاج بين الناس. فالناس في نضالهم ضد الطبيعة التي يستثمرونها لإنتاج الحوائج المادية، ليسوا منفردين، منعزلين بعضهم عن بعض، وليسوا أفراداً أحدهم منفصل عن الآخر، بل هم ينتجون معاً في جماعات أو جمعيات.. فالإنتاج هو، دائماً ومهما تكن الشروط، إنتاج اجتماعي.

ففي أثناء إنتاج الحوائج المادية يقيم الناس فيما بينهم هذه العلاقات أو تلك ضمن نطاق الإنتاج، أي يقيمون فيما بينهم هذه أو تلك من علاقات الإنتاج. ويمكن أن تكون هذه العلاقات علاقات تعاون وتعاضد بين أناس محررين من كل استثمار، ويمكن أن تكون علاقات سيطرة وخضوع، كما يمكن أن تكون علاقات انتقال شكل من أشكال علاقات الإنتاج إلى شكل آخر. ولكن مهما يكن الطابع الذي تتسم به علاقات الإنتاج فهي دائماً وتحت كل الأنظمة، عنصر ضروري لا غنى عنه في الإنتاج، مثلها في ذلك مثل قوى المجتمع المنتجة سواء بسواء.

يقول ماركس:

في الإنتاج، لا يؤثر الناس في الطبيعة فقط، بل يؤثر بعضهم في البعض الآخر أيضاً، فهم لا ينتجون إلا بالتعاون فيما بينهم على شكل معين، وبتبادل النشاط فيما بينهم. ومن أجل أن ينتجوا، يدخل بعضهم مع بعض في صلات وعلاقات معينة، ولا يتم تأثيرهم في الطبيعة، أي لا يتم الإنتاج، إلا في حدود هذه الصلات والعلاقات الاجتماعية. (كارل ماركس: العمل المأجور ورأس المال).

يستخلص من ذلك أن الإنتاج، أو أسلوب الإنتاج، يشمل قوى المجتمع المنتجة كما يشمل علاقات الإنتاج بين الناس سواء بسواء، ففيه يتجسد اتحاد الطرفين خلال عملية إنتاج الحوائج المادية.

ب- الخاصة الأولى للإنتاج أنه لا يقف أبداً مدة طويلة في نقطة معينة: فهو دائماً في حالة تغير ونمو. وعلاوة على ذلك، فإن تغير أسلوب الإنتاج يؤدي بصورة حتمية إلى تغير النظام الاجتماعي بأسره، وتغير الأفكار الاجتماعية والآراء والمؤسسات السياسية. أن تغير أسلوب الإنتاج يؤدي إلى صهر النظام الاجتماعي والسياسي كله صهراً جديداً. ويستخدم الناس في مختلف درجات التطور، أدوات إنتاج مختلفة أي أنهم، بعبارة أبسط يحيون حياة مختلفة. ففي المشاعية البدائية أسلوب للإنتاج، وفي الرق أسلوب آخر، وفي الإقطاعية أسلوب ثالث، وهكذا. ويختلف نظام الناس الاجتماعي، وتختلف حياتهم العقلية، وآراؤهم، ومؤسساتهم السياسية، حسب أساليب الإنتاج هذه.

أن المجتمع ذاته، وأفكاره ونظرياته، وآراءه ومؤسساته السياسية، تتعلق، من حيث الأساس، بأسلوب الإنتاج في المجتمع أو بعبارة أبسط: كل نمط من المعيشة، يطابقه نمط من التفكير.

ومعنى هذا أن تاريخ تطور المجتمع، هو، قبل كل شيء، تاريخ تطور الإنتاج، تاريخ أساليب الإنتاج التي تتعاقب خلال العصور، تاريخ تطور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج بين الناس.

وبالتالي، فإن تاريخ التطور الاجتماعي هو في الوقت نفسه تاريخ منتجي الحوائج المادية، تاريخ الجماهير الكادحة التي هي القوى الأساسية في عملية الإنتاج والتي تنتج الحوائج المادية الضرورية لمعشية المجتمع.

وبالتالي، إذا أراد العلم التاريخي أن يكون علماً حقيقياً كان عليه أن لا يقصر تاريخ التطور الاجتماعي على أعمال الملوك وقادة الجيوش، أعمال «الفاتحين» و«مستعبدي» الدول، بل أن يهتم قبل كل شيء، بتاريخ منتجي الحوائج المادية، تاريخ الجماهير الكادحة، تاريخ الشعوب.

فإذن: يجب أن لا نبحث عن المفتاح الذي يسمح لنا بالكشف عن قوانين تاريخ المجتمع، في أدمغة الناس: أو في آراء المجتمع وأفكاره، بل يجب أن نبحث عنه في أسلوب الإنتاج الذي يمارسه المجتمع خلال كل دور من أدوار التاريخ، أي في حياة المجتمع الاقتصادية.

وبالتالي، فمهمة العلم التاريخي الرئيسية هي دراسة وكشف قوانين الإنتاج، وقوانين تطور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج، أو قوانين التطور الاقتصادي للمجتمع.

وبالتالي، إذا أراد حزب البروليتاريا أن يكون حزباً حقيقياً، فيجب عليه أن يتعلم، قبل كل شيء، علم قوانين تطور الإنتاج وقوانين التطور الاقتصادي للمجتمع.

وبالتالي، يجب على حزب البروليتاريا، لاجتناب الخطأ في السياسة أن يستوحي، قبل كل شيء، في وضع برنامجه، كما في نشاطه العملي، قوانين

تطور الإنتاج وقوانين التطور الاقتصادي للمجتمع.

ج- خاصة الإنتاج الثانية هي أن تطوره وتغيراته تبدأ دائماً بتغير القوى المنتجة وتطورها، وبتغيير وتطور أدوات الإنتاج قبل غيرها. فالقوى المنتجة هي إذن أكثر عناصر الإنتاج حركة وثورة. ففي بادئ الأمر تتعدل القوى المنتجة في المجتمع وتتطور، وبعدئذ، تبعاً لهذه التعديلات وطبقاً لها، تتعدل علاقات الإنتاج بين الناس أي علاقاتهم الاقتصادية. غير أن ذلك لا يعني أن علاقات الإنتاج لا تؤثر في تطور القوى المنتجة، أو هذه لا تتعلق بتلك، فإن علاقات الإنتاج، التي يتعلق تطورها بتطور القوى المنتجة، تؤثر بدورها في تطور القوى المنتجة، فتجعله أو تبطئه. ومن المهم أن نلاحظ علاوة على ذلك، أن علاقات الإنتاج لا يمكن أن تتأخر أمداً طويلاً عن نمو القوى المنتجة وأن تبقي في تناقض مع هذا النمو لأن القوى المنتجة لا تستطيع أن تتطور تطوراً تاماً إلا عندما تكون علاقات الإنتاج مطابقة لطابع القوى المنتجة وحالتها، وتفسح لها مجال التطور بحرية. ولذلك فمهما تأخرت علاقات الإنتاج عن تطور القوى المنتجة، فلابد من أن ينتهي بها الأمر- وهو فعلاً ينتهي- بالمطابقة بينها وبين مستوى تطور القوى المنتجة، وأن تتخذ طابعاً يلائم طابع هذه القوى المنتجة، وإلا تعرضت الوحدة التي تجمع، في نظام الإنتاج بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج إلى خطر التفكك «فيؤدي ذلك إلى حدوث انقطاع في مجموع الإنتاج، إلى وقوع أزمة في الإنتاج، إلى تحطيم القوى المنتجة.

في الأقطار الرأسمالية- حيث الملكية الخاصة الرأسمالية، لوسائل الإنتاج، تناقض، بصورة بينة، الطابع الاجتماعي لعملية الإنتاج، أي طابع القوى المنتجة- تكون الأزمات الاقتصادية مثالاً للتنافر والخلاف بين

علاقات الإنتاج وطابع القوى المنتجة، ومثالاً للنزاع الناشب بينها. فإن الأزمات الاقتصادية التي تؤدي إلى تحطيم القوى المنتجة، هي نتيجة هذا الخلاف. وعلاوة على ذلك، فإن هذا الخلاف نفسه هو الأساس الاقتصادي للثورة الاجتماعية المدعوة إلى هدم علاقات الإنتاج الحالية، وخلق علاقات جديدة مطابقة لطابع القوى المنتجة.

أما الاقتصاد الاشتراكي في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية- حيث الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج هي في توافق تام مع الطابع الاجتماعي لعملية الإنتاج، وحيث لا نجد، بالتالي، لا أزمات اقتصادية ولا تحطيماً للقوى المنتجة- فهو مثال للاتفاق التام بين علاقات الإنتاج وطابع القوى المنتجة.

فإذن، ليست القوى المنتجة أكثر عناصر الإنتاج حركة وثورة فقط، بل هي أيضاً العنصر الحاسم في تطور الإنتاج.

واكتفي بهذا القدر من فكر (ستالين) ولعل فكره هذا فيه الإجابة عن سر تصرفات ذلك الذئب الأحمر (ستالين).

فهرس المحتويات